المؤلفة الحائزة على
جائزة
ليسيه لنز

برلنسامت

باربارا بونجارتس

ترجمة: محمود عبد النبي

باربارا بونجارتس

برلنسامت

رواية

ترجمة: محمود عبدالنبي

مراجعة: ابتسام المتوكل

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م
حقوق الطبع محفوظة

برلنسامت
باربارا بونجارتس

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م
حُقُوقُ الطبع مَحْفُوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث(كلمة)
Perlensamt.2009Barbara Bongartz
برلنسامت: رواية/ تأليف باربارا بونجارتس، ترجمها عن الألمانية محمود عبد النبي، مراجعة إبتسام المتوكل – أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة2011.
348ص؛ 14×21سم
ترجمة كتاب: Perlensamt
تدمك: 978-9948-01-767-7

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Barbara Bongartz
Perlensamt
© 2009 by weissbooks, Frankfurt am Main

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

http://www.fask.uni-mainz.de

Johannes Gutenberg-Universität Mainz
Fachbereich Translations-, Sprach- und Kulturwissenschaft
An der Hochschule 2, 76726 Germersheim
Postfach 11 50, 76711 Germersheim
Telefon: 07274-508-0, Fax: 07274-50835-429

برلنسامت

رواية



من تحدث معه قصة مظلمة، لن يستطيع حلها بحب سطحي.

مقدمة

في بعض الليالي، وعندما أحلم بسبب نوم خفيف مضطرب، أراها أمامي. روزي ساوندرز. امرأة رقيقة بشعر كثيف، في بعض الأحيان تكون فتية جداً. وتأتي إلى سريري: *هل أنت مستيقظ يا تني؟ تعال،انهض، لقد حان الوقت لكي نختفي، دون أن يلحظ ذلك أحد. أنتَ وأنا فقط*. لقد فعلت هذا حقاً في إحدى المرات، في ليلة ضبابية، لم تكن بحاجة لأن توقظني، حملت حقيبتها هرباً من عائلة أرادت أن تجبرها على إسقاط جنينها. طفل غير شرعي: مارتين، تيني. أنا. الصورة تذوب في الصورة التالية. أرى روزي، كيف كانت تنظر إلى نهر هدسون[1]. قد يكون هذا حصل بالأمس، فالوقت أثناء الحلم يصعب تحديده. كانت تنتقل إلى الجهة الأخرى، حيث تموج في الغسق أعالي الأشجار في سنترال بارك، خلفها شرقاً ترى قبة بيير[2]. كاتدرائية سانت جون ذي دفين *St. John the Divine* [3] دوار كولومبس، شوارع وسط المدينة، بإمكانها أن ترى كل تلك الأماكن من هنا، من غرب سنترال بارك 145، إنه عنوانها الجديد. بيت مع بواب، وخمس عشرة غرفة على ارتفاع شاهق، شرفة تلتف حول البيت كله. روزي ساوندرز تنظر إلى مانهاتن، بينما المدينة في اضطراب، ذعر هائل، خوف بالغ، مستنقع

(1) هدسون: نهر في ولاية نيويورك ويصب بعد مروره في مدينة نيويورك في المحيط الأطلسي.

(2) قبة الكابتول بيير عاصمة دكوتا الجنوبية في الولايات المتحدة.

(3) كنيسة سانت جون ذي دفين في نيويورك وبها مقر أسقف نيويورك.

يولد الأساطير، أناس يهربون طلباً للنجاة. روزي تسمعهم، روزي تتنصت، تقرأ من ماضيها، تنظر إلى مستقبلها، روزي تقبض النقود، روزي تشتري. لا أعرف إنساناً واحداً باستثنائها هي فقط، نجح في التغلب على عجزه.

الأول

يوم أمس قررت أن أقضي على الوثائق التي تخص تاريخ عائلة برلنسامت. لم يكن الوقت متأخراً، ربما كان بعد الثامنة بقليل. الضوء المُنبعث من الحديقة ألقى على البلاط أمام الموقد ظلالاً ليلكية اللون. جلست أمام الموقد، كَوَّمتُ حطباً وأغصاناً جافة وورقاً وأشعلت هذا الهيكل الغريب. كان ينتابني شعور وكأن ماءً بارداً صُبَّ على ظهري، في كل مرة أرى فيها كيف تلتهم ألسنة اللهب الورق ومن ثم الأغصان الجافة، وكيف تبدأ أخيراً في قضم الحطب. كانت أمنيتي منذ أن كنت طفلاً، أن يكون لي موقد، فبيت مع موقدٍ كفيل بأن يخلق أحداثاً مثيرة. في زمنه الحالي يميل المرء للحركة وكأنه في مسرحية، حيث يتصور شريط الأحداث التي ربما قد حصلت. «مَنْ الذي شتم مَنْ أمام الموقد، وهو في حالة نصف سُكرٍ في منتصف الليل، ويرى أمامه الطلبات المقدمة والمرفوضة بأشكال مختلفة، والأسوأ من ذلك التي تم الموافقة عليها، والمآسي التي قادت إليها، كراهية رقيقة طالت لعدة قرون، ألم حارق.» منذ طفولتي وأنا أحب شيّ المارشمالو[1] والسجق على نيران الموقد. ولكن المرء يسأل نفسه، عن الأشياء التي اختفت في النيران دون أي أثر. من وصايا وملاحظات أو صور لها قيمة بالغة كأدلة إثبات.

تعرفت على برلنسامت في عصر يوم شديد الحرارة، قبل عام تقريباً. كان ذلك في نهاية آب/أغسطس، حيث كنت غاضباً من العمل في المكتب، وأردت أن أحرك رجليّ بعض الشيء. إن حرارة الجو لم تترك مجالاً لنسمة هواء منعشة، وأيضاً المشي لم يحقق الأمل المرجو، في

(1) مارشمالو: نوع من الحلوى.

تخفيف حدة غضبي، فقطعت نزهتي، وبدأت العودة مروراً بشارع فازانن شتراسه. توقفت أمام بوابة حديدية مُشَبَّكة، تُفضي إلى فِناءٍ داخلي يفصل البيت عن الشارع. نافورة، جدران من اللبلاب، دوالي العنب تتسلق جدران البيت، إنه مكان هادئ وبارد. لطالما توقفت أمام هذا المكان. ولكن، وعلى ما أعتقد، بدون نظرة متلهفة كهذه.

«هل يمكنني أن أساعدك؟».

لقد كنت مندهشاً ومفتوناً بما أرى، لدرجة أنني لم ألحظ أن رجلاً كان قد وقف في تلك الأثناء إلى جانب البوابة، لا بد أنه قد أتى من مدخل جانبي فظهوره حدث بطريقة خيالية من خلفية داكنة الظلمة. كان يرتدي سترةً من الصوف الخشن، وبنطالاً زيتوني اللون، وقميصاً وردياً. وما زاد الطين بله، كانت هناك لؤلؤة بحجم أظفر الإبهام بدت وكأنها تعوم في منتصف الشال. المظهر بدا لي غريباً، وليس بفعل الحرارة فقط. وبدا الرجل وكأنه انزلق خطأً من العصور الماضية إلى الحاضر. لقد كان في مثل سني، ولما رآني ابتسم، وانتظر بصبر جوابي. خلفه كان الفِناء الداخلي الخلاب، وكأنه مكان ساحر للجوء إليه.

أجبت: «كنت أفكر، بماذا يذكرني هذا البيت». «وكأنني أرى فيه بيت جدتي. لست متأكداً من ذلك، فهذا يعود لزمنٍ بعيد».

أنا أردّ أحياناً بمثل هذه الإجابات. فكذبة صغيرة بيضاء لا معنى لها، تجعل من موضوع معقد موضوعاً بسيطاً. أم هل كان علي أن أفسر للذي يقف أمامي، ما لا أستطيع أن أفسره لنفسي: الحظ المفاجئ؟

«بيت جدتك؟».

«في باريس. شقتها كانت تقع في مكان كهذا، ببيوت لها أفنية داخلية. إنها لوحة جميلة. شكراً جزيلاً».

أردت أن أذهب، غير أن الرجل فتح البوابة ودعاني للدخول قائلاً:

«باريس؟ رائع! عمتي كانت تسكن في باريس. إذا كان هذا المكان يذكرك بشقة جدتك، فلا بد أنك ترغب في رؤيته عن قرب».

مدَّ يده لي.

«برلنسامت، دافيد برلنسامت. أنا أسكن هنا».

«مارتين ساوندرز. شكراً للطفك».

تبعته إلى الفِناء. سار أمامي بخفة وبدت عليه البهجة، لأنني لبيت دعوته. أطلعني على كل زاوية في الفِناء، كل زخرفة. البيت وكل مرافقه بناه مالك بنك يهودي، اسمه إبراهيم سيليجمان ينتسب إلى السفارديم، في عهد وليام. كانت له ابنة وحيدة اسمها مارجريت، لمع نجمها في برلين في تجارة المجوهرات قبل أن تفتتح لها في عام 1920 أول فرعٍ في برشلونة، ثم تبعه فرع ثانٍ في نيويورك، لا بد أنها تعلمت ذلك بشكل غريزي من تاريخ أجدادها. قال برلنسامت ذلك وفي نبرته ما ينم عن الإعجاب. عندما سيطرت أسراب الحشرات النازية على أوروبا، وأتت على الأخضر واليابس، وقفت هنا كنبيَّه. قلت لنفسي: «يبدو وكأن برلنسامت مُطَّلِعٌ على تاريخ هذه العائلة بصورة جيدة، متعاطف معها بوضوح تام وكأن الأمر يتعلق بتاريخ عائلته». ثم استأنف قائلاً: «بالطبع اضطرت عائلة سيليجمان لترك بيتها. غير أن مارجريت المُحَنَّكة واجهت هذا الإكراه بطريقتها الخاصة، فأهدت كل شيءٍ ثمين للأصدقاء. حتى شجيرات الكاميليا– كانت مع شجيرات الريددندرين والبقس تعطي للفِناء طابعاً خلاباً قبل ليلة البلور الإمبراطورية[1] – قامت

(1) ليلة البلور مصطلح يستعمل للإشارة إلى عمليات نظمها ونفذها النازيون ضد مصالح وبيوت يهودية في ألمانيا بين التاسع والعاشر من نوفمبر 1938.

بنقلها إلى حدائق أخرى.

تركت العائلة البيت، وهي لا تحمل في أيديها سوى بعض حقائب السفر. وعندما تقدم الأوباش النازيون وهم يحلمون بالنوم على أسرَّة عائلة سيليجمان والأكل من أوانيها الفضية، وجدوا البيت خالياً وحديقة الفِناء مُقفرة».

«من أين لهم كل هذا؟» سألتُ برلنسامت.

فأجاب: «هناك الكثير من الوثائق التي تؤرخ لهذا الزمن، فقد كان النازيون فخورين بأعمالهم الوحشية، وكل شيء مدون في الملفات. كانوا حقيقة يريدون أن يؤكدوا أن كل عمل قبيح مسجَّل ومنسوب إليهم».

«هل قمت بكل هذه التحريات، فقط لأنك تسكن هنا؟».

«لكن الأغرب من هذا، ألا تقوم في هذه المدينة بالتحري، عندما يسكن المرء في مبنى قديم كهذا، وفي مثل هذا المكان، فإن هذا يعنى أن أشياء سيئة حصلت في تلك السنوات. عدا عن ذلك– جدي وجدتي– لقد كانت لنا صلة ليست مشرفة مع هؤلاء الناس».

ثم هزّ كتفيه، وكأن الأمر ليس ذا أهمية، أو كأن الموضوع ليس سوى وجهة نظر، مزاجي الجيد كان قد ذهب أدراج الرياح. فها هو إنسان يتحدث طواعية مجدداً عن الجريمة والعقاب. بدا وكأن الحديث هنا عن هذا الموضوع، كالحديث عن لعبة البايس بول.

«كما ترى فإن المكان قد عاد ليصبح معقولاً إلى حد ما، بالطبع فإن الشجيرات الموجودة الآن لا تذكر إلا بالقليل من سحر الماضي. هل تستطيع أن تتصور أشجار الكاميليا بين هذه الجدران؟ لا بد أنه كَحُلمٍ بالجنوب، وللأسف لا تتوفر صور عنها».

كان برلنسامت يتحدث معي بولع، لدرجة أنني لم أستغرب دعوته لي بعد انتهاء الجولة، لاحتساء كأس في شقته. قلت له، إنني آسف لرفض هذه الدعوة، بسبب ضغط العمل في المكتب.

«يا للأسف، لكن ربما تأتي مرة أخرى، مازال لدينا الكثير للحديث».

حدَّق بي بملامح جادة، دون أي ابتسامة، وبدت عيناه الكبيرتان السوداوان كلون شعره، بدتا هادئتين، وكأن اقتراحه ليس ذا أهمية خاصة. حينها شعرت بعدم الارتياح إلى حدٍ ما، دون أن أعرف السبب.

برلنسامت كان الشيء الذي ينعته الناس بالجميل، وهو عند الرجال، وهذا ما اعتقده، أكثر إثارة للإعجاب والحيرة منه عند النساء.

«بكل سرور»، قلت له وأنا في حالة من الإعجاب. «لم لا؟».

الثاني

أظن أنني كنت سأنسى الأمر، لو لم يفاجئني مقال صحفي غريب بعد عدة أيام، تحدث الصحفي عن جريمة *يكتنفها الغموض خلف كواليس أسطورية تم اكتشافها عند الغسق في غرفة نوم في بيت يقع في شارع فازانن شتراسه، في ذاك القصر المثير للإعجاب، الذي شُيِّدَ في نهاية القرن التاسع عشر، وتزينه نافورة في وسط الفناء والعديد من المنحوتات التشكيلية، ونباتات السرخس المتسلقة قديمة جداً ويزيد ارتفاعها عن المتر، شجيرات البَقْس في الإيجارات والزهور العديدة الأشكال تُضفي على المكان طابعاً حزيناً. كأنها بقايا بلاد غريم[1] الأسطورية في وسط العاصمة الجديدة الصاخبة بالحياة....*

«هل قرأت هذا المقال؟».

«ماذا؟».

«هذا هنا: قُتلت امرأة بالرصاص».

«هل تظن أن هذا لا يحصل إلا في الأفلام فقط ؟».

وضعت كتالوج المزاد جانباً وجلست إلى مكتبي الذي كان مُقابلاً لمكتب مني.

«بالطبع لا».

لففت طرف الجريدة على شكل أذن حمار، وحدقت النظر في المقال. لا بد أن يكون البيت الذي يدور الحديث عنه الآن، هو البيت

(1) الأخوان غريم: ياكوب غريم Jacob Grimm عاش هاناوْ، 1785 م– برلين 1868 م وأخوه فيلهلم غريم Wilhelm Grimm عاش هاناو، 1786 م– برلين، 1859 م. كان الأول لغويا وكاتبا ألمانيا. قام بمعية أخيه بتجميع العديد من القصص الشعبية الألمانية وإخراجها في كتاب حكايات للأطفال. ومن بين هذه القصص قصة بيضاء الثلج وذات الرداء الأحمر.

الذي يسكنه برلنسامت. قبل أيام قليلة كنت أقف في فِناء ذلك البيت، والآن حصلت فيه كارثة. أعترف أن الكوارث تجذبني، ولكنني لا أحب الحديث عنها. وعلى أيَّة حال، فإن الاعتراف بذلك أقل بكثير من أن يعترف المرء بأنه يعاني من صعوبة في الهضم. «صعوبة *الهضم*» هذا بالضبط هو التعبير الصحيح لما أعاني منه. أنفعل مع كل حادث عنف يقع في المحيط القريب وينتابني شعور بالاشمئزاز والانجذاب في آن واحد. وأُضطر للنظر، حتى وإن كان ذلك يسبب لي مغصاً في المعدة. أتسمّر أمام الحدث المريب، وكأن أحداً ما ثبتني هناك بالمسامير، فأحدق النظر وأفكر في الماضي.

الماضي الذي بدأ كنظرة طفولية في شارع فارغ، وانتهى ككرة من النار قُذِفَ معها إنسان في مسار قوسي مرتفع، أو ربما اثنين أو ثلاثة أو حتى نصف دستة. وأحياناً صُنِعت أحلامي من هذه الذكريات: أمطار بشرية مشتعلة، كحريق في يوم حار من أيام أيار. لانجن فيلد 1958[1]. أمريكي صغير في ريف ألمانيا الغربية. أمي حدثتني فيما بعد، بأن ذلك كان يوم اثنين. في الواقع كنا نريد أن نبقى حتى يوم الأحد في لانجن فيلد. غير أن جدي وجدتي لم يريا أمي منذ زمن. أما أنا فلم يكونا قد تعرفا عليَّ من قبل، وكذلك بوب، زوج أمي. لقد كانا معجبين بعائلتنا الصغيرة، لدرجة أنهما لم يريدا مفارقة ابنتهما، على خلاف ما كان الأمر عليه قبل أربعة أعوام. في عام 1954 عندما هربت أمي لتبحث في الولايات المتحدة، كما زعمت عن الرجل الذي حملت منه، قد يكون من الممكن أنها لم تكن لتتابع هذا المشروع بمثل هذه الجدية، لولا حرص عائلتها على التخلص من هذا الحمل. فهم بالدرجة الأولى كانوا يخشون أن أكون

(1) لانجن فيلد: مدينة ألمانية في مقاطعة نورد راين فستفاليا تقع على نهر الراين.

طفلاً ذا بشرة حنطية. على الرغم من هذا، فلا بد أن يُسجل لأمي، أنها هي في الأساس سبب قدومي إلى هذا العالم. غير أنها لم تعثر على والدي، فتزوجت من رجل لطيف من تكساس، كان يعيش في بروكلين. اسمه روبرت ساوندرز الذي أعطاها اسمه في أول الأمر، ثم حملت أنا اسمه بعد أن منحني إياه، وسافرنا بعد ذلك إلى ألمانيا. كان بوب يرغب في رؤية وطن أمي الأصلي، غير أنها لم تتحدث أبداً عن وطن. فقد كانت تشعر بالكراهية نحو ألمانيا، الأمر الذي اتضح لي فيما بعد.

الجدَّان حاولا أن يقنعا والديَّ بالبقاء، فالأوضاع في ألمانيا بدأت في التحسن، وكانا يريدان كما ذكر لي بوب فيما بعد، إخلاء الطابق الثاني من البيت من محتوياته، لكي نسكن فيه. روزي، التي لم تسمح لأحد أن يناديها بلفظ *أم*، *ماما* أو حتى ما كما ينادي الأمريكيون أمهاتهم، كانت ولأسابيع تلت، تصاب بقشعريرة عندما تُفكر بهذا الاقتراح. فبعد زواجها بـ «بوب» أصبحت مواطنة أمريكية الجنسية، وحسب ما تقوله هي شخصياً، فإنها كانت تشعر بالمواطنة دائماً. كانت نحيلة ضعيفة، وكان أبوها يصفها بالعنزة الأمريكية. كانت تربط شعرها إلى الأعلى بالدبابيس، وتحلم بلهفة بآلة قص الحشيش ذات المحرك، والمقلب الكهربائي، والمكنسة الكهربائية ومجفف الغسيل. كما كانت تعد كميات السعرات الحرارية التي تتناولها. شفتاها دائماً تتوهجان بلون أحمر مثل أظافر يديها وقدميها. كانت تتكلم الألمانية بلكنة أمريكية، وتجد أن ذلك شيء رائع *lovely* ورائع جداً *gorgeous*، وكانت تحس بالقرف من الدهون التي تقدم في ألمانيا على موائد الطعام. بعد كل وجبة طعام كانت جدتي تجهش بالبكاء، ولأيام عديدة، ونجحت من خلال ذلك، في أن تجعلنا نمدد إقامتنا ليوم آخر. كنت أشعر بالملل

والانزعاج من تكرار هذا السيناريو، ولأنني كنت أشعر بضيق روزي، التي كانت تريد أن تسافر.

هكذا حصل الحادث. فقد وقفت في الشارع حاملاً لعبة القماش على ذراعي، دون أن أعلم، ما الذي كنت أريده في تلك البقعة من العالم. لقد كان من الصعب على طفل في مثل سني أن يتذكر هذا الحدث، حيث لم أكن قد أكملت الرابعة من عمري، وعلى الرغم من ذلك فإنني أتذكره، فما جرى كان مثل صاعقة ضربتني لثوان وجعلتني أرى شيئاً لا يمكن لطفل أن يفهمه على الإطلاق.

مر أمامي عدد قليل من السيارات، كانت غالبيتها تسير في نفس الاتجاه، باستثناء واحدة جاءت من الاتجاه الآخر، فجأة سارت بشكل متعرج وانحرفت عن مسارها، ثم اصطدمت بسيارة كانت تسير في الاتجاه المعاكس. حينها السماء تلونت بالأحمر، وتطاير الناس في الهواء. هذا ما علق بذاكرتي على الأقل.

أنا الآن مقتنع بأن الحادث وقع بصورة مخالفة تماماً، قد تكون الصورة الساطعة ملونة بفتنة عاجزة وبارتياع مفزع. فالوقت الذي تلا ذلك بقي عالقاً في ذاكرتي بصورة أكثر دقة. حتى أنني لم أتمكن من الاحتفاظ بشيء في داخلي لأيام كثيرة. كنت أتقيأ بشكل مستمر، وكأنني كنت أعتصر ذلك المنظر المأساوي. وربما انعكس في هذا الحادث المروع، الاضطراب الذي شعرت به منذ مغادرتنا لنيويورك. فالرحلة بحد ذاتها، التي كانت أول رحلة لي على الإطلاق، جعلت إحساسي بالأشياء مضطرباً. كل الأشياء الثانوية، إذا لم تتكرر يومياً، كانت تتحول إلى حدث مَهيب، يحرك حدود عالمي الصغير. وأخيراً فإن هذا الحادث حرك عالمي من مرساه، ومجريات الحدث كانت إضافة لذلك في غاية

الجمال. جميع الناس المشاركين فيه ماتوا.

جدتي ظلت تقرأ «لروزي» نتائج التحقيقات على الهاتف، حتى بعد أن عدنا منذ فترة طويلة إلى حياتنا اليومية المعتادة في شارع هومبولد[1]. وفيما يتعلق بالأسباب والخلفيات الغريبة فقد وجدوا لها تخمينات عديدة، حيث قِيل إن مِقْوَد سيارة الفولكس فاجن الجديدة كان معطوباً. لقد صُنِّفت الوقائع على أنها ظروف غامضة. هذه طبيعة الألمان، كما قالت روزي، التي بقيت تتحدث عن ذلك لأسابيع طويلة فيما بعد، وكأنها أرادت أن تجعل هذا الحادث المُرَوِّع، سبباً وجيهاً لتركها الوطن. لمرات عديدة أعادت تكرار محاولات إقناعي، أن مثل هذه الأشياء لا يمكن أن تحدث في الولايات المتحدة، على أية حال ليس لسبب تافه كهذا. لقد وجدت نفسها أمام آذان صاغية، فلقد كنت منذ زمن بعيد على يقين، بأن أمريكا هي حلم كل الناس، وفهمت ما كانت تعنيه روزي، عندما كانت تقول: إننا محظوظين، ألمانيا كانت مرعبة، خطيرة وقاتمة، من الممكن أن يموت المرء هناك.

والآن هذا الحدث، جريمة قتل في الجوار القريب، وفي بيت أعرفه وأعرف أحد ساكنيه. «دافيد برلنسامت». تخيلت أنني أراه مجدداً واقفاً أمامي ويسألني، إن كان بإمكانه مساعدتي....

«مارتيني! هل تحلم مجدداً؟ عليك أن تهتم بشؤون المزاد، هل انتهيت من أشيائك التافهة؟ يا سبحان الله! ماذا حصل لك؟ تبدو وكأنك كنت شاهداً على حادث قتل لأحد أفراد عائلتك».

«الأمر ليس بهذه الدرجة من السوء، لكن لدي إحساس غريب».

«هذا موجود عندك على الدوام، ربما بدأتَ مهنتك، لكي تتمكن

(1) الكسندر فون هومبولد 1769—1859: عالم وباحث طبيعي ألماني، دبلوماسي ورحالة.

من أن تجد عذراً لمتابعة مثل هذه الأحاسيس الغريبة».

حاولت أن ابتسم. غير أنني لم أنجح في ذلك. «هناك أمر غير صحيح، شيء فاسد».

«هذا شيء طبيعي جداً، عندما تحدث جريمة قتل في مكان ما».

«أنا لا أقصد هذا. أنا أعني البيت، العنوان، لقد تعرفت هناك منذ فترة وجيزة على شخص، بمحض الصدفة».

«ككل شيءٍ في الحياة، أليس كذلك؟».

«لقد كنت مراراً هناك، لأنني كنت معجباً جداً بالفِناء الداخلي. عندما كنت هناك آخر مرة، سمح لي شخص بالدخول إلى البيت وحكى لي قصة مثيرة حول هرب عائلة يهودية. لا زلت للآن أفكر، ما إذا كانت القصة التي حدثني إياها، هي قصة عائلته نفسها، إن اسمه برلنسامت، رجل وسيم، غريب الطباع نوعاً ما».

«أرجوك لا، لا تتحدث مجدداً عن *القتل والإبادة*. مارتين، أنت تبدو، وكأنها قصة عائلتك وليس قصة هذا الشيء الذي يدعى برلندنج».

«برلنسامت».

«ليكن ما يكون. لماذا لديكم أنتم الأمريكيون خيال رومانسي عن العائلات؟».

«ما الذي تعرفينه أنت عن عائلتي؟» قلت بامتعاض.

تبسمت. «كل شيء يا مارتين ساوندرز. أعرف كل شيء عنك وعن أقاربك. فَسِرُّ أسلافك يقطر كاللعاب من بين شفتيك».

كانت منى ترتدي في هذا اليوم الصيفي فستاناً أبيضَ ملوناً بورود وردية اللون، شعرها الأحمر الكثيف بدا وكأنه غابة صغيرة تقف على رأسها، عيناها الخضراوان كالبحر والملفوفتان بقزحية عسلية، كانتا

تلمعان كالبرق. يقال إن أصلها من منطقة نهر الرور في ألمانيا، وإنها من عائلة فقيرة، ووالدها كان عاملاً في أحد المناجم. على أي حال، كل ذلك كان ثرثرة شركات. أيضاً أنا لم أكن أعرف شيئاً دقيقاً عن منى، الطرافة وسرعة البداهة اللتان تتميز بهما، حمتاها أيضاً من الدخول في اللعبة التي كانت تُجرى مع كل المبتدئين في الشركة، التي يسميها الموظفون شركة نوبل للمزاد العلني في مدينة نيويورك. هذه اللعبة تختبر «منشأ» المرء، أيضاً أنا كان علي أن أدخل في هذه اللعبة، وقد عدت بعدها إلى البيت مع آلام دامية في الرسغين، كانت آلاماً شديدة بعد هذا الامتحان، وكأن أحداً كَبّلني بالقيود. وبالطبع فقد فشلت في ذلك الامتحان، فلم أكن قد درست في مدرسة إنجليزية، ولم أكن أيضاً في مدرسة للنخبة في سويسرا، كما أنه لم يكن عندي عمٌ من النبلاء أُعدم في عام 1944، كما لم يكن باستطاعتي أيضاً أن أتباهى بأشخاصٍ ذوي شهرة. عِوضاً عن ذلك فإن هناك ثغرة في سيرتي الذاتية، فجيناتي كانت متعرجة، والمظهر الكاذب الذي نشأت خلفه، كان ساحراً كاستقامة مباني بروكلين، لقد كان بإمكان المرء أن يُثيرني. أما منى فلا، منى التي كان مظهرها يشبه مادونا كنسية، كانت تحرّف المداعبات الرديئة، وكانت تلعب معهم، كما كانت تلعب بكل شيء، وكأنها تريد أن ترتقي إلى المراتب العليا. لقد عمّدت لعبة *العائلة والفساد*، والذين اكتشفوا السخرية شعروا بالإهانة وأغلقوا أفواههم.

«ليس هناك أسرار، فأسلافي لا يعنونني».

«لا تقل هذا، ألم يرحلوا جميعاً إلى أمريكا، لا بل هاجروا إليها؟ يتحدث المرء عن هجرة، إذا كانت الأسباب درامية، أليس كذلك؟».

«لا أعرف ما هو الغريب في الأمر، على المرء ألا يسخر من ذلك،

فليس في عائلتنا ضحايا»، رددت مزمجراً. «وأيضاً لا يوجد مجرمون».

«لكن، ربما أقارب مختارون؟ فالرواية الحقيقية عن العائلة تعالج موضوع الأقارب المختارين. وعليه فإن النازيين يصبحون يهوداً، واليهود نازيين والأحفاد مجرمين والمجرمون ضحايا. أما الناس العاديون فيتحولون إلى أرستقراطيين إنه التأثير المتبادل، ألم تسمع بذلك؟».

ابتسمتْ شامتة، أما أنا فقد غضبتُ، دون أن أعرف لماذا. فمنى كانت قادرة على القفز بين ما هو أخلاقي وما هو ساخر، وفي بعض الأحيان كانت تتجاوز الحدود. إن طبيعة عملنا فرضت علينا بالطبع، أن نتابع عمليات النهب التي قام بها النازيون، وخطف الأعمال الفنية من قبل الروس. قمنا بذلك قبل أن ينشر الصحفيون، أمثال هكتور فليسيانو، نتائج أبحاثهم عن مصادرة اللوحات الفنية وبصوت عال في وسائل الإعلام، حيث جعلوا من موضوع مصادرة الأعمال الفنية الطفل المحبب للمحامين. كنا نصنف ما هو فن مسروق وما هو غنيمة، وكأن ذلك طعام إفطارنا. في البدء كانت السرايا البنية، اللون البني يرمز للنازية، المترجم ثم الحمراء. إن عمليات توثيق قوائم أسماء المشاركين كانت مثل مسرح لتجار الحرب والتجار الصغار. الفن يمنح صاحبه صفة النُبْل. اللعنة، لقد كانت حقبة تاريخية مظلمة، أجبرتني على تكرار السفر إلى باريس، وأيضاً إلى زيورخ وبودابست، إلى بطرسبرج وحتى إلى شنغهاي. أكثر من مرة توقفت عند زاوية أحد شوارع برلين، وفي الواقع وأنا في طريقي إلى متحف أو أرشيف، كان ينتابني شعور مفاجئ بالعجز. فما رأيته أمامي كان: سطح إحدى اللوحات، بدا وكأنه هو نفسه قبل عملية النهب. في النظرة الثانية ظهر تاريخها، ومن المالك الأول لها، وفي أيّ بيت كانت معلقة، ومِن حائط مَن انتُزِعَت.

وكأنه القدر، فلم يكن بمقدوري أن أنظر إلى هذه اللوحة الفنية، التي تعود إلى ما قبل عام 45، دون الشعور بالذنب، فالنازيون الملاعين نجحوا في أن يُفسدوا قدرتنا على الإحساس بالأشياء بشكل بليغ. إن مصير أصحاب هذه اللوحات كان حاضراً فيها بشكل مريع، فلم تعد من إنتاج من رسمها فقط. ولم تعد شاهداً على العصر الذي رسمت فيه، فتاريخها يمثل عمليات المصادرة والإساءة، والموت في غرف الغاز. لقد خطرت ببالي حادثة وقعت في مانهاتن. حيث كنت قد عملت في ذلك الوقت كباحث منشأ لبضعة أشهر في برلين، ورغبت في قضاء عيد الشكر مع والديّ. ولكي أتمكن من زيارة بعض المعارض، ولقاء بعض الأصدقاء القدامى، حضرت مبكراً لبضعة أيام إلى المدينة. وخلال حفل كوكتيل عند جفري كنولس، الذي كنت قد أجريت معه عدة امتحانات، وهو يعمل الآن مسؤولاً لقسم المجوهرات عند كريستي، تعرفت على سيدة تدعى مارجوكس فايل. كان جفري يعرفها منذ فترة طويلة، وكان يحدثني دائماً عن أشياء غريبة تتعلق بها. كان من الصعب تقدير عمرها، فشعرها أشقر مصبوغ، تخفي تجاعيدها بشكل محكم، وكانت ترتدي أثواباً مغلقة، تخفي بها مواضع الإثارة، وربما صبغت أيضاً ظاهر يديها بالكلور لتصبحا بيضاويتي اللون. على أية حال كانتا بدون بقع، وكانت تبدو أنيقة أما البقية فكانت سراً. جفري كان يعدها ثريّة، وبالفعل كان هناك عدد من المؤشرات التي تفسر هذا الاعتقاد. فقد كانت تسكن في بيت في شارع فيفث أفنيو، حيث كان المبنى بعرض منشفة ويفصله بنايتين عن فندق بيير، ويقال إن زوجها المتوفى كان في الخمسينات مديراً لأحد البنوك في بيونس آيرس، وبعد انتحاره رحلت إلى نيويورك، لقد كانت تتكلم الألمانية بطلاقة مع لكنة

برلينية خفيفة، وكثيراً ما كانت تذكر كلمات لم يعد أحد يستخدمها في ألمانيا، فما كانت تتحدث به حول برلين، والطريقة التي كانت تتحدث بها، كل ذلك يدل على أنها قد تجاوزت السبعين من العمر. في تلك الأمسية استمتعت بالحديث معها حول الفن الصيني. وبعد يومين من هذه الحفلة اتصلت بي هاتفياً، وطلبت مني أن أرافقها إلى حفلة أخرى. هذه المرة، وكما قالت، في حيٍّ أقل *فضولية*، قصدت *بالفضولية* بيت جفري الواقع في شارع أورشارد. في الثامنة والنصف كنت أقف أمام المدخل... كان للبيت جرسان فقط. واحد لزوار مارجاوكس والآخر للخدم، لقد كانت تسكن بالفعل وحدها بالبيت العائلي الوحيد المتبقي في شارع فيفث أفنيو. قرعت الجرس، فردت على الفور:

«لحظة من فضلك».

جعلتني انتظر كسائق في مدخل البيت. سوف تنزل مباشرة، هذا ما قالته، بعد دقيقتين كانت تقف على الشارع، ثم ذهبنا إلى بيير لتناول كأس من شراب المقبلات. قالت لي إنها عادة تلتزم بها مساءً بعد آخر، ولا تستطيع التخلي عنها.

«فقط لثوان. سينشغل بالهم إذا لم أفعل ذلك، فأنا أبلغهم دائماً بأوقات إجازاتي».

اعتقدت طيلة مجريات الحديث، والطريقة الجازمة التي تحدثت بها، أنني مَدْعوٌّ لكأس من الشراب. لكنني خدعت نفسي. فبعد أن شربنا الشراب، طلبت مني أن ادفع الحساب بسرعة، إننا على عجلة. توضيح الأمر هذا كان مشوهاً إلى حد ما، فقد تجاوز *حسابها الحد عند بيير*. لقد جاءها اتصال هاتفي للتو، بُلِّغَتْ من خلاله بأن البنك – وللأسف – لم يكتشف أو نسيَ مُجدداً دفع ما عليها من ديون شهرية، وتبع ذلك شكوى

مطولة عن النظام المصرفي في هذا الزمن بشكل عام وفي مانهاتن بشكل خاص، فالزبائن الخصوصيون يعامَلون باحترام مادام الأزواج على قيد الحياة. أما في هذه الأيام فيعامل المرء كما تعامل الحيوانات البرية. إن لها حساباً عند بيير، لأنها تضطر في أحيانٍ كثيرة لدعوة الناس إلى هنا، أو لأنها تأتي أحياناً وحدها. إنه لأمر مناف للعادات الحسنة، أن تدفع المرأة حسابها أمام الناس، وخفضت رأسها وكأنها تريد إثارة الانتباه، ثم قالت بلهجة مدرس، إن هذا لا يجوز على الإطلاق، إذا كانت المرأة برفقة رجل. بعد ذلك ذهبت مختفية في مرحاض النساء، وعندما عادت، كانت قد بدلت حذاءها. فبدل الحذاء ذي الكعب العالي، لبست الآن خفاً غريباً، بدا وكأنها استعارته من خادمة البيت.

«لا نريد أن نأخذ سيارة أجرة فالمسافة قصيرة، ثم إن القليل من الهواء النقي مفيد لنا».

عندما وصلنا إلى شارع بارك أفنيو، اختفت في مدخل المبنى رقم 74، وعادت بعد وقت قصير وهي ترتدي حذاء الكعب العالي مجدداً، أما كيس البلاستيك وبداخله الخفين فقد أودعته عند البواب، الذي قام بالتبليغ عن وصولنا في شقة لوكفيست. في الطابق السادس عشر فتح لنا باب الشقة شاب في مقتبل العمر يرتدي بزة رسمية. أما مارجاوكس فقد حضَّرت نفسها للظهور، وبدت وكأنها تلعب دورها الطبيعي.

«أريدك أن تعلم، بأنني لا أعرف المُضيف، لقد طلبت مني صديقتي ليلى، أن آتي إلى هنا، فهي ترتبط بعلاقة صداقة حميمة مع السيدة لوكفيست. ثم قالت إن عليَّ أن أشاهد هذه الشقة الفريدة التي تم ترميمها وتجديدها حديثاً، وإن عائلة لوكفيست تمتلك مجموعة غير عادية من الأعمال الفنية.

ثم همست في أذني وهي تتناول كأس شمبانيا من الصينية: «وليلى تعرف، مدى ولعي بالفن، وهو كما تقول، أحد أهم النقاط الحساسة بالنسبة لي.».

مارجاوكس بحثت في الديوان، عن شيء جدير لتتفحصه بتمعن. ثم رأت ليلى في المكتبة المحاذية، وانهالت عليها بسيل من الكلمات الألمانية والإنجليزية والفرنسية. للحظة قصيرة سألت نفسي، كيف كانت روزي ستعلق على هذا المشهد. بدت وكأنها أمريكية نوعية في المحاولة الجادة لإثبات ذوقها الأوروبي: أثاث فرنسي، ستائر من قماش بروكاة من براتر، زهريات بورسلان مايسن[1]، فضة من إنجلترا، وفن ذو قيمة عالية يعود عمره لعدة قرون في عدد قليل من الغرف.

لم أكد أبدأ جولتي لمشاهدة هذه المجموعة الفنية، حتى كانت مارجاوكس قد اختفت عن نظري، وبَدأتُ التنقل في الغرف المكتظة محنياً رأسي تحية للضيوف، الأمر الذي اعتدت عليه في حفلات الاستقبال لشركة نوبل في مدينة نيويورك. الأشياء الموضوعة على الأرض والمعلقة على الجدران جعلتني أشعر بسهولة، وكأنني في الشركة. لقد كانت قيمة هذه التحف تقدر بالملايين والغرف كانت تزدان بما بها من تحف فنية، ففي غرفة الطعام، التي يزيد طولها عن ثلاثين متراً، علقت مقابل صورة على عرض الحائط لأندرياس جورسكي[2]، لوحة فنية صغيرة واقعية، الصورة للرسام جرهارد ريختر[3]. وباستثناء تمثال للفنان جياكوميتي[4] وطاولة زجاجية طويلة، لربما يجلس حولها أربعون شخصاً، لم يكن

(1) مايسن: مدينة ألمانية بالقرب من درزدن تشتهر بصناعة البورسلان.
(2) أندرياس جورسكي: مصور ألماني ولد عام 1955 في مدينة لايبزج.
(3) جرهارد ريختر: رسام ألماني ولد بدرزدن في عام 1932 وعمل في مدينة كولونيا.
(4) ألبرتو جياكوميتي 1901–1966: رسام ونحات سويسري.

في هذه الغرفة شيء آخر. وبدلاً من الثريات، كانت الأضواء مخفية في السقف، كما أعدوا هنا طاولة طعام فاخرة.

كنت قد رأيت في المكتبة عملين لـ«دراين» «*Derain*»[1]، واحد لـ«فلامينك» «*Vlaminck*»[2]، اثنان لـ «بونارد» «*Bonnard*»[3] وواحد لـ«لفويلارد» «*Vuillard*»[4]. وعندما دخلت هذه الغرفة لم أصدق ما رأته عيناي، كانت مارجوكس واقفة إلى الطاولة وكانت تغرف القنب الهندي وتضعه في كيس بلاستيكي كانت قد أحضرته معها. حدَّقتُ النظر بها لوهلة، إلى أن لاحظتني ونظرت إليّ، لم تضطرب أبداً، غطت بعض الطبقات بالمحارم الورقية واستمرت في تعبئة الكيس إلى أن شعرت بأن ذلك يكفي، ثم تحركت باتجاهي.

«إنها لخادمتي، سوف تغمرها السعادة عندما أحضر لها معي شيئاً من هذا. إنها تعتبر ما يأكله الآخرون أمراً مثيراً، وإذا كان جيداً تقوم بتحضيره لاحقاً بنفسها. سلِّ نفسك لحين عودتي في الحال».

لثوانٍ دارت في رأسي فكرة أن مارجوكس هي نفسها خادمة البيت رقم 815 في شارع فيفث افنيو، وأن صاحبة البيت مسافرة. إن هناك مخلوقات عجيبة في نيويورك، وعلى برلين أن تشمر عن سواعدها، لكي تصل إلى هذا النوع من العناد وهذا الخيال الذي يؤدي إلى الدوران. ثم عُدْتُ مجدداً إلى المكتبة، وتجولت بين الضيوف جيئة وذهاباً، وكدت أن أغفو أثناء تفقدي وحيداً للأشياء، وفي حالة نصف وعي نَطَقتُ اسم المضيف وكأنه ذاب على لساني. بحق السماء: لم أسمع بجامعي الفن

(1) أندريه دراين 1880—1954: فنان فرنسي.

(2) موريس دي فلامينك 1876—1958: رسام وكاتب فرنسي.

(3) بيير بونارد 1867—1947: رسام فرنسي.

(4) إدوارد فويلارد 1868—1940: رسام فرنسي.

هؤلاء على الإطلاق، مِنَ المؤكد أنهم يُسَخِّرون أناساً آخرين كألاعيب ليشتروا لهم ما يريدون. وبينما أنا كذلك أيقظتني صرخة من شرودي، لقد كانت صرخة مُدويَّة ومثيرة للرعب، غير أنها همدت بسرعة. بعض الضيوف قفزوا إلى مكان معينٍ في الغرفة، عندما انطلقت الصرخة، ثم عرفتُ أنها لـ «مارجواكس». رفعها أحدهم واضعاً ملح التنشق أمام أنفها ومددها على الأريكة. وأمسك أحد السادة بمجلة ذات ورق جيد اللمعان وبدأ يلوح بها في الهواء. ورفعت سيدة بعمامة من الحرير رأس مارجوكس، وفتحت سحاب فستانها وشمرت أكمامه إلى الأعلى. وما إن كادت مارجوكس تعود إلى وعيها، حتى أعادت، وفي حركة عفوية، إنزال أكمام فستانها إلى الأسفل، وبدون أن تنتبه لسحاب فستانها مفتوحاً على ظهرها، قفزت وتوجهت إلى لوحة فويلارد التي كانت مُسَوَّرة بإطار مُذَهب ومعلقة فوق إحدى الخزانات، وقالت وكأنها لم تنبس بكلمة، إن هذه اللوحة كانت ملكاً لأمها. وأخذت ترتعش، ثم أضافت:

«كانت معلقة في غرفتها في شارع ميلينوفسكي رقم 18 في تسلندورف [1]. والذي كان قد اشتراها من برنهايم—جون *Bernheim-Jeune* [2] في باريس».

عمّ الصمت في الصالة، وبدا وكأن الحفل قد انتهى، غير أن أحداً لم يجرؤ على فضّه. لقد سمعت من قبل بمثل هذه الأحداث، وتبعاً لما يُقال، فإن حدوث مثل هذه الوقائع ليس بالقليل، وخاصة منذ بدأت في التسعينات عمليات التفتيش المُنظم للبحث عن الأعمال الفنية

(1) تسلندورف: من أحياء برلين.

(2) برنهايم– جون: يرتبط هذا الاسم بأقدم وأشهر معارض الفن المعاصر في باريس.

المسروقة. فالعديد من النشرات صدرت حول أعمال فنية اختفت، ويُطالب بها دون تحديد، أصحابها الشرعيون، وقد استفز هذا الوضع العديد من الورثة والأحفاد، غير أنني لم أشاهد قط، مثل هذا الحادث. أنا أيضاً بدأت ارتجف، وعَرِقَت يداي، وتابعت بانتباه شديد، من الذي سيبدأ بفعل شيء ما. كان علي أن أخجل لاحقاً من نفسي، حول ما دار في رأسي في الثواني القليلة التي تلت ذلك. كان الحساب المفترض «لمارجاواكس» لدى بيير أمام ناظري. تخيلت تبديل الحذاء، والقنب الهندي الذي عبأته في كيس البلاستيك، وسألت نفسي: هل الذي جرى الآن مشهد مسرحي أمام جمهور حاشد؟ مارجاوكس اقتربت كثيراً من اللوحة إلى حد أنها كادت تلامسها، وبدت كطفلة صغيرة وقفت أمامها، ثم حدَّقت بالمرأة العارية الساكنة على السرير غير المرتب، التي كانت تدفن رأسها بين ذراعيها. ثم رأيت، كيف ذرفت مارجاوكس الدموع، وكيف زالت الصبغة السوداء عن الرمشين المزيفين تاركة خطوطاً سوداء على الخدين العظميين اللذين كانا بلون الزهر بفعل الماكياج.

«إنها لوحة أمي»، همست بصوت خافت.

اقتربتُ منها. قائلاً: «هل أنت متأكدة يا مارجاواكس، بأن هذه الصورة كانت ملكاً لأُمك؟».

«أبي كان يملك مجموعة فنية رائعة جداً، في ذلك الوقت في برلين، وهذه اللوحة كانت المحببة لأمي. لوحتي المحببة كانت *السيدة في الثوب الأبيض* «لبيرث موريسوت»[1]، وكانت معلقة في غرفة الإفطار. كانت نظرتها حالمة، مستعدة للخروج، غير أنها حالمة، وكأنها لم تكن

---

(1) بيرث موريسوت 1841–1895: رسامة فرنسية.

تدري، إلى أين ينبغي لها أن تذهب، لقد كنت أحب تلك اللوحة كثيراً، وبكيت، عندما أخذوها معهم».

ثم بدت وكأنها تغرق في عالم آخر. هل صحيح ما قالته؟ *المرأة في الثوب الأبيض* «لبيرث موريسوت» كانت في عداد المفقودات، وآخر أثر لها كان في ملفات تاجر الأعمال الفنية بيرنهايم–جوين، وأيضاً اللوحة التي كنا نقف أمامها كانت من ضمن أملاك بيرنهايم–جوين. ولم أسمع قط أن هاتين اللوحتين قد ظهرتا في مكان ما، كما لم أسمع أيضاً، بأن بيرنهايم–جوين قد باعهما إلى ألماني في برلين.

كان علي أن أطرح عليها هذا السؤال: «هل لديك ما يثبت ذلك يا مارجاواكس؟».

فأجابت: «لدي صورة وأنا طفلة. كنت أجلس على كرسي أمام طاولة أمي، والصورة كانت معلقة فوقه».

«من الممكن أن يكون المنظر في بيت آخر».

«لماذا تقول هذا؟».

«لأن محامي الطرف الآخر سيطرح عليك نفس السؤال».

نظر الجميع إلينا بدهشة مُنصتين لما تهامسنا به باللغة الألمانية، وباعتقادي، دون أن يفهموا منه ولو جزءاً يسيراً. ومع ذلك، فإن الجميع كان يدرك، بأن الحديث دار حول اللوحة. ارتفع صوت، ما الذي تريده هذه المرأة. قال ذلك رجل يقارب الخمسين من العمر، ربما هو صاحب البيت. ثم تقدم بثبات، ونظر لي نظرة تحدٍ، ووجه كلامه مباشرة إلى مارجاواكس: «من أنتِ؟ أنا لا أعرفك. ما الذي حدث، حتى يدخل بيتي أناس لا أعرفهم؟».

نظر فيما حوله، وكأنه يبحث عن أحد يستطيع أن يفسر له الأمر،

فلم يتكلم أحد. فتقدمتُ منه وقدمتُ له مارجاواكس فايل ثم عرفته بي، وقلت إن مارجواكس جاءت برفقة صديقتها ليلى إلى هنا، وبحثت عنها بين الحشد، غير أن ليلى كانت قد اختفت. فقلت للرجل: «دعنا نقف جانباً، لدي سؤال، وبعد ذلك سأصطحب السيدة فايل إلى البيت، بينما يستمر حفل الاستقبال».

في نهاية أحد الممرات، ربما كان يؤدي إلى حجرات خاصة، سألت السيد لوكفيست بأدب: من أين اشترى هذه اللوحة. قَطَّبَ حاجبيه وقال بأنه اشتراها من بيت للمزاد العلني في نيويورك قبل بضع سنوات.

«إنها منذ سنوات في عداد المفقودات».

«ما الذي تريده؟ هل تتجسس؟ هل أنت عضو في تلك المافيا، التي تصطاد الفن، من أولئك الذين يريدون أن يغشوا الناس الشرفاء ويسرقوا منهم أموالهم، لكي يشتروا لأنفسهم بيتاً على الساحل الأزرق *Cote d'Azur* ؟ انصرف! إذا لم تخرج على الفور، وتأخذ معك هذه المنافقة، فسوف أساعدك على ذلك».

في اليوم التالي، كان عيد الشكر، التقينا في صالة الاستقبال في فندق الفصول الأربعة. كانت مارجاوكس قد عادت إلى طبيعتها السابقة حين تعرفت عليها. كانت تجلس في أريكة منخفضة، وكأنها تستقبل الضيوف، أنيقة، ترتدي بنطالاً مخملياً أسود، قديماً إلى حد ما، وكانت الكنزة السوداء ذات الياقة العالية، تغطي عنقها، وأكمامها تصل إلى ما تحت الرسغين، كما كان الماكياج في غاية الكمال، وبدا شعرها وكأنه قد صُبِغَ حديثاً. وليس هناك من أثر للحزن، ولا للضياع. أرتني صورة

البنت ذات الشعر الداكن الواقفة أمام مكتب بيدر ماير[1] *Biedermeier*. وقد عُلِّقت فوقه صورة المرأة العارية لـ «فويلارد». وكُتب خلف الصورة: «*مارجي، 10 سنوات، في شارع ميلونوفسكي أمام طاولة مكتبي، برلين 1928*». لم تُفصح بأي شيء آخر أكثر من ذلك، السؤال الوحيد الذي تجرأت على طرحه كان إذا ما كانت ستتقدم بشكوى قضائية لاسترجاع اللوحة.

«ما الذي تقوله؟ آرثر، زوجي، اشترى لي لوحات أخرى، وليس لي أطفال. ما يهمني هو الحاضر، وأن أستمتع بحياتي في هذه المدينة الرائعة، فذاك أفضل لي من أن أُهلك وأُنغص روحي بمرافعات قضائية. سأسافر الأسبوع القادم إلى برلين للقاء بعض الأصدقاء القدامى. الذين لم أرَهم منذ عشر سنوات».

أعادت وضع الصورة في حقيبتها ووقفت مَودِّعة بعد أن حصلت على دعوة لعيد الشكر، وكان عليها أن تبدل ملابسها. أما دفع حساب الشاي الذي شربته، فقد تركته لي. ولم أتوصل أبداً إلى معرفة، ما إذا كانت مارجاواكس هي الخادمة أو سيدة البيت رقم 815 في فيفث أفنيو.

بعد هذه الحادثة دخلت في صراع مع حيرتي، فعندما تعرض علينا صورة معينة للشراء، في كثير من الأحيان، تمر بخيالي مشاهد، كالتي حصلت مع مارجاواكس فايل. فأولئك الذين اتفق على تسميتهم بالضحايا وأبناؤهم وأحفادهم هم دائماً الذين لعبوا دوراً في ذلك. أما الجلادون، أبناؤهم وأحفادهم، فقد بقوا في الخفاء.

---

(1) بيدر ماير: طراز فني اشتهر في النمسا وألمانيا في الحقبة الزمنية ما بين 1815–1860 عكس نفسه في اللوحات الفنية والزخرفة والأثاث المنزلي.

قاومت الأحلام المزعجة والليالي التي لم أعرف فيها النوم، فلم أكن محامياً أو شخصاً يريد إصلاح العالم، ولم أطمح لأن أصبح كذلك، لقدكنت مجرد مؤرخ في شؤون الفن، وأردت أن أبقى كذلك. أحببت الجمال في التاريخ، أكثر بكثير من التاريخ نفسه. أحببت عدم محدوديته الزمنية وتحديه للواقع. أما الفن، فربما عرفته بالحدس سابقاً، وكون أنني لم أكن قادراً شخصياً على صنع الفن، فقد أردت على الأقل أن أكون قريباً منه بشكل غير مباشر. إلى أي حد تم تلويث هذا الموضوع من قبل النازيين، اتضح لي ذلك، على ما أعتقد، بعد حادثة نيويورك. لم يسرقوا فقط اللوحات قبل أن يُرسِلوا أصحابها إلى غرف الغاز، بل عرضوا على العالم كيف يتم تحطيم الشخصية والرؤى الروحانية.

بعد نصف عام من الحادث الذي كنت شاهداً عليه انتقل فيليب آدم، خبير المجوهرات في شركتنا، إلى فرعنا بلندن، وعرض عليّ د. د. ميلز أن أتولى مسؤولية قسم المجوهرات في البلدان الناطقة بالألمانية.

قبلت العرض بكل سرور. كانت منى، التي تعمل حتى ذلك الحين لنصف يوم مساعدةً «لهنريت»، قد حصلت في تلك الأثناء على شهادة الدكتوراه، وعُيِنَت في قسم المنشأ. لم أشك لحظة، في كفاءتها للقيام بهذا العمل، حتى وإن غلب على عملها في بعض الأحيان عاطفة أنثوية مبالغ فيها. الأقارب المختارين– ما المقصود بذلك؟ هل هو تعبير جديد مثل *الألم العالمي، موت الغابات، أو مزاج البحر؟ نبل الشعور بألم الآخرين– ربما روح العصر* الألمانية الجديدة؟

«هراء»، أجبتها.

«ماذا، لطفاً؟».

«ما تقولينه حول الأقارب الاختياريين، هراء».

«ليس كذلك، فالنزاعات العائلية لها عواقب وخيمة، ومن غير النادر أن تنشأ من شعور خفي بالذنب. في ألمانيا لم يعد الأمر بعد الحقبة النازية أمراً خاصاً، وإنما قضية تاريخية. الصمت يخيم على الجرائم التي اقترفت، من أجل تصفية الشوائب، فعندما يتحرك المرء ويضع نفسه بشكل وهمي في الطرف الآخر: هذا ما يعنيه مصطلح الأقارب الاختياريين».

«أين قرأتَ هذا الهراء؟» بدت لهجتها حازمة. «أنت لا تدري شيئاً عن الذي حصل في بلادنا».

فكرت لحظة من الوقت، فيما إذا كان هناك جدوى لكي أقص عليها حكاية مارجاوكس. لكن متى كانت هذه المرأة، التي تخفي ألمها، برهاناً لشيء ما؟ أغلقت فمي. وتابعت مني حديثها بنفس الأسلوب التعليمي. بدا اجتهادها مزعجاً، كجراب أزرق يرتديه أفراد جيش الخير[1].

«إنها فرصتنا ما داموا يغوصون في الوحل حتى الرقبة، إلى حد الاختناق. نادراً جداً ما يحدث هذا، ومع ذلك فمن الممكن أن يحصل. فإذا وصل أحد فجأة إلى مرحلة عدم الاحتمال، فإن من واجبنا، أن نوضح الأمر. ومن الممكن، ومن خلال مثل هذا الانهيار في عائلة ما، أن يهبط على طاولة شيء كهذا، كان من الممكن أن يبقى في عالم الغيب لعقود أو قرون، كهذه الصورة التي عرضت الآن علينا. يجب أن نعي هذا».

«من الذي سيتوقف عن التحمل؟ المسؤولون عن سرقة الأعمال الفنية ماتوا منذ زمن بعيد!».

«ليست السلالة، وفي نهاية الأمر، نحن لسنا في سويسرا. الحكومة

(1) جيش الخير: منظمة خيرية تعنى بشؤون الفقراء الذين لا مأوى لهم في الدول الغربية.

الاتحادية لا تحمي هؤلاء المجرمين».

«لماذا تنعتين السلالة بالمجرمين؟».

«لأن من واجبهم أن يعيدوا الفن المسروق إلى أصحابه الشرعيين».

«وإذا كانوا لا يعرفون من هم؟».

«إذاً فعليهم أن يبذلوا جهداً لمعرفتهم. أنت لا تفهم كل هذا على الإطلاق. في الحقبة النازية كنتم أنتم بعيدين جداً».

«ماذا تقصدين بـ «*أنتم*»؟».

«كم أنتم سُذّج. من المتوقع ألا تكونوا كأمريكيين غير ذلك».

«لم تعد كل البلى في زبديتك. اللعنة على هذه الأخلاق. إنه حماس مفرط، فأنا لم أكن قد ولدت بعد! وأنت أيضاً، إذا كانت نظرتي صحيحة، رغم انتمائك لهذا البلد وقربك الفيزيقي منه، فإن تخمينك يبدو مبالغاً فيه إلى حد ما».

«عندما تنتهي من أعمالك الصغيرة، ستكون جذاباً، لو كرّست جهدك وخبرتك العملية على كوربيت *Courbet* [1]، الذي لم تنته من فحصه بعد».

«أنا لست باحثاً في المنشأ».

«لكنك تحشر أنفك في أمور المنشأ. لذا يبدو وكأنك تشتم الأثر. أنت موهوب فعلاً. وعدا عن ذلك، فأنا عندي اليوم موعد خارجي..».

«... وأنا أيضاً».

أخذت حقيبتي وغادرت المكان.

«هذا ليس عدلاً»، هتفت منى من خلفي، وبعد أن أصبحت في

---

(1) جوستاف كوربيت 1819–1877: رسام فرنسي لطراز الفن الواقعي، يعد ممهداً لمذهب الطبيعة.

الشارع، لوّحت بيديها وهي تحاول أن تمسك بشعري من خلال شباك المدخل، كان بإمكانها أن تكون مثيرة لولا أسلوبها التدريسي. وللأسف كثيراً ما كانت كذلك.

حرارة الصيف الشديدة كتمت أنفاسي. ركبت دراجتي الهوائية، وحلمت بشمس مساء شتوي في جزيرة كوني [1]، حيث الشواطئ خالية من البشر، الأمواج متمردة، والمياه المُسْتَفزة تشع كالفسفور. أحسست بلسعات حبات الرمل تحت نعالي، وكأن الرطوبة حولتها إلى مساحة مغلقة، وكانت الأرضية خشنة كنسيج تتوسطه أصداف صلبة وردية اللون، بزوايا مكسرة بيضاء وسوداء. دائماً ما كانت المجوهرات القديمة أمنية من أمنياتي. لم أستطع تصديق هذه الحظوة، عندما عرض علي د. د. ميلز، بعد فترة قصيرة من عملي في قسم المنشأ، أن أتولى إدارة قسم المجوهرات، ومن أجل هذا العمل، قبلت بسرور الانتقال إلى برلين.

وبدون أي قصد وجدت نفسي أمام البوابة الحديدية أحدق بهذه الطبيعة الخلابة، التي وقع خلف جدرانها حدث تراجيدي.

---

(1) المقصود هو حي من أحياء مدينة نيويورك.

منظر تلك الأشياء يجعلني أشعر بالتعب. مساء أمس لم أنجز الكثير مما كنت أريد فعله، إذ لم يكن من الممكن إلقاء كل هذه الأكوام دفعة واحدة إلى الموقد، فكميات كبيرة من الكرتون والورق تخمد أي نار. فتحت جهاز التلفاز كما أفعل دائماً، عندما ينتابني شعور بالخوف من فقدان التواصل مع الواقع. فقصة برلنسامت سيطرت عليّ مثل شبح. أو خيال، وكأن شيئاً منها لم يحدث على الإطلاق.

فتحت باب الشرفة، فعصفت ريح المساء بالأوراق التي كنت قد وضعتها على الأرض، وتطايرت على الأرضية الخشبية، ووجدت نفسي وأنا أجمع هذه الأوراق منفردة، وأنظر إليها بدلاً من رميها في النار، وكأنني لم أستطيع قطع الصلة بشكل نهائي مع دافيد برلنسامت، دون أن ألقي على تلك الوثائق نظرة مرة أخرى. في البدء أمسكتها فقط بيدي، ثم بدأت بالقراءة. هذه رسائل دافيد إلى عمته في باريس– خليط من الشوق، الاعتراف والشتائم– التي تركتها لي لأسباب غير واضحة. وتلك أقصوصة من جريدة فرنسية يعود تاريخها لعام 1948. بها مقال يصف الحي المحيط ببوابة بيرسي في باريس. أمْر والد ألفرد برلنسامت التي تُعَدُّ وصية. في الواقع فإنها يجب أن تكون مُودعة في المحكمة، فعدم قيامي بإيصالها للمحكمة، يجعلني متهماً بإخفاء الأدلة الثبوتية.

أمسكت بنسخة من عقد زواج أوتو آبتس[1] وسوزان دي برويكير بيدي، إنه سفير هتلر في باريس وزوجته. ثم إعلان الجريدة الذي

---

(1) أوتو آبتس 1903–1958: شغل منصب سفير ألمانيا النازية أيام الحرب العالمية الثانية في باريس.

يشير إلى الحادث الذي جرى لهما. طريق عام في المنطقة الواقعة بين دسلدورف وكولونيا، قرب مدينة صغيرة. سيارة فولكس فاجن معطوبة المقود. لانجنفيلد في أيار/مايو 1958، هذا أول ما ألقيته في النار. صورة الحكم الصادر بحق أوتو آبتس بباريس في عام 1949، تطايرت مع نسمات الليل، وكأن رفصات حمار الوحش قد عصفت بها. لقد كانت موجودة في أرشيف وزارة الخارجية. فأردت أن أجري بعض التحريات عن الخلفية الغامضة، خاصة بعد أن بدأ دافيد برلنسامت يدلي بتلميحات غريبة حول عائلته. أخيراً وجدت أول ملاحظة صحفية حول جريمة القتل الغامضة في آب/أغسطس من العام الماضي، وأيضاً هذه الملاحظة قرأتها مرة أخرى، قبل أن ألقي بها إلى النار. تأججت ألسنة اللهب، وكأنها كانت تعرف ما تلتهمه. كان دافيد سيُعجب بهذا المشهد. إذا كان لا بد من الهلاك، فليكن زوالاً رائعاً. من المؤكد أنه كان سَيُشغِّل موسيقى، ربما «لفاجنر» *Wagner*، ولربما الثنائية الكبرى من تريستان[1]، وكان سيشرب الشمبانيا وهو يستمع لها. ولم يكن ليفعل أقل من ذلك. بالطبع لم يكن دافيد يرغب في الزوال، وكان سيكتفي بالمظهر. ورق الصحف الرقيق كان يتماوج وهو يحترق. مع ما تطاير من خلال الشبك من أوراق محترقة على البلاط، بدأت قصتنا: أم مقتولة، أب متهم، وابن مذهول، شاهد، تحظى رباطة جأشه بالإعجاب. لقد تابعت الأحداث بذهول.

بعد أولى الملاحظات الصحفية الحذرة، حول *حادث العنف الغامض، وراء تلك الكواليس الأسطورية*، بدأت الصحف تتسابق مع بعضها. عمليات المضاربة غير المنظمة كانت تتحول إلى ادعاءات

(1) قطعة موسيقى درامية لفاجنر.

تعسفية. فقط اسم العائلة التي حدثت فيها جريمة القتل، أصبح معروفاً الآن: برلنسامت، لقد اختفت أي آثار للقاتل. وأيضاً لم يعرف أي شيء عن دافع الجريمة. دافيد نفسه قام بإبلاغ الشرطة، بعد أن وجد أمه مقتولة رمياً بالرصاص ووالده مصاباً بجراح خطيرة. ألفرد برلنسامت نقل إلى مستشفى الشارتيه. في أثناء ذلك قامت الشرطة بتفتيش الشقة بحثاً عما يشير إلى سرقة جرت فيها، لكن شيئاً لم يُسرق، كما بدا أنه لا أعداء للعائلة. فالمجني عليها كانت محبوبة، وزوجها يتمتع باحترام موظفيه وتقديرهم. ولذا وقفت الشرطة الجنائية أمام لغز محير.

لم أعرف، ما إذا كان عليّ أن أمرّ على برلنسامت. هل أقرع الجرس ببساطة؟ وفي هذا الموقف؟ لاحقاً وفي إحدى الأمسيات– وقد كانت الموجة الأولى من تقارير الأخبار قد هدأت، وبدأ المرء ينتظر أن يستيقظ ألفرد برلنسامت من الغيبوبة – ذهبت إلى هناك. ادعى دافيد لاحقاً، بأنني وقفت أمام البوابة محدقاً في الداخل من خلال القضبان، وكأنني أردت أن أراقب الصراصير وهي تتحرك في شقوق الجدار. بلمحة بصر رشفت كل الواجهات، تابعت كل التغيرات التي حصلت في النباتات المتسلقة وتنصت على كل الأصوات. هكذا كانت طبيعة دافيد، أن يتصرف وكأنه خبير بقراءة الناس. كان يثير الانطباع، وكأنه ينحني بولاء للذي يتحدث إليه. كانت هذه الحركة تريد أن تقول: *بإمكانك أن تثق بي. أنا أعرفك أكثر من معرفتك لنفسك*.

لقد راقبني إذاً، لكنه في هذه المرة وخلافاً للأولى لم يقم بفعل أي شيء.

كان الباب مردوداً فقط. يبدو وكأن أحداً قد نسي بالخطأ أن يُحْكِمَ إغلاقه. دخلت وكان الفِناء الداخلي هادئاً وورومانسياً كما كان في

السابق. لم يكن هناك صحفيون. فلا الحدث ولا التحقيقات خلفت أي أثر. ولا زالت كثافة المزروعات هي التي تلفت النظر. لكن وفي هذه المرة لفتت انتباهي الأصوات التي تناهت من الزوايا الحالمة، وكأن أحداً وضع صوتاً غير مناسب للقطة في فيلم. من الممكن أن تكون الأصوات الناجمة عن حركة السير هي المسؤولة عن أن أحداً آخر لم يسمع أصوات طلقات الرصاص سوى دافيد.

غادرت المكان وأغلقت الباب من خلفي، وفي الطريق إلى البيت تملكني إحساس بأنني أخطأت فيما يتعلق بمخاوفي، فما الذي كان سيحدث لي، لو أعلنت تعاطفي معه وعزيته؟

في هذه الأثناء شعرت وسائل الإعلام بأنها مضطرة للمضاربة. فهناك من ادعى بأن موظفي التحقيق شعروا *نوعاً ما بالخوف من القضية*، ما أدى إلى شلل التحقيقات، وذهب البعض إلى التلميح، بأن الأغنياء يعاملون بشكل مختلف عن عامة الناس. وقيل فيما بعد، أن أخت ألفرد برلنسامت قد أتت من باريس، لكي تزور أخاها الذي يرقد في غيبوبة. وهي أيضاً لم تقدم أي شيء لتوضيح الأمر. لقد بدت، كما وصفها ذلك الصحفي، الذي سبق وأن وصف رباطة جأش أخيها، بأنها كانت رغم تأثرها، رابطة الجأش.

ثم أتت المفاجأة. فبعد أسبوعين من العملية الجراحية وأسبوع من استيقاظه من الغيبوبة اعترف ألفرد بالجريمة. وتدريجياً بدأت تتسرب معلومات حول آثار للبارود وجدت على أصابع دافيد. لقد تشاجر الأب والابن، وعندما حاول الأخير أن يمنع أبيه من قتل نفسه، انطلقت خلال ذلك رصاصتان واستقرتا في رئته. وبذلك يكون قد تم تفسير لغز موت ميريام برلنسامت. غير أن دافع الجريمة بقي مُبهماً. ألفرد

برلنسامت صمت بعناد، وأيضاً دافيد لازم الصمت. الخبراء من الشرطة الجنائية وعلم النفس تشاوروا في الأمر لفترة من الوقت ولم يتوصلوا إلى رأي موحد. وفي نهاية الأمر ربح المدعي العام، وحُكِمَ على ألفرد برلنسامت، الذي يستعد لقضاء فترة نقاهة طويلة، بالسجن مدى الحياة بسبب قتل زوجته. محكمة المحلفين تحدثت عن ذنب فادح، فكون المرأة كانت نائمة، فقد جعلها هذا عديمة القوة أمام هذه الجريمة الغادرة التي نفذها المجرم، وبهذا لم يكن أمامه أية فرصة، لأن يُطلق سراحه بعد قضاء خمس عشرة سنة في السجن، ووقف تنفيذ العقوبة للاختبار. لقد أمسكوا بالجاني، لكنهم لم يتوصلوا لمعرفة الخلفيات ولا كيف تمت الجريمة.

قرأت مقالاً صحفياً غاص في توقعات غريبة حول رجل أعمال قضي عليه، وامرأة معذبة وقريب مارس الابتزاز. وقد وصل الحد، لاتهام الزوجة القتيلة بالمشاركة في عملية الابتزاز وأن العائلة ضالعةٌ في شأن غامض. لربما كانت الجريمة قد جرت لإخفاء الأمر، وليست زلة انفعالية عابرة. ربما يكمن السبب في عمق الماضي. فهدّد محامي برلنسامت الأب برفع دعوى قضائية بسبب القذف، وتوقفت التكهنات على إثر ذلك.

بعد فترة قصيرة من جريمة القتل، لم أكن أعرف عن دافيد وعائلته سوى ما قرأته عنهما في الصحف. وفي تقرير صحفي متأخر، لم أقم بالاحتفاظ به، وذلك لأن محاولة التوصل إلى سبق صحفي كانت مثيرة للاشمئزاز، جرى الحديث عن أن الكيميائي ألفرد برلنسامت، الذي يملك شركة منذ الستينات ويعمل فيها اثنا عشر موظفاً، اخترع طريقة خاصة لتصنيع البوليستيرين، لم يتم تفسيرها بشكل أكثر وضوحاً، وتمكن

من خلالها أن يحقق نجاحاً مالياً هائلاً. لقد بدا وكأن الصحفي اهتم بالملايين، بدل أن يوجه الاهتمام للجريمة. التقارير الصحفية عرضت طبيعة الظروف الحياتية العامة لـ «برلنسامت»، سَمَّت خيول الموتى والعلاقات الاجتماعية للزوجين. لقد بدا الحادث مرعباً، كونه حصل في عائلة راقية، وقد اعتمدت الصحف الأخرى هذه التقارير ذات الصبغة السبقية وقامت بنشرها. بعد فترة من الوقت، وبعدما تسرب أنني أعرف برلنسامت، تحدث معي صاحب المعرض الفني الكائن في الطابق الأرضي في أثناء حفل شرف. وبطريقة دبلوماسية حاول أن يعرف مدى صلتي بـ «دافيد».

«لم أكن أعلم بأنك تعرف برلنسامت عن قرب».

إجابتي كانت واقعية، بأننا التقينا بطريق الصدفة، ودون أن أضطر لطرح أي سؤال، علمت أن عائلة آبتس كانت تسكن الشقة طيلة ما يقارب الثلاثين عاماً. صاحب المعرض علم بذلك من جارة مسنّة، بارونة من سلالة فلان. على أية حال فإن السيدة كانت قد جاوزت التسعين من العمر، عندما أبلغته بتغيير الاسم على الباب. أناس مختلفون لا معرفة لها بهم، سكنوا في الشقة، كان هذا بعد الحرب بفترة قصيرة. وقد كان هذا أمراً طبيعياً ويحدث في كل مكان. في البدء أناس دمرت الحرب منازلهم، ثم أقارب بدون وطن أو مهجرين، تم إسكانهم هنا. وأيضاً الأخت، التي كانت تقيم في باريس، سكنت هنا لفترة من الوقت. وأخيراً هدأت الأمور. وفي يوم من الأيام عُلِّق اسم برلنسامت على الباب. السيدة المسنَّة استغربت أمر تعليق لوحة أسماء جديدة، دون أن تلاحظ رحيل أحد من أو إلى الشقة. نعم، كان هناك حركة مجيء وذهاب، أناس يحملون حقائب، ولكن لم يحدث انتقال

حقيقي مع عمال ينقلون الأثاث، وقبل فترة قصيرة كان هناك سيارة نقل متوقفة أمام البيت، أشياء مغلفة نُقلت إلى داخل البيت وليس منه. لكن هذا حصل بعد جريمة القتل، وبعد أن نُقل العجوز المسكين بسيارة الإسعاف. صاحب المعرض كان يعرف عائلة برلنسامت بالوجه فقط، وتحديداً من خلال لقائه بهم في فناء البيت. لقد كانوا أناساً يتميزون باللطف، خجولين إلى حد ما، ربما يهود، لكنه لم يعرف هذا بالضبط. المرأة ذات شعر أسود، قصيرة القامة بملامح جنوبية، وكانت تركب الخيل صباح كل يوم، عدا يوم الاثنين. وقد تعودنا على المزاح، بأن يوم الاثنين هو يوم الأحد بالنسبة لأصحاب المعارض والحلاقين وللخيل أيضاً. خيولهم كانت في إسطبل بعيد في شارع الجيش باتجاه الشمال الغربي. إنه أمر جدير بالتقدير، أن تذهب امرأة ليست صغيرة السن كل يوم لتحريك خيولها.

« لقد كانا إجمالاً رياضيين، فقد كان هو يشارك في سباق الصيد في الخريف، كما كانت العادة في السابق عند الطبقات الراقية. وكانا يمارسان التجوال بشغف. ويبدوان زوجين منسجمين. وأيضاً من ناحية بنيتهما الجسدية كانا متلائمين جداً. كان نحيلاً وهي رشيقة إلى حد بعيد. كما تميزا بالصلابة، وبحب المغامرات، والنشاط والثقة بالنفس. لقد كانا يحبان بعضهما جداً. نعم، كان كل من يراهما يدرك أنهما عاشقان. إنها لمأساة. أعني موتها بالنسبة له».

تابعت الاستماع، برلنسامت كانا من الأثرياء، وأيضاً بالنسبة لصاحب المعرض كان هذا أمراً جديراً بالاهتمام. من أين أتوا، وكيف جمعوا ثروتهم؟ لم يعلم بذلك إلا من وسائل الإعلام. في السابق، كان الناس يعتقدون، أنهم قد ورثوا الثروة، وأنهم من سلالة عائلة قديمة،

كبقية سكان البيت. وقد استغرب الكثيرون، عندما علموا بأنهم من الأثرياء الجدد.لقد كان كافة السكان مرتاعين بسبب الجريمة. أما هو فقد شعر بالإحباط، فهذا الحادث، سيبقى غامضاً، سواء بحكم قضائي أو بدونه.

«لا يقتلع المرء قلبه بنفسه!».

والابن؟ شيء مبهم. لم يعمل في أي مجال. رجل جميل. دائم اللطف. يتمتع بطريقة رائعة في المعاملة.

«بالطبع هذا يثير الانتباه في برلين!».

دافيد برلنسامت كان يهتم جداً بالفن، ولكن معرفتي بذلك كانت أفضل. كانت زياراته لوالديه قليلة. أقام لفترة طويلة في الخارج، وقد تحدث الناس عن شائعة بأن لهم أملاكا في الريف. وذكرت الخادمة في إحدى المرات، بأنه كان يدير عزبة ريفية، وأحياناً كان يأتي حاملاً معه البيض وفي الصيف بعض الطماطم. دائماً كان وحده. وإطلاقاً لم يكن برفقته أي امرأة. لقد حاول أبوه أن يدخله معه للعمل في الشركة. وحتى هذه لم تكن سوى شائعات. ثم توقفنا عن الحديث عندما جاءت سيدة لم أكن على معرفة بها.

الرابع

جاء الخريف. ومازالت حرارة الجو مرتفعة. شقتي- وكما هو الحال في الكثير من شقق المباني القديمة في برلين- كانت بدون مُكيف هواء، لذا لم أكن استطيع النوم، ولم يكن الصباح الأول، الذي أذهب فيه إلى المكتب بعد ساعتين من شروق الشمس، وأبدأ فيه بقراءة الرسائل الإلكترونية التي كانت تأتي من أماكن مختلفة من شتى جهات الأرض. كان النهار ما يزال في أوله والبرودة منعشة، وأمام النوافذ كانت النباتات المتسلقة تنمو كالأدغال. غير قابلة للتجاوز. كان لا بد للمرء أن ينظر من النافذة، ليرى كيف تسطع الشمس. مصباح الطاولة الصغير على مكتبي من تصميم واجن فيلد *Wagenfeld* (1) كان مشتعلاً، هذا المصباح كان قد سحب من المزاد وصار في عداد النسيان. لقد أخذته، كما أفعل دائماً مع الأشياء التي لا يريدها أحد.

كانت في الغرفة رائحة غريبة. كانت كرائحة ورنيش الأرضية أو صمغ الورق. وكأنها أعجوبة كنت أشم بقية من عطر متسوكو، الذي تستخدمه مني. يبدو أنها أهملت عملها: كانت هناك إضافات ناقصة من أوراق يانصيب المنشأ للمزاد القادم. ليست هذه عادتها، ما الذي جرى لها؟ نصف تركيزي انصب على الشاشة، بينما كانت أفكاري تجول من جديد مع الجريمة. دافيد برلنسامت كان كائناً غريباً. تخيلت أننا نحن الاثنين نمشي في فناء البيت وكنت استمع للتفاصيل التي رواها عن البيت وساكنيه. فقلت في قرارة نفسي: أسطورة ألمانية. شيء مخيف، مرعب، مُبهم، ظروف جريمة القتل اندمجت بثنايا البيت الغامض.

---

(1) واجن فيلد 1900–1990: مصمم صناعي ألماني.

«لماذا»، سألت نفسي بصوت عالٍ، «قتلها؟».

في هذه اللحظة دخلت مني. ألقت نظرة كَمُدرسة. كان الوقت ما يزال مبكراً، قرابة الثامنة. لا بد أنها اعتقدت، أنها ستكون الأولى.

«العذراء بوجهها الثاني وفي صباح بريء، ما زال الوقت مبكراً، ورغم ذلك فالجو حار، ولم أستطع النوم. ماذا عنك؟».

«لماذا قتلها؟».

«إذاً لقد سمعت الصحيح. إن كلب الصيد يحمل ذيله في منخاره. دعيني أُخمن، أيتها الصبية، أنتِ أيضاً لم تستطيعي النوم، فتحليل العلاقات يسيطر عليك، تريدين أن تعرفي كل شيء بالضبط، ويحترق قلبك حنيناً لمعرفتها. ألا يؤنبك ضميرك على الأقل لأنك خذلتني بالأمس؟».

ألقت بأغراضها، حقيبة كتف بحجم حقيبة السفر، ثلاث صحف، وقبعة شمسية، ثم صعدت السلم لكي تسحب من الرف كتاباً عن الواقعية الفرنسية.

«هنا أيها الثوري: لم تقم بواجباتك المدرسية، لم تكتب للسيد فلان من جنيف بأن القيشاني لم يعجبنا، ولن نأخذه. لأن رائحته نتنه.وقل له أيضاً، إن عليه أن يرسل لنا أوراقا ذات قيمة، فورقة اليانصيب رقم 73 ناقصة. اللعنة، لماذا يتوجب علي أن أقوم بعملك؟».

نظرت إليّ من الأعلى، كان منظراً مثيراً، فبعض خصلات شعرها الأحمر تناثرت على نمش جبينها، وبدت وكأنها خطوط برونزية على حجر رملي. أين رأيت هذا من قبل؟ ربما كان ذلك تمثالاً أمام كنيسة ستراسبورج الكبيرة؟ لماذا لم أسألها أبداً، إذا كانت ترغب أن تكون معي– إنني لم أستطع أن أصل بأفكاري إلى النهاية. صرخت مني

مذعورة، وكأنها تريد أن تقول لي، إنها ليست بتمثال كنسي. كانت ما تزال تقف في تلك الورطة، مهددة بالغرق الوخيم، بينما كنت أحاول بعناء في تلك الأثناء أن أتذكر.

«لا تهتم، فقد خمنت ذلك، فلقد سبق وأن أنقذت حياتك. كما نقلنا زهرية، بورسلان سيفر، في نفس الوقت، إنها تتلاءم جيداً مع البرنامج. ولقد أضفت التغيير إلى الكتالوج الإلكتروني «Next.»!».

«آه، مارتيني، كم أحبك».

«الأفضل، لا».

«لقد أحضرت لك رزنامة برجك من *الإكس برلينر* ***Ex-Berliner***. *في وقت زيادة تدفق الهرمونات بدون سيطرة، أنتم ساحقون، وضحيتكم لا تعرف ما الذي يجري لها، إلا عندما ترى ملابسها الداخلية معلقة على المصباح في الصباح التالي*».

منى، بقيت تقف تنتظر على السلم، وبيدها لحم مُجَفَف، وانتظرت أنا أيضاً. تصورتها أمامي وكأنها تقف في حفرة مليئة بالفحم، يداها متشحتان بالسواد، شاحبة الوجه، طفلة، يجب على المرء أن يمسح لها أنفها، لكنه لا يفعل ذلك. إن الطفل الموشح بالسواد يبدو مثيراً، وكأنه منظف مداخن صغير ومُتسخ. لقد كانت منى جميلة، موهوبة، وذكية، حصلت على درجة الدكتوراه، وكانت تتكلم الروسية، لأن والدها كان شيوعياً عن قناعة، قبل أن يتوفى نتيجة السُحار الرملي. كانت فخورة بهذه الصورة النسوية لإزميل كانت تنعت نفسها به، واستخدمته لخلع البلاط الصيني من حمامها، قبل أن تكلف شركة لبناء حمام تركي فاخر إلى حد البذخ. بذلك، وبقسط كاف من المعتقد الخرافي تمكنت من التغلب على الحزن لوفاة والدها.

«الحزن لا يطيق الماء. إذا رأى الماء فإنه يتجنبك».

انطبع وجهها بلون الجرافيت، عندما نطقت تلك المعادلة السحرية. لا أعرف سبباً لكل كلام السحرة هذا في وضعها: دائرة النجوم، الرسومات، الأشكال، الرابطات تحت الأرضية، الأصوات فوق الأرضية، ربما كان هذا نوعاً من التوازن مع فكرها البراجماتي وهمتها العالية. لقد عايشتها في لندن وسط الخدم وموظفين بمستويات أدنى. كان ذلك يوم المزاد، الذي لم يكن لضعيفي القلب، صوتها الناعم حدد الاتجاه، ثم بدأت نفسها في العمل. حركات وقورة اختلطت بملاحظات هازئة مع المعرفة الدنيوية لهذا العالم. عندما رأيتها بهذه المناسبة، تملكتني فكرة خيالية لأرستقراطية مرتبطة بالأرض، ربما كائن من شرق بروسيا في حوالي عام 1900، ولو كان هناك امرأة نوعية، تتصف بالمرونة والصلابة، مقاومة للمطر وتعودت الاستحمام في مياه البحيرات الباردة، وترقص في صالات الرقص والحفلات الكبيرة، وتركب الخيل بثقة عالية دونما خجل أو خوف من الأوحال، فإنها ستكون في هذا اليوم منى. لقد كانت تعرف تماماً، ما الذي كانت تتحدث عنه. تعليماتها كانت دقيقة ولطيفة في آن، ولا مجال فيها لسوء الفهم، وكانت تسبح في اليقين، دون أن يبتل أحد ما مر بجانبها من جراء ذلك. لم أعرف، كيف يتحول تمثال كنسي أمام كنيسة ستراسبورج الكبيرة، إلى امرأة من طبقة النبلاء. من الممكن أن يكون هذا التحول ذا صلة بالروحانية والنجوم الجوالة. إن الرجال الذين إلى جانبهم امرأة من هذا النوع، لا بد أنهم محظوظون، هذا إذا ما وجد في هذا الزمن رجال يهتمون بالنساء. عينا منى الخضراوان كالبحر صارتا الآن تلمعان مثل الماء الصافي. بدت وكأنها ستسقط في أي لحظة من على رف

الكتب، وبيدها المجلد الثخين عن الواقعية الفرنسية. بالتأكيد كان هذا سيحدث، لو لم يفتح الباب، ووقفت في إطاره هنريت فون سكفتس: في هذا اليوم مثل فاكهة صيفية على بوظة طازجة، وغير متأثرة بالحرارة العالية التي تشوي بقية هذا العالم، لقد حال وصولها من أن أمد يدي إلى منى.

«لماذا أنتم هنا في هذا الوقت؟».

لم يرَ أحد، أن هنريت قد ولدت بشفة أرنب أشرم الشفة العليا، لقد كانت من ذلك النوع من البشر، الذي لا يشك في شيء، وكانت ببساطة هنا، مكللة بالكسل والملل، ودائماً إلى حد هائل، كان يقال، بأنها ترتبط بصلة قرابة لكل من له اسم قديم وسلطة جديدة. أي تشوه لن يكون له حظ في مواجهة عائلة من هذا النوع. على كل حال كان قد تم تعديل الشرم في الشفة العليا بشكل تام، ولم يعد هناك سوى بعض الغرز، غرز إبر بالتحديد، تمشي بعدم انتظام في السابق. شعر هنريت الأشقر لامس قليلاً شالاً حريرياً مُعَرَّقاً ذا لون وردي خنزيري كالشفتين، مخلوطاً باللون البرتقالي على خلفية بيضاء، ومربوطاً على بلوزة برتقالية اللون. عقد لؤلؤ. البقية، التنورة والسترة– الملقاة على الكتفين– كانا من الصوف الثقيل. وما زاد الطين بلة، أنها كانت تلبس جوارب. أما الأمر الذي لا يمكن تصوره، فكانت الأحذية البرتقالية والمصنوعة من جلد التماسيح. بدت هنريت وكأنها حبة حلوى عصية على الورق المغلفة به. وعندما اكتشفت نظرتي، التي كانت تحدق بحذائها، قالت:

«هل هناك عيب في حذائي؟».

«هل هو مقاوم للماء؟».

«ماذا تعني بذلك؟ إن السماء لا تمطر؟».

فقالت منى: «آه، أنت خبيث يا مارتيني. هنريت، لا تهتمي به! فالحسد يقتله، لأنه ليس امرأة».

منى كانت قد عادت إلى الأرض دون مساعدة. للحظة من الوقت، اعتقدت أنها ستحضن هنريت، التي ذهبت دون أن تنبس بكلمة. ثم وضعت منى المجلد عن الواقعية الفرنسية على الطاولة.

«لوحة كوربيت. لقد بدأت بالبحث حولها».

كانت لا تزال تتحدث بصوت منخفض.

«الكتب الذكية الأخرى تشير إلى مجموعة خاصة في باريس، فن كلاسيكي حديث ومن النصف الثاني من القرن التاسع عشر. حتى الحرب العالمية الثانية كانت موجودة في شارع دسبوردس فلمور، أما اليوم، فالقصر اليوم يملكه آخرون. ربما أن سلالة العائلة لم تعد تسكن في فرنسا. اقرأ هذا..».

ناولتني مقالاً من صحيفة سويسرية. بعنوان *«فرنسا الأخرى» les Francs des autres يتحدث عن حل المجموعات الخاصة إبان الاحتلال الألماني*.

«سويسرا؟ هؤلاء بالذات يكتبون عن هذا؟».

«الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع. لقد نشر المقال في شهر تشرين الثاني/نوفمبر الماضي. وهذا لا يعني أن هذا هو موضوعي المفضل. هذه صورة أخرى «لكوربيت» بهذا العنوان.

الموجة *La Vague*. رائحة عطرها الجميل علقت بجو الغرفة، ولو كانت امرأة أخرى لظننت أن لها هدفاً من وراء ذلك.

«إذا لم يخب ظني، فإن هذا الموضوع ليس نادراً عند كوربيت، حيث توجد هنا في المعرض الفني الوطني القديم لوحة «لكوربيت»

بهذا العنوان، في الأسفل، على يسار الطابق الأرضي. أنا لست متأكداً فيما إذا كان الموضوع هو نفسه. هل كنتِ هناك؟».

هزت مني رأسها بالنفي وأشارت بإصبعها إلى الرسم. «أنظر هنا، حسب المقال التاريخي فإن هناك لوحة من هذه المجموعة قد انتقلت إلى مجموعة أخرى، ومن الممكن أن تكون الآن في تيسين *Tessin* [1]. هل هي صورتنا؟ لقد كانت في السابق جزءاً من مجموعة فنية خاصة في فرنسا. هل يوحي لك الاسم بشيء؟».

«فون رايناخ– الأصل سويسرا، ثم فرنسا، الدائرة ستغلق نفسها– إنه أمر موحش. باتريك دي كموندو..».

«آه، لا، أنت تريد أن تستغبيني! لا تذكر هذا مرة أخرى!».

«بلى، هي بالضبط: آخر وريثة في هذا العالم للعائلة البنكية اليهودية من أصل تركي، تزوجت واحداً من عائلة فون رايناخ. حموها واحد من ثلاثة أخوة، بنى «فيلا» على الطراز الكلاسيكي الحديث في *Beaulieu-sur-Mer* [2]. وافاه الأجل ولله الحمد، قبل أن ينقل أبناءه وأحفاده وأبناء وأحفاد كموندو إلى أوشفيتس، حيث أُعْدِموا هناك، وقصر العائلة، الذي كانت بياتريس تسكنه بعد زواجها، أوصى به موريس كموندو للدولة الفرنسية. لا أعرف ماذا حصل لهذه الثروة. أما قبر العائلة فإنه موجود في باسي *Passy* [3]، بالقرب من..».

«عائلتكم؟» بغضب مدت شفتها السفلى إلى الإمام، ثم بدأت عيناها تلمعان.

«أغلقي فمك».

---

(1) أحد كانتونات سويسرا.

(2) بلدة فرنسية في إقليم جبال الألب والساحل الأزرق.

(3) بلدة فرنسية على نهر لوار.

«وهذا هنا؟».

«آبتس؟ هل سؤالك جدي؟ كنت اعتقد، أنك أنت مكتب الاستعلامات للتاريخ الألماني؟ أوتو آبتس في مكتب عمل ربنتروب Rippentrop [1]. كان سفيراً في باريس أثناء *الحقبة السوداء*. إنه رجلٌ وصولي، أولى اهتماماً زائداً عن اللازم بأسياده، وألقى بنفسه بحماس في عمليات النقل القسري لليهود إلى المعتقلات، ويعود الفضل له في انبعاث شعاع النجوم الصفراء في أيام باسي الهادئة. إنه حقير بامتياز. لقد كان يأمل أن يتوج نفسه ملكاً على باريس، ومن المؤكد أنه احتفظ بجزء من المسروقات، التي أمر بسلبها، وبعد الاستسلام هرب مع مجموعة إلى سيجمارينجن Sigmaringen [2]، حيث اكتشفوه هناك. لا أعرف، إذا ما كان له أبناء. انتظري، إذا لم تخني الذاكرة، فإن هناك لوحة مماثلة معلقة في متحف دي أورزي. يتوجب عليك تفقد كافة اللوحات المتشابهة لغرض المقارنة».

نظرت مني لي باستغراب، وأخيراً بدأت استوعبُ الأمور.

«هل يجب علي أن اتصل هاتفياً بهم، فقط لأنك تخجلين من التكلم بالفرنسية، هل هذا هو السبب؟ قولي لي ماذا يعني هذا في الواقع؟ لماذا عليَّ أن أقوم بعملك؟ أنت المسؤولة عن المنشأ. هذا عمل للنساء. أما أنا فأفضل مسؤولية قسم الأعمال السخيفة».

بدت وكأنها فكرت لوهلة.

«مارتيني، هذه المعرفة ليست لدى الجميع، فأنت فيما يخص أبحاث المنشأ موهوب بالفطرة، وبغض النظر عن عملك الحالي. بكل بساطة،

(1) يوخيم ربنتروب 1893–1946: سياسي ألماني، عمل وزيراً للخارجية لألمانيا النازية. حكم عليه بالإعدام شنقاً من قبل محاكم نورنبرغ.

(2) مدينة ألمانية في مقاطعة بادن فورتنبيرج.

استنتاجاتك النابعة من البداهة رائعة».

حولت فمها إلى فتحة مستديرة وضحكت، ثم مدت لسانها.

«ربما كانت هناك صلة بين المجموعة الفنية في قصر كموندو، وسفير هتلر وهذه الصورة».

«ربما..».

«سيكون هذا حدثاً هائلاً. من الممكن أيضاً..».

«ماذا؟».

«الجميع، ليس هناك شيء مؤكد، فهذه السوق ضبابية، لدرجة أن المرء يرى السواد أمام عينيه. فأنا أقرأ الكثير عن الخرافات السويسرية. الكل يعرف دائماً كل شيء، إذا تعلق الأمر بألمانيا، فقط نحن الأغبياء لا نعلم شيئاً».

«أنت قلت نحن».

«ماذا لطفاً؟».

«أنت قلت *نحن الأغبياء، وليس الأغبياء الألمان*، كيف هذا؟. هذا عظيم، لقد بدأت بالتعريف عن نفسك، مع ما تقوم به، فأنت ترى في ذلك مهمة ملزمة».

«نسيت نفسي في خضم المعركة. من المؤكد أن هذا بفعل الحرارة المرتفعة».

وضعت مني قبعة القش على رأسها.

«اسمعي، هذا الموضوع يثير أعصابي، لقد قبلت عملاً في شركة أمريكية، وبالصدفة فإن مكان عملي هو برلين. أنا لا أطلب الحصول على حق اللجوء في هذا البلد، وأيضاً لا أطالب بالجنسية، وبالتأكيد لا أريد أن أكون مثلكم، بغض النظر، شخصيات مزدوجة، أرضيات

بشيء».

بطريقة تظاهرية لبست القفازات.

«قفازات، رغم هذا الحر؟ أليست هذه من خصوصيات هنريت؟».

«أنا ذاهبة الآن إلى موعد خارجي. سأكون شاكرة لك، إذا ساعدتني في موضوع كوربيت».

لقد ساعدتني منى على الأقل حول تعريف خاص لفن جوتيك. منذ معرفتي بها، فتحت لي هذا الأسلوب. النيران اللاهبة والبقية الباقية. لدي مشكلة دائمة في تفهم الإدعاءات الرأسية. على سبيل المثال صورة لمانتجنا[1]: مريم– عليها السلام– تعرض المسيح في أحد المعابد. الصورة موجودة في معرض فني في برلين. شيئاً فشيئاً بدأت أهتم بذلك، والفضل في ذلك يعود لها. هكذا يجب علي أن أفهم الأمر، لذلك سأقوم كاستثناء ببعض التحريات نيابة عنها. اتصلت هاتفياً بباريس، وعلمت أن هناك، على الأقل، لوحتين لصورة بحر رصيف دي أورسي، لوحتان معلقتان حالياً في الطابق الأرضي، ولربما توجد لوحة ثالثة في المستودع. لم يكن المتكلم قادراً– أو راغباً في أن يقول لي فوراً من الذي كان يملكها.

استعارة، ربما، وربما هدية من مجهول، ممكن. أما أن يكون قد تم شراؤها، فهذا أمر غير محتمل. نعم، من المؤكد أن الأنظار تركزت على البحيرة المظلمة، التي جمعت فيها بعد عام 1945 الكثير من اللوحات. إن ألمانيا، وهذا ما يقال في لغة المتخصصين، أعادت غالبية اللوحات

(1) Mantegna 1431–1506: رسام إيطالي.

لفرنسا. الدولة الفرنسية، التي من المفترض أن تكون المسؤولة عن إعادة توزيع اللوحات على أصحابها السابقين، تصرفت بارتياح، مثلها مثل الألمانية... موضوع اللوحات، وكما وُضِّح لي، كان متشابهاً، غير أن القياسات كانت مختلفة. هذا الوصف لم يكن مفيداً للزملاء. من الممكن أن يكون قد تم تصغير اللوحة، لذا عليَّ أن أخرج اللوحة الأصلية من الإطار وأفحصها، إضافة لذلك فقد طُلِبَ مني أن أرسل نسخة عن اللوحة بالبريد الإلكتروني، ومن المفضل أن يتم إرسال صورة لظهر اللوحة أيضاً مع معلومات حول مكان التوقيع. سألت عن معلومات إضافية، حول ما إذا كانوا على علم، فيما إذا قد جرى سرقة لوحة بهذا المنظر من مجموعة فنية فرنسية خاصة، وإذا ما جرى إقحام اسم كموندو في اللعبة. أيضاً هنا امتنعوا عن الإجابة، ولم يكونوا متعاونين.

اتصلت ببائع ألماني، غير أن أحداً لم يرفع سماعة الهاتف. العنوان كان بناية جديدة في حي حديقة الحيوانات، غير معروف ضمن العناوين المعتادة. ربما كان بائعاً وسيطاً، لم يكن هذا مُشجعاً لي، ولكني أرى الأشباح بسرعة، فكل الذين يعملون في هذا المجال يرون أشباحاً. وأخيراً وعندما وصل الجواب من باريس، تم التأكد من أن المعلومات لم تكن كافية. لقد كان هناك فعلاً عدة لوحات لنفس الموضوع، وليس فقط اثنتان في متحف دي أورسي. كان لا بد من إجراء فحوصات إضافية على الأصلية وبدون إطار. وكان من واجبي أن ألفت نظر منى، بأنه لم يتبقَ كثير من الوقت لموعد نهاية التسليم في تشرين أول أكتوبر/ تشرين ثاني نوفمبر وأن من الممكن ألا يتم عرض اللوحة إلا في المزاد العلني بعد القادم.

في حدود السادسة عصفت بالمدينة أمطار رعدية شديدة، حيث

تساقط البرد. رأيت من نافذة مكتبي –في الظلام الذي عم فجأة– حبات برد بحجم البيض، وهي تتساقط على حجارة الرصيف، وكأنها تنقش مثل *Fabergé* [1].

(1) بيتر كارل فابريج 1846–1920: صائغ ذهب وجواهري روسي شهير.

لم تكن منى قد عادت من موعدها الخارجي، أما هنري فقد أنهت العمل. وفي حوالي السابعة والنصف ألقيت معطفي الواقي من المطر على كتفي وغادرت المكتب. كان البخار يتصاعد من الشارع، والسماء لا تزال قاتمة، لكن درجة الحرارة كانت قد عادت للارتفاع. لم يكن مزاجي رائقاً، فقد كنت ما أزال غاضباً من منى وموضوعها الألماني. لماذا يؤثر عليّ الموضوع إلى هذا الحد؟ ما شأني أنا بذلك؟ سألت نفسي كثيراً دون أن أجد سبباً. فركبت دراجتي الهوائية وسرت في شارع فازانن شتراسه، إلى أن وجدت نفسي أتوقف أمام تلك البوابة مجدداً، وبعدها وقف دافيد أمامي.

«لكنك ستشرب هذا المساء كأساً معي. أليس كذلك؟».

بكل بساطة دخلت إلى البيت، ودون أن أقول نعم أولا، وجدت نفسي أسير خلفه. وعندما قرأت الاسم على لوحة الجرس الخاصة بالطابق، فكرت أن علي الآن أن أقول شيئاً.

«لا أعرف، كيف علي أن أتصرف في مثل هذه الحالة. إنها أول مرة أتعرض فيها لمثل هذا الموقف.» أشرت بعجز إلى لوحة الجرس. «لقد قرأت بالطبع عن الفاجعة التي ألَمت بوالدتك، إن هذا يؤسفني».

تنفس برلنسامت عميقاً بشكل مسموع وقال: «أنا أمرٌ أيضاً للمرة الأولى بمثل هذا الموقف، ولا أعرف كيف عليّ أن أتصرف. لقد شوَّهت الصحف سمعتي، وكأن جريمة قتل في العائلة الخاصة تتطلب معاهدات، كما هو الحال في المجالات الأخرى. شكراً على عزائك».

بدت كلماته فظة، هنا إذاً حصل الشرخ في هذه الواجهة المثالية.

لقد كان العجز، الذي لاحظته في الصور التي نشرتها الصحف، واستلطفتها. كاد الألم أن يُفقد دافيد توازنه وللحظات بقي مائلاً إلى الكتمان. لقد تحدث برلنسامت عن جريمة قتل. بدا وكأنه أصيب بغصة وهو يقولها. ثم استدار آخذاً معطفي.

«اعذرني من فضلك للحظة، سوف أجهز شيئاً لنشربه، تفضل بالجلوس».

غاب في الممر على الجانب الأيمن. موقف غريب. هل كان فعلاً، لا يعرف السبب الذي دفع والده للقيام بهذه الجريمة؟ جلت بنظري فيما حولي. الصالة كانت خليطاً من بهو وغرفة جلوس مليئة بأكثر مما يجب، حتى بدت وكأنها مفصلة في قرن آخر، كانت مثل دافيد، لكنها كلها كانت أكثر منه ضبابية بألوانها، لدرجة أنني لم أتمكن للوهلة الأولى من التعرف على ما يحيط بي. في بيوت البندقية يجد المرء مثل ذلك، جدران غامقة اللون، خزائن مغلقة، مرايا عمياء ومذهبات يكسوها الغبار.

تولد لديَّ الانطباع، بأن هناك شيئاً غير طبيعي، وهذا ليس له علاقة بجريمة قتل ميريام برلنسامت. ربما يكمن ذلك في التناسب الغريب. مساحة الغرفة، ارتفاع سقفها والأرضية الحجرية غير المصقولة جعلت السجادات القليلة تبدو وكأنها رَثّة، على الرغم من أن بعضها كان ثميناً. سجادتان أفغانيتان ربما تعودان إلى بداية القرن الثامن عشر. سجادة بلون أحمر غامق من بُخارى، تعود لفترة لاحقة نوعاً ما. وكازاك جالري[1] قص بشكل رقيق جداً، لم يفقد شيئاً من بريقه رغم كثرة الاستخدام الظاهرة عليه. أما عمره فيصعب تحديده. ثم لم أستطع أن أصدق نظري،

(1) نوع من السجاد الشرقي يصنعه البدو في كازاخستان.

فعلى الجدران المدهونة باللون الوردي وفي وسط جدارية من بطرسبرج اكتشفت لوحة «لديغاس» *Dogas* [1]. الراقصات. وإلى جانبها علقت لوحة الموجة لـ «كوربيت». هل هي صياغة أخرى؟ كم من لوحة «لكوربيت» يستطيع المرء أن يشاهدها خلال يوم واحد وفي مدينة واحدة؟ عندما عاد برلنسامت كتمت ملاحظاتي. ربما حدث كل هذا بالصدفة. على أي حال، علي أن أخبر مني بذلك.

عاد برلنسامت وهو يحمل صينية عليها زجاجة شمبانيا، وماء، وبسكويت مملح. وضع الصينية، سكب الشمبانيا وناولني كأساً، قبل أن يجلس.

«لطيف أنك قبلت دعوتي، أنا بحاجة لجليس في بعض الأحيان. هل تفهمني؟ الوحيدون الذين تحدثت معهم في الأسابيع الأخيرة، كانوا من الصحفيين».

«قيل بأن عمتك من باريس..».

«لقد جاءت ليوم واحد، لزيارة والدي في المستشفى، فهي لا تحب أن تأتي إلى برلين. تأتي فقط عندما تشعر بالخوف من مكروه».

رفع كأسه قائلاً: «بصحتك!».

«هل لدينا مناسبة لنحتفل بها؟».

«مناسبة تعارفنا»، أجاب.

حوّلتُ نظري عنه، ونظرت بإعجاب كبير إلى الحائط الذي علقت عليه جدارية بطرسبرج.

«إنها قطعة فريدة» ملاحظة كاذبة تعقبها الحقيقة. غير أنه لم يخطر ببالي شيء أفضل من ذلك.

---

(1) ديغاس : رسام فرنسي 1834–1917.

«إنها من أملاك العائلة، منذ وقت طويل».

«بالتأكيد. إنه لمن غير الطبيعي، أن يرى المرء مجموعة فنية فرنسية في برلين حوفظ عليها لأجيال. ثم لوحة كوربيت، نسخة جميلة جداً عن الأصل».

«نسخة؟».

«أردت أن أقول إن كوربيت رسم لوحات مختلفة للموضوع».

«نعم، أعرف هذا. كان يحب هذا الموقع من الساحل».

«هل تعرف المنطقة؟».

«لوحة البحر كانت على ما اعتقد البداية».

فجأة بدا وكأن حشرجة ظهرت في صوت برلنسامت.

«البداية؟».

«أنا لا أهتم كثيراً بهذا النوع من الفن».

نظرت إليه متسائلاً.

«أعني مرحلة القرن التاسع عشر. كل الزوائد بدت مثيرة للريبة لدى الذين شُغِفوا بها. تماما مثل الفن الجوتي، الذي صار أيضاً مثيراً للشك من هؤلاء أنفسهم. لكن، على المرء أن يسأل نفسه، ما هو علم الجمال هذا، حتى يروق أيضاً للنازيين؟ والداي كانا يحبان هذه الغرف. فقد ورث والدي كلّ هذه الأشياء التي تراها عن والده. والآن أصبحت أنا آخر أفراد العائلة، الذي يجب عليه أن يُحافظ على هذه الأشياء، أو يبعثرها مع الريح. أنا شخصياً أفضل الفن الكلاسيكي الحديث إلى حد كبير. وبالطبع الأعمال الفنية التي تتناول آسيا، لكنني لا أجمع شيئاً، لأن فكرة التجميع تثير عندي الاشمئزاز».

صَمَتَ مُفكراً، وراح يمرر أصابعه المفتوحة في شعره الأسود ويرده

إلى الخلف، وكأن هذه الحركة ستساعده على التفكير، غير أن خصلات شعره سقطت بسرعة على جبينه، ثم وضع ساقيه على بعضهما قبل أن يأخذ رشفة من الكأس، ارتجت معها زاويتا فمه. إنه يذكرني بشخص لا يخطر الآن ببالي.

«إنها مسؤولية ألقيت على عاتقي دون أن أكون مستعداً لها. لن يرى والدي اللوحات التي أحبها، وكانت تعذبه أبداً. أما أنا فإنني أكرهها».

انفجار المشاعر هذا جعلني في حيرة، حيث شعرت بأن علي أن أقول أي شيء، فقط لترطيب الجو.

«إنها وللحقيقة مجموعة فنية جديرة بالإعجاب».

«نعم، جديرة بالإعجاب، لقد أصبت في التعبير. في عائلتنا أشياء كثيرة جديرة بالإعجاب».

بدا دافيد وكأنه يغوص عميقاً في المقعد. لقد تعب، أو ملّ من الأسئلة. بدا وكأنه يفقد إشعاعه.

«برلنسامت».

نطقت الاسم، وكأنني ألقي صورة شعرية غير مناسبة، ولكن من غير السهل تبديلها.

«برلنسامت– اسم غير معتاد».

أردت أن أقول شيئاً آخر، لكن لم تكن لدي الشجاعة الكافية لذلك. فلم أرد أن أقول شيئاً قد يُسيء برلنسامت فهمه، وحاولت أن أغطي على انزعاجي بمواصلة الثرثرة.

«والدك قام باكتشاف هام».

«والمال؟ الاسم يبدو وكأنه قد انقرض– الأفضل أن أقول: قد هلك.

وكأنه اسم يهودي. لكننا لسنا يهوداً».

الجُمل التي قالها، كانت تتكسر وهو ينطق بها، ولم أستطع فهم ما قاله، في هذه الصالة ما بين الستائر الحريرية والديكور الكثير، إلا بصعوبة. سألت نفسي، إذا ما كانت هذه أدلة ثبوتية خلفها موت الوالدة. لقد كانت محبوبة، رائقة المزاج دوماً، مضيافة لطيفة، وجيهة المظهر إلى جانب زوجها، كانت ضوءه البراق، إنه لمن المكابرة أن يصوب نحوها بالضبط ويصيب الهدف، ليس لهذا أي معنى. ربما كانت الشقة غريبة ومليئة بالأغراض المكومة على بعضها لدرجة أنها بدت وكأنها تتصارع مع بعضها. حرب في جسد، لا يتقبل أجزاء غريبة.

«والدي.. كان يحب أن يولد الانطباع... أنت لا تعلم، عمن أتحدث... من... ماذا... من أي نوع من الرجال كان. اسمنا ليس له..».

«نعم؟».

أمعن دافيد النظر إلى يديه. من الواضح أنه لم ينتبه لشيء، وهذا ما جعله يغرق في الصمت مفكراً. في أصبعه الصغير الأيسر كان يحمل خاتماً كختم، الصفيحة المحفورة، كانت بيضاوية الشكل وتبدو وكأنها شعار. لقد كانت هذه الجوهرة جميلة، ومن المؤكد أنها قديمة جداً. شعرت برغبة لأن أضع الخاتم في يدي، وأتأمله عن قرب. لم يكن برلنسامت يضع خاتم زواج. كما أن الصحف لم تشر إلى زوجة أو أطفال. دافيد أمسك بالخاتم وأداره.

«ليس لهذا أهمية. إلى أين وصلت في الحديث؟ آه، نعم، كنت أريد أن أقول لم يكن له سمعة، أو لنقل كاسم كلب شوارع ألماني على مرّ الدهور».

«يبدو أن المجموعة الفنية تعطي انطباعاً آخر».

«المجموعة الفنية، نعم بالطبع. أحياناً أعتقد أن جدي بدأ بالجمع فقط، لكي يظن الناس أن عائلتنا شيء مميز. مساكين يا آل برلنسامت. ثم إن السيد العجوز قام معي بهبوط اضطراري. هل لك علاقة ما باللوحات المرسومة؟ نظرتك توحي بأنك... خبير».

ترددت لوهلة قبل أن أسلم برلنسامت بطاقة عملي.

«آه، إنني أمام خبير. لم أكن أعلم..».

«وأنا أيضاً، لم أكن أعلم، ما الذي ينتظرني هنا. ديغاس، وكوربيت، وربما في الغرف الخلفية بيكاسو وبراكيو؟».

بدا برلنسامت مذهولاً، أو ربما شارد الذهن، ثم عاد من ذهوله.

«قلت إن جدتك كانت تسكن في باريس؟».

«لقد ماتت منذ زمن بعيد. كانت تسكن في الحي السادس عشر».

ما الذي كانت ستقوله روزي تعليقاً على هذه الكذبة المخجلة؟

«آه، بالقرب من عمتي إدفيجه. إن الحي السادس عشر لحيٌّ تاريخي حقاً. ألفرد، والدي... أعني فرانسوا، وعلى الأغلب سوزان، أم إدفيجه، ووالدي.» لم يكن واضحاً، السبب الذي قاده للتأتأة. استراح لبعض الوقت، شرب رشفة وتجشأ «جدتي - برلنسامت- كانت فرنسية».

بدا صوته، وكأنه أدلى باعتراف خطير وخيم العواقب.

«آه، عائلتك من فرنسا؟ لم تذكر الصحف شيئاً حول هذا. إذاً فقد نشأتَ في فرنسا؟».

«لا، عائلتي ليست من فرنسا. وعلى أي حال ليس بشكل مباشر. جدي تعرف على جدتي في باريس. كان... يعمل مع الحكومة، وإلا...»، تردد بعض الشيء، «... لم يكن ليعود إلى ألمانيا بعد الحرب.

الآن تعيش فقط عمتي إدفيجه في باريس، وهي تسكن في شارع لاوريستون، حيث كان كثير من الألمان يعيشون في السابق، ومنهم جدي وجدتي أيضاً. لقد كانت مستعمرة نوعاً ما، في ذلك الوقت».

«في ذلك الوقت؟».

نظر دافيد لي، وكأنه لا يدري، إذا كان من الأفضل، أن يَقُصَّ علي المزيد. «حتى عام 44، إلى أن تحررت باريس، كان أجدادي يعيشون هناك. وجدتك، أين كانت تسكن؟».

«في شارع جرويز».

«هذا يعني أنها جوارنا. رائع، لكن للأسف، أنت تعرف ما الذي حصل في المنطقة».

أنا لم أكن أعرف شيئاً «عمَّا حصل في المنطقة». كانت تعجبني البيوت البيضاء، والهدوء في باسي *Passy*، ارتفاع المكان، حيث كان المرء ينظر إلى المدينة من الأعلى. لم تكن بارتفاع مونت جبل مارته، لكنها كانت على عكسه غير مكتشفة من الغرباء. كان يعجبني دائماً التجوال هناك، وهذا لم يكن مُلْزماً لي لكي أعرف شيئاً عن المنطقة. في زيارتي الثانية لأوروبا، كنت طالباً، اكتشفت الحي الأبيض. وكما هي عادتي، انفصلت عن المجموعة. فبينما كان الآخرون يتجولون في قصر فرساي، مرتدين أحذية من اللباد على أرضيته الخشبية، تجولت في حي إنفاليديس *des Invalides* وصعدت من هناك إلى تروكاديرو *Trocadero*. تجولت بالمدينة طولاً وعرضاً، متجنباً المرور بالشوارع الكبيرة، اكتشفت حديقة مونكو Parc Monceau ومحيطها. لقد كانت زرقة السماء متناسقة مع خضرة الأشجار أمام واجهات البيوت ذات الحجارة الرملية الجميلة والمزينة بِشِباكٍ مطلية باللون الأسود اللامع.

بينما كنت أتجول في تلك الأحياء، التي تذكرني رائحتها، برائحة أول يوم دافئ في بداية الصيف، سألت نفسي، إذا كانت روزي ستُعجب بباسي الجميلة. هل كانت ستشعر مثلي بهذا الإلهام؟ تمنيت لو أتمكن خفية من التسلل كغريب إلى أحد هذه البيوت المضاءة، كنت سأهب نفسي اسماً فرنسياً لأصبح أحد سكان الحي السادس عشر. في هذا اليوم فرحت بمهنتي الجديدة، فرحت بالتعامل عن قرب مع الأشياء الجميلة في محيط جميل. في متحف نيسيم دي كموندو ***Musee*** *Nissim Camondo* خطرت ببالي فكرة، أن أكتب شهادة الماجستير عن المجموعات الفنية الفرنسية في القرن التاسع عشر. فالجمال، والهالة، والطراز الفني لهذا القصر كل هذه الأشياء فرضت علي سيطرتها. وفي النهاية رجحت كفة هواية أخرى، فكتبت عن المجوهرات في اللوحات الفنية في عصر النهضة.

«لا أعرف الكثير عن ذلك، ولكني أعرف عن شارع دبوردس فالمور رقم 30، فهناك كانت مجموعة فنية كبيرة خاصة– قبل الحرب».

«الثانية؟»

«لطفاً؟ آه، نعم بالتأكيد، بالطبع قبل الحرب العالمية الثانية».

«ليس بالضرورة أن يهتم جامع فني بمجموعات فنية أخرى، إلا إذا كان المرء يبحث عن شيء معين، ويكلف آخرين بالبحث نيابة عنه. عدا عن ذلك، فإن فكرة المنافسة كانت غريبة عن تقاليد عائلتنا».

ربما أن المكان الذي تقع فيه جريمة قتل يُزكي حفيظة المضاربات. لم أستطع أن أواجه الانطباع، بأن كل شيء يحيط «ببرلنسامت»، أصبح ذا أهمية. ليس فقط الغرفة، أيضاً تعابير وحركات برلنسامت. كل التفاصيل كانت «تتكلم». على سبيل المثال: تقديم الشمبانيا بمثل هذه

الكؤوس *vase etrusque* من الأربعينات، إنها طرفة غريبة. لا بد أن يكون الجد جامعاً مهووساً. واصل برلنسامت الحديث، بينما ضعت أنا في أفكاري. أنصتُّ له في منتصف جملة، ضاعت بدايتها في عمق الظلام.

«... تراها معلقة، هي نتيجة عادة، كما كان جدي يعلل ذلك. أنا لا أعرف الكثير عن تلك الحقبة الزمنية. لا بد أنك تتفوق علي في هذا المجال إلى حد كبير».

أخذ دافيد رشفة ثم جال بنظره فيما حوله. وقال: «عليَّ أن اعترف لك، بأنني شخصياً لا أعرف شيئاً خاصاً عن حياة جدي في فرنسا، كان يتكتم على الكثير. ووالدي ما يزال حتى الآن خجولاً، إنه رجل هادئ الطبع، لديه القدرة دائماً على أن يتحدث عن العلاقات التي كانت سائدة عموماً في الماضي بهدوء وعقلانية، غير أنه لم يجرؤ أبداً على الحديث عن مصدر الالتهاب الحساس في عائلتنا. اعتقد بأن سيرة حياة جدي لم تكن مشرفة. هل كان بالإمكان أن يكون الأمر على غير ذلك، في ذلك الوقت – كألماني في الخارج».

ما تحدث به برلنسامت من تلقاء نفسه بالتدريج وفي علب صغيرة، كان لاحقاً شيئاً مختلفاً تماماً عمَّا كنت أتوقع. علاقات في كل مكان، مُغَلفة بطبقات من الظلال. شعرت بأنني أتذكر الكتب الألمانية القليلة، التي كنت أملكها وأنا طفل: كالأساطير. إن روزي لم تكن تتحدث كثيراً. عدا بعض العبارات الشريرة التي كانت قد سقطت على ألمانيا، عبارات متفرقة. صمتها لم يزعجني أبداً. فقد جرى الحديث بما فيه الكفاية عن إقامتي الأولى في هذا البلد.

«... عدا عن ذلك، تغيير اسم والدي هو عبء ثقيل على كاهله، لم

يكن يرغب في الاعتراف به علانية».

«غيَّر اسمه؟».

«ليست شجاعة، أليس كذلك؟ ولكن سُمح له بذلك. فبعد انتهاء الحرب حالف والده الحظ. حيث جعله شخص ما يعود من فرنسا إلى ألمانيا. بعدها تطورت كافة الأمور على نحو إيجابي، إلى أن وافاه الأجل إثر حادث سير، مع زوجته الفرنسية. والدي وأخته نشأا كيتيمين. كانت ظروف مختلفة عن تلك التي كانت تسود في شارع لاوريستون. عمتي إدفيجه لم ترغب في البقاء في ألمانيا. فحالما بلغت السن القانوني، ذهبت عائدة إلى باريس. على عكس والدي الذي رفض فرنسا. أنا لم أكن هناك مع والديَّ إطلاقاً».

أيُّ كآبة في صوت دافيد، كراهيته للصور، إشاراته حول العائلة. هل كان دافع القتل أكبر من استعداد الشرطة للتحري؟

«أتُحب باريس؟».

«أعشق هذه المدينة لدرجة الجنون، ولكن..».

«لكن ماذا؟».

«العلاقات غير الواضحة في عائلتنا جعلتني دائم الحيرة. لا يمكن أن أكون مرتاح الضمير... هل تعلم، إذا كان المرء يحمل معه إرثاً كهذا، فإنه يشعر، أنه شيء مختلف عن الآخرين».

أتتني فكرة، غير معقولة وقبيحة في آن معاً، لم أتمكن من التخلص منها. تخيلت دافيد وكأنه واحدٌ من سلالة وحوش فرانكنشتاين(1)،

(1) فيكتور فرانكنشتاين بالإنكليزية: Victor Frankenstein هو الشخصية الأدبية الرئيسة في رواية فرانكنشتاين التي كتبتها المؤلفة البريطانية ماري شيلي عام 1818، وهو –في الرواية– ابن ألفونس فرانكنشتاين وكارولين بيوفورت، ولديه ابنان اثنان: ويليام وإرنست.

الذي كتبت ماري شيلي[1] 2 قصته المروعة في كتاب «سنة بلا صيف».
ولكن قبل أن ابدأ سرداً مفصلاً عن هذا المزيج المرعب من العطف والانجذاب، الذي وَلَّدَهُ دافيد في نفسي، أعادني من جديد إلى الواقع.

«أنت لا تشرب، الشمبانيا ستسخن».

صوته بدا وكأنه يريد أن يقول: *كل يا صبي حتى تحافظ على قواك!*

وقع صوته تأرجح ما بين السذاجة والإصرار.

«... عندما كنت صغيراً، كان يأتيني دائماً نفس الحلم. سفينة ترسو في ميناء مدينة، ربما في ريغا أو مرسيليا. كان يبدو، وكأنه ليس على متنها سوى الجرذان. كانت تقرض جيفة، من غير الواضح إذا كانت جثة إنسان أم حيوان. في هذا المحيط الجديد تولد جرثومة جديدة في اللحم الذي يُعتقد أنه ميت. الجيفة «غير الميتة» تتسلل من على متن السفينة قبل أن تُبحر، ثم فَقَدْتُ أثرها. لكن الشعور بأنها لا بد وأن تسبب الويلات، لا يفارق مخيلتي».

نظر إلى جدارية بطرسبرج وحدق النظر في لوحة كوربيت.

«نعم، لوحة البحر، تلك كانت البداية. يريد المرء أن يخرج من التاريخ طيلة سني عمره. ففي يوم من الأيام يعتقد أنه نجح، ثم يرى المرء هذه اللوحة أمام عينيه».

لم أفهم ما إذا كان يقصد المجموعة الفنية أم الحلم، وبطريقة اعتباطية أطلقت تعليقاً سخيفاً.

«إذاً فقد خرج والدك من الضيق إلى الفرج من خلال وظيفته».

---

(1) ماري شيلي بالإنكليزية: Mary Shelley، 1797–1851 كانت روائية بريطانية، وكاتبة قصص قصيرة. من أشهر رواياتها الرواية القوطية فرانكنشتاين 1818. ماري شيلي أيضاً حرّرت أعمال زوجها الشاعر الرومانسي والفيلسوف بيرسي بيش شيلي. والدها كان فيلسوف السياسة ويليام غودوين، وأمها كانت الفيلسوفة ماري وولستونكرافت.

«من الضيق إلى الفرج؟ لم أستوعب مطلقاً، كيف يهتم الإنسان طواعية بالكيمياء».

«اعتقدت أن اكتشافه جعله ثرياً، ومكنه من أن يعيش مع عائلته مثل هذه الحياة».

«الآن، وعلى كل حال، تغير كل شيء. علي أن أرى، كيف أتصرف مع الأمور. ومن ناحية أخرى، علي أن أكون شاكراً له. مَنْ يدري ما إذا كان باستطاعتي بالاسم الثاني، الحقيقي، أن أبدأ حياة عملية كممثل على خشبة المسرح أو في السينما».

«ما هو الاسم السابق؟».

«أنا لا أعرف الاسم. الإنسانة الأخيرة التي تكتنز هذا السر هي عمتي إدفيجه، وهي لن تبوح به إطلاقاً».

«ألم يفتش الباحثون؟».

«على المرء أن يترك بعض القصص على حالها، فوالدي أفنى كافة الوثائق القديمة. بالتأكيد لديه أسبابه، إذا كنت تفهم ما أقصده».

لم أعرف ما الذي قصده. «أمام المحكمة– كان ذلك معروفاً؟ لم يتم الإشارة لذلك».

نوبة ربو منعت دافيد من الإجابة. كان سعاله عالياً، لدرجة أن امرأة بِرَوْبٍ جاءت من أعماق الممر المظلم، وتوجهت إلى دافيد وكأنها تلقي بنفسها عليه، وسكبت له الدواء في كأس الماء وانتظرت حتى زالت النوبة.

«شكراً، سيدة آرنو،» قالها بصعوبة دون تنفس. اختفت المرأة في نفس الاتجاه الذي أتت منه.

«اعذرني من فضلك، أحياناً أصاب بمثل هذه النوبات، فأنا مصاب

بالحساسية، وقد ساءت حالتي بعد وفاة والدتي».

مرر مجدداً أصابع يده المفتوحة في شعره الأسود ورده إلى الخلف.

«في النهاية فإن حالة البعض في هذا البلد تصبح هكذا، فقد صار الماضي وبالاً على والدي. فانشغاله بالموضوع جعله يصبح نصف مجنون.» توجهت نظرات دافيد من جديد للوحة كوربيت. «أنظر فقط إلى اللوحة، الموضوع فيها لا يتعلق بالجمال. ولا بالطبيعة. الأمر يتعلق بالأحاسيس، الحنين والجنون. كوربيت كان منبوذاً، كان مطارداً في وطنه، والمنطوون على أنفسهم خَطِرُون. وبعد اليأس والكراهية تأتي الخبرة، بأن المرء قادر على العيش بدون المجتمع. المنطوون على أنفسهم يبتكرون مقاييس جديدة خاصة بهم. ليس لديهم ما يخسرونه. سألت نفسي، ما الذي جعل جدي يستهويه هذا الرسام».

رد نفسه منهكاً في المقعد إلى الخلف.

«أعتقد أنه من الأفضل، أن أتركك الآن وحدك».

مثلت بأنني سأقف. لكن برلنسامت أمسك بي.

«هل سألت نفسك مرة، ماذا يعني الجمع في الواقع؟ ما هو سبب هواية امتلاك أشياءً ما؟ شهوة لا حدود لها، طلب نهم نحو غرض ما! هل تفهم هذا؟ أنا، لا. أنا أشعر بأن هذا مثير للاشمئزاز، فعلى المرء أن يعتني بالناس، وليس بأشياء ميتة».

لقد طرحت بالطبع هذا السؤال على نفسي. تجميع الأشياء بدا لي وكأنه تملك قسري يثير السرور في النفس. الكثيرون من الجامعين في القرن التاسع عشر كانوا من الرجال اليهود في منتصف العمر، وتمكنوا من جمع ثروات طائلة، وفي الغالب كانوا أصحاب بنوك خاصة. ثم أسسوا من حولهم محيطاً فاخراً، ووعياً اجتماعياً، وتعبيراً عن الذات،

وطموحاً للعلم. إنها ليست مطالب نهمة أو شهوة غير محدودة، ليس طمعاً أو جنوناً، فالبعض منهم كان يعرف الفنانين الذين كانوا يشترون منهم أعمالهم الفنية. وفي أبحاثي اللاحقة حول المنشأ، وجدت في فرنسا عدداً كبيراً من المواطنين المحافظين أصحاب ثروة طائلة، كانوا يجمعون أعمالاً فنية غير محافظة. حتى أن البعض منهم فضل مدرسة الطليعة الفنية *Avantgarde*. لكن في الغالب اختلط المجسم بالتجريدي، ولم اكتشف أسباب هواية جمع الأعمال الفنية، فالذي كان يهمني بالدرجة الأولى، هو تركيبة وتناسق الصور.

«عند الجمع يكون الذي يجمع وحيداً، ولا يوجد إنسان يمكن أن يقف بينه وبين شهوته. هو نفسه الوحيد القادر على إشباع رغبته، فلا أحد يواجهه أو يردعه».

ما الذي أراد دافيد برلنسامت أن يقنعني به؟ لماذا لا يعرض هذه المجموعة الفنية في المزاد ويبيعها للذي يدفع أكثر من الآخرين، إذا كانت بالنسبة له موحشة إلى هذا الحد؟ لكنني شعرت، وكأن برلنسامت لا يتحدث عن الفن مطلقاً، بل عن نفسه.

«الرغبة في امتلاك الشخص لآخر، لا بد أن تكون إما رهيبة أو قمة الحظ،» همس بصوت غير مسموع. «إنها طبيعة الاستقلالية. هل تجمع؟».

هززت رأسي نافياً. «ليست لي قدرة مادية على ذلك، إنني أجمع، على الأقل، الأشياء التي أرغب حقاً في امتلاكها».

قلت هذا بتركيز، وبصوت عالٍ وواضح. أحببت في هذه اللحظة أن أفتح نافذة، ليدخل من خلالها ضجيج الشارع، أو أن أنادي على المرأة التي جاءت بالدواء، لكي تنظف السجاد. «ربما ولهذا السبب،

أعمل في الشركة. في الحقيقة لم في أفكر بذلك.» نظرت إلى الساعة. «صار الوقت متأخراً. عليَّ أن أتصل بأحد الزملاء.» ثم وقفت وشكرته قائلاً: «كان حديثاً شيقاً».

هل شُبِّهَ لي، أم أن خيبة أمل ارتسمت حقاً على وجه دافيد؟ لقد وقف برلنسامت واختفى، وعندما عاد حاملاً معطفي، كان قد تمالك جأشه.

سألته: «ماذا ستفعل الآن؟» تملكني شعور مفاجئ بتأنيب الضمير، أن أتركه وحده. لكن دافيد فهم السؤال بشكل مختلف تماماً.

«سأعمل، وسأنتظر موعد استئناف القضية».

«هل قدمت طلباً للاستئناف؟».

هز رأسه علامة الإيجاب. «خلافاً لإرادة والدي الذي قال إنه يشعر بالذنب، ويريد أن يبقى حيث هو الآن. أما أنا فإنني أرى الأمر بصورة مختلفة».

«لم نتحدث إلا قليلاً عنك شخصياً. إنها عدم لباقة مني، لأنني لم أسألك عن مهنتك».

«بلى، لقد قلت لك إنني ممثل».

«ممثل مسرحي؟ سينمائي؟ تلفازي؟ هل أعرف وجهك من خلال ذلك!؟».

«لا أظن ذلك. فالحصول على عمل في هذه الأوقات السيئة أمر صعب، وخاصة في هذه المدينة، حيث يحاول المرء أن يشق طريقه بشتى الوسائل».

كان منظره يدلل على كل شيء، إلا أنه ليس مضطراً لأن يثبت نفسه بشتى الوسائل. وعند الباب مد لي يده مودعاً، وقبض بشدة عليها،

لدرجة أنني حاولت بأدب، أن أتخلص من هذه القبضة التي كانت دافئة وجافة في آن واحد.

«إذا جئت مرة أخرى إلى الحي، فلا بد أن تزورني، لنتابع الحديث، ليس فقط عن باريس».

«سنرى، المدينة موضوع حديث دائم. على أي حال أنا متأثر جداً بالفن، الذي لا تحبه».

لم يَبْدُ منه أي رد فعل.

«من فضلك، لدي سؤال آخر. هل تعرف ممن اشترى جدك لوحة كوربيت؟ لقد عُرضت علينا للتوّ صورة مماثلة عن طريق سمسار».

«آه، إنها قصة طويلة، لهذا يجب أن تأتي مرة أخرى. لكن من المؤكد، أنها ليست هي الصورة التي عرضت عليكم، حتى وإن كنت لا أحب، ما هو معلق هنا، فإن هذا لا يعني، أنني سأتخلى عنها. فهذا مستحيل».

إذاً، كان دافيد يعي المخاطر الكامنة في كائنات الظل، ويعرف أن المنطقة مليئة بالألغام. كبر المساحة كان ساحقاً. حتى لو اكتُشِفَتْ ساعة من كارتير عام 1890 في شنغهاي، فمن المؤكد أن يجد المرء عليها آثار البارود. البعض يفضل أن يخبئ المجوهرات التي ورثها عن جدته في صندوق في البنك، ولا يفكر مطلقاً بالمعنى الكامن في حجارة الخواتم والقلائد أو في بريق اللؤلؤ، والكثيرون لا يريدون أن يثقلوا كاهلهم بالهمّ الذي يسميه المرء بكل براءة «المنشأ». أما برلنسامت فقد كان يعيش في صراع ما بين الولاء والتمزق الداخلي. والآن فهمت ما الذي كان يعنيه بالقول، إن الفن هو الذي كان يحافظ على ترابط العائلة.

«هل تفكر بإعادة تسليم هذه المجموعة الفنية في وقت لاحق؟ أو

جزء منها على الأقل؟ ولو بدافع التخلص من هذا الضغط؟».

«لقد قلت لك، إننا رفعنا طلب استئناف، وإذا حكم ببراءة والدي، فإنه سيعود للبيت، إلى مجموعته الفنية». فجأة تبسم بخبث. «هل تسأل بصفتك شركة للمزاد العلني؟».

«أنا لست صاحب مزاد، يا سيد برلنسامت. أنا أعمل كخبير مجوهرات لدى نوبل نيويورك Nobble NYC. لكني هنا أسال بصفتي الشخصية، لقد أجريت قبل وقت قصير دراسات حول المنشأ، واتصلت لهذا الغرض بورثة مجموعات فنية كبيرة. وهنا يبدأ المرء أوتوماتيكيا بالاهتمام بهؤلاء الناس وبموقفهم من الأغراض التي ورثوها. هذه البحوث في هذا المجال تسمى *déformation professionelle*. أعذرني على فضولي».

تركت المصعد دون استخدام، ونزلت على السلم المرمري الفاخر المكسو بالسجاد الأحمر، ولسبب ما استدرت بعد عدة درجات، وقلت لنفسي في هذا البيت حصلت جريمة قتل. قتل رجل زوجته بالرصاص، ولا أحد يعرف السبب، حول هذا الموضوع لم ينبس برلنسامت بكلمة واحدة.

وعندما وصلت إلى أسفل الدرج، نظرت مرة أخرى إلى الأعلى، حيث كان الباب قد أغلق. ولم لا؟

السادس

في الأيام التي تلت زيارتي «لبرلنسامت»، كنت أرى في منى كلباً يتقفّي الآثار باستمرار، باحثاً عن عظمة دفنها، ولم يعد يتذكر المكان الذي دفنها فيه. غير أنني لم أكن أفكر بلوحة كوربيت. كنت أفكر في دافيد، في عائلة برلنسامت، في جريمة القتل، في حادث السير الذي ذهب ضحيته الجدّان. سألت نفسي عن المكان الذي ماتا فيه، وأين تربّى الأب والعمة، وعن المكان الذي توجد فيه هذه المجموعة الفنية الرائعة في هذا الوقت. مباشرة وبعد أن غادرت شقة برلنسامت، اتصلت هاتفياً «بمنى». شعرت بأني بحاجة إلى مساعدة.

«أين أنت؟».

«في شارع فازانن شتراسه على زاوية شارع كَنت. لقد كنت في بيت برلنسامت. هناك شيء يبعث على الريبة».

«سبق وأن تحدثنا في الموضوع. ما شأننا بقصص جرائم القتل؟».

«عند برلنسامت لوحة معلقة لكوربيت، تشبه الصورة التي عرضت علينا».

«ماذا يعني هذا؟ هل هي نفسها أم لا؟».

«لا أستطيع قول شيء عن ذلك، لكن لعائلة برلنسامت صلة ما بباريس في سنوات الاحتلال».

«لا! أرجوك لا تتحدث في هذا الموضوع، ولا تفتحه من جديد. جهاز الرد على المكالمات الهاتفية معطل، عنوان بريدي الالكتروني لم يعد يعمل، وفي الأسبوع الماضي سرق هاتفي النقال، لا يمكن الاتصال بي».

«هكذا وبدون مقدمات؟ كنت أعتقد، بأنّ هذا مجال اختصاصك».

«أنا باحثة منشأ، ولا أريد الانتقام للذين جرّدوا من شرفهم».

«*باحثو المنشأ الذين ينتقمون للذين جرّدوا من شرفهم، هم آخر الموجودين*. هذه كلماتك، لقد قلتِها في الأسبوع الماضي. إلى اللقاء غداً!».

برلنسامت الجد كان يعمل في الحكومة، فهل من علاقة بين هذا والمجموعة الفنية؟ قبل الاحتلال كانت صفقات التجارة بالأعمال الفنية في باريس، تجري في شارع الشعراء، أحد شوارع الحي الثامن. اليوم، لم يبق من هذا الحي، الذي قضى فيه بيكاسو جزءاً من حياته، شيءٌ كثيرٌ من بريقه وأجوائه الملهمة. في ذلك الوقت كان عدد من قصور هواة الفنون، الذين كَتَبْتُ عنهم، أملاكاً خاصة، منها على سبيل المثال قصر كاموندوز. وغالبية هذه المباني الجميلة التي شُيِّدت في القرن التاسع عشر كانت تقع في حي مونسو *Monceau*. أما اليوم فإن معظم محتوياتها الفنية موجودة في متحف أورزي *d'Orsay*– هذا إذا لم تكن القصور نفسها قد تحولت إلى متاحف. لكنه كان من الصعب تعقب اللوحات الفنية، التي صودرت من قبل الألمان، نظراً لوجود عدد من المجموعات والأشخاص الفرديين الذين جعلوا من أنفسهم أوصياء على التحف الفنية، فهذه اللوحة أو تلك استولى عليها بالتأكيد قائد العملية هذا أو غيره. وبهذه الطريقة يمكن أن تكون قد تشكلت مجموعة برلنسامت الفنية.

إضافة إلى ذلك كانت هناك سويسرا، كما أشارت منى عن حق، كسوق لترويج الأعمال الفنية المسروقة. وكان يقوم على ذلك أسماء

عديدة مثل: ويندلاند وهوفر. فالأول كان تاجراً ألمانياً للأعمال الفنية ويعيش في سويسرا، وكان ماهراً في إحضار اللوحات الفنية من المناطق المبهمة و المتاجرة بها؛ أما الثاني فكان وسيطاً يهرّب الأعمال الفنية عبر قنوات مظلمة- بشكل أساسي أعمال فنية من الانفعالية الفرنسية ومن الفن الكلاسيكي الحديث- إلى سويسرا. وأخيراً كان لوزارة الإعلام وللسيد جورينج[1] شخصياً، رجالهم، الذين عرضوا ما يسمى بالفن الفاسد بين الناس، وهي اللوحات المصادرة من المتاحف الألمانية من ميونيخ وحتى مدينة شتيتين *Stettin* [2] التي لم يشأ النازيون الاحتفاظ بها طمعاً في الحصول على العملة الصعبة. وفي 30 حزيران يونيو 1939 اجتمع في جراند هوتيل الوطني لوزيرن، شرذمة منتقاة من الضيوف للمشاركة في مزاد علني، كل ما عرض فيه كان ملكاً للمتاحف الألمانية. حيث يقف البائع قائلاً: الإمبراطورية الألمانية: يوسف فون شتيرنبيرج *Sternberg* [3] كان يجلس هنا إلى جانب مارلين ديتريخ *Mariane Dietrich* [4]، أيضاً الزوجان فايلشنفيلدت[5]، تاجرا الفنون، كانا موجودين، إضافة إلى بولتسر الابن وبيير ابن هنري ماتيس[6].

كان من الممكن، أن يكون جزءاً من المجموعة الفنية لـ «برلنسامت» قد جاء من مثل عمليات المزاد هذه. أو أن جدة دافيد كانت عميلة.

(1) هيرمان جورينج 1893–1946: من أبرز قيادات ألمانيا النازية، والأب الروحي لجهاز البوليس السري «جيستابو»، وأحد أبرز مهندسي الألمانية النازية.

(2) مدينة بولندية.

(3) مخرج أمريكي من أصل نمساوي 1094–1969، عمل في هوليوود.

(4) ممثلة ومغنية ألمانية 1901–1992، نجحت لتكون أول نجم سينمائي ألماني في هوليوود.

(5) فالتر فايلشنبفيلدت 1894–1953 وزوجته ماريانا اسمها قبل الزواج برسلاور 1909–2001.

(6) هنري ماتيس 1869–1954: رسام فرنسي.

فأنا في الحقيقة، لم أكن أعرف إلا القليل عن عمليات نهب المجموعات الفنية الخاصة التي قام بها النازيون، وعملاؤهم الفرنسيون. بالنسبة لي كانت الأحياء الأفضل في باريس–التي كانت موطناً لتلك المجموعات الفنية– ببساطة جزء من أوروبا الأزلية، أصل أولئك الأشخاص التعساء، الذين تحدثت عنهم إديث والتون في رواياتها، أشخاص لم تعرهم العائلات الأمريكية أي اهتمام، بل سخرت منهم، واعتبرتهم كائنات غير مقبولة، قليلي الحيلة، ويتصفون بالقنوط. أما أنا فقد كنت أحب هؤلاء الناس الذين كانت سجاياهم تشعّ كقوس قزح في لوحات رسامي الانفعالية.

أحياناً كان ينبعث من خلال تعاستهم شيء مريب. بسبب هذا الريب جاء هنري جيمس[1] إلى أوروبا ومعه رسامو عصره الأمريكيون. في باريس، وهذا ما كان يقال في ذلك الوقت، كان المرء يتعلم «النظرة»، التي كانت تجعل الواقعية تذوب بانسياب في العمل الفني. إلى جانب ذلك فقد ظهرت في هذا التفاعل الكيماوي أوضاع كانت قد بقيت سراً مبهماً في عيون الأمريكيين. مثل مدرسة *التخفّي*،التي لا يمكن أن يذهب إليها المرء إلا في أوروبا.

كما أنني مدين أيضاً لخبرتي الأوروبية فيما يخص الفكرة القائلة، إن ما هو خفي، هو أكثر من تغطية الأشياء التي في المقدمة. لكن ملاحظة دافيد «*أنت تعرف المنطقة*»، دلّت على شيء، ولم أرغب في أن يكون لي شأن به. فما الذي جرى بالضبط في تلك المنطقة المحيطة بقصر المكسيك وتحت مقبرة باسي، في شوارع جرويز، لاوريستون،

(1) هنري جيمس 1843–1916: كاتب أمريكي ولد في نيويورك وتوفي في تشاسي ببريطانيا. وهو الأخ الأصغر للفيلسوف ويليام جيمس.

بتراركوي، التي كنت معجباً بجمالها؟ عندما ذكر دافيد برلنسامت لي تلك الملاحظات، لم أطرح أي استفسار، لأنني لم أرغب في أن أُقْحم نفسي في تاريخ، نجوت لحسن الحظ منه. إنه الماضي الألماني اللعين، فهذه كانت مهمة مني.

على الرغم من ذلك وجدت نفسي أفتش في الكتب، سراً بقصد المعرفة الشخصية فقط. وفي كتاب واحد فقط، وتحديداً في كتاب المتحف *المفقود* «لهكتور فيلسيانوس»، وجدت إشارة إلى *المنطقة*. ربما لم أقرأ الأدبيات الأولى بدقة، مثلما يفعل المرء أحياناً حيال الإشارات التي يعدها قليلة الأهمية. فتبعاً «لفيلسيانوس»، فقد عاثت عصابة بوني لافونت فساداً في شارع لاوريستون. لم أسمع بهذا الاسم من قبل. أعدت دراسة لوائح الكلمات في الأدبيات الأخرى المتعلقة بسرقة الأعمال الفنية، غير أنني لم أعثر فيها على هذا الاسم، فمن هو بوني لافونت؟

«اللعنة على الشيطان. عمَّ تبحث؟ أجبني، ربما أستطيع مساعدتك. هل هي لوحة كوربيت التي تسبب لك وجع الدماغ؟».

رددت عليها بأن لوحة كوربيت ضمن مهماتها، وانطويت على نفسي.

في مساء أحد الأيام التالية، وقبل أن أذهب «لبرلنسامت» بوقت قصير، خطر ببالي جورج دوراس. كان محامياً، تعرفت عليه في ندوة حول سرقة الأعمال الفنية عقدت في باريس. دوراس ألقى في الندوة محاضرة حول رحلة التيه للوحة فنية ظهرت من جديد. لقد ترك لدي انطباعاً بأنه سديد الرأي، وغير شفاف في نفس الوقت. لقد كان فيه قليلٌ من رائحة كازانوفا، نوع من البشر، الذي يجب عليه أن يشارك

في مباريات مهما كان مستواها، فقط ليرى أنه أكثر معرفة من الآخرين. تربّى في باريس وتعلّم في مدارسها. وبعد بضع سنوات من الدراسة في نيويورك ولوس أنجلس حصل على إجازة من المدرسة العليا. وهذا يعتبر بالنسبة لإنسان فرنسي أمر جديد بالتقدير، ويكفي كما هو معروف لصعود حتمي غير قابل للتوقف. في الندوة أشاع البعض، بأن تخصصه في مجال سرقة الفن، لا يعود فقط لاهتمامه بتاريخ الفن، وإنما أيضاً لأنّ عائلته متورطة بشكل ما باختفاء اللوحات الفنية. لم استفسر عن الأمر، ولكني اتصلت به في ذلك المساء. فبدا دوراس مندهشاً لمكالمتي، وزادت دهشته بعدما عرضت عليه أن يعطيني دروساً خاصة في الطبوغرافيا.

«أمريكي في باريس»، قال مازحاً. «كيف أستطيع خدمتك؟ هل تعدّ لرحلة خاصة إلى هنا، هل طَفَتْ أوساخ على السطح من جديد؟».

قلت له بأنني لست على معرفة بتاريخ مدينة باريس في القرن العشرين. بعض الأحياء وتاريخها تعرفت عليها من خلال تجوالي فيها. كنت أبحث عن معلومات تتعلق بالحي رقم 16 إبان الاحتلال الألماني. صحيح أنني كنت أعرف، أن هناك مستودعاً في شارع دبوردس فالمور...

«... «لبيرنهايم» – جون، تاجر أعمال فنية».

... بالنسبة لي كان الزمن الحقيقي بعيداً جداً، وتهريب الفن الفرنسي كان مجرداً. كيف كان علي أن أتخيل ذلك؟ الأجواء، الأحداث اليومية، ما يجري تحت الأرض، وعمليات التورّط التي لا يُقرأ عنها في التقارير الفنية، والدراسات العلمية. بالطبع لم أنشأ في أوروبا. ولم يكن لي أجداد لكي يقصّوا علي شيئاً عن تاريخ تلك الحقبة، وكل معرفتي اكتسبتها من الكتب. أطلق دوراس ضحكة صاخبة، ولم أستنتج، ما هو الشيء

الغريب الذي احتوته أقواله. بعدها أصبح المحامي جدياً.

«شارع لاوريستون، هل سمعت عنه، عن العصابة؟».

مجرد تلميحات. ولقد قرأت بعض الشيء.

«منطقة عمل بوني لافونت امتدت من الغرب الثري، مروراً بالوسط، وحتى الشرق الفقير، وفي كل المدينة. في الغرب نهب، في الوسط ابتزاز وبيع للمسروقات بأسعار باهظة وفي الشرق تخزين. الغرب كان المصدر، الشرق محطة التهريب، أمّا الوسط فكان القلب النابض لهذا الولع ما بين المنبع والمصب. هنا في وسط المدينة اجتمعتْ مرّة أخرى كل الأشياء التي تكمّل بعضها، لكن بشذوذ تام: متطلبات السوق. حتى أحواض الاستلام النازية الرسمية التزمت بهذه الطبوغرافية. أما أماكن تجميع الفن فقد كانت في اللوفر، في معرض دو جو دو باوم الفني، أي بالقرب من الحي الأول. اشتر خارطة، كتاباً من هذه الكتب الصغيرة التي يمكن الحصول عليها في أكشاك الصحف. ثم انظر فيها إلى الشوارع التي سمّيتها لك. سترى مدى سيطرة هذه العصابة القبيحة وكيف كانت تجري العمليات.

من جورج دوراس عرفت أن بوني لافونت لم يكن اسم قائد العصابة وإنما كان الاسم العائلي لشخصين غامضين، كانا ينفذان المهمات القذرة للنازيين: سلب، نهب، تعذيب. تجارة غامضة بالمسروقات. لم يُهرّبوا فقط لوحات فنية ثمينة وقطع فنية فحسب، وإنما أخذوا من نخبة الناس الذين «زاروهم» كل شيء– بياضات الأسِرّة، أدوات الموائد الفضية، الخزف الصيني، ملابس الحفلات المسائية، عطور، قبعات وحقائب اليد، عكازات، علب السجائر. حتى أنهم لم يرتدّوا عن سرقة مضارب التنس وتجهيزات الجولف. الموكلون الذين كانوا يعملون

لصالحهم، كانوا بحاجة لكل شيء. إنها شريحة اجتماعية جديدة طفت إلى السطح. حثالة المستنقع. فهذه العمليات لم يكن لها صلة بالسياسة أو بالأيديولوجية. لقد كان الأمر يتعلق بالجشع، فقط عدم التعرض شخصياً للخسارة. عمليات ثأر ضد من كانوا في السابق من الطبقة الراقية، قاطعي الرقاب، أصحاب البنوك، المحتالين باستخدام المحسوبية واليهود.

الأشياء التي سلبها بوني ولافونت ووزعاها فيما بينهما، وعلى من هم على شاكلتهما، لم يروها من قبل إلا عن بعد، هذا لو حصل ذلك فعلاً. كماليات فاخرة، كتب، قطع فنية، ثياب فاخرة، فرو، مجوهرات. زمن الصدقات ولّى، وتمكنوا أخيراً من امتلاك ما كان ممنوعاً عليهم، وإلى جانب ذلك كان بإمكانهم أن يمارسوا الثأر. نظر البعض إلى تلك الحقبة السوداء وكأنها الثورة الثالثة الحقيقية، التي ستقتحم كل المواقع وترفع عالياً أولئك الذين لم يكن لهم صوت. لم يكن المرء بحاجة حتى لأن يتكلم، كما في زمن عام 1789. البطش والمنشأ من المستنقع كانا كافيين تماماً.

وهكذا حصل أن أصبحت دجاجات النازيين- هكذا كانت تسمى النساء الفرنسيات اللواتي أقمن علاقات مع الألمان- فجأة يلبسن جوارب حرير على أفخاذهن، بدلاً من جوارب الصوف الرمادية التي كُنَّ ينسجنها ويغسلنها. قمصان ناعمة معطرة زينت قمم أثداء الدجاجات المريضة، بينما لم تزل مخالب الدواجن العميلة تعمل، وكأنها لا تزال تحفر في الروث. كُنَّ مستلقيات على وسائد من دمقس -كانت في السابق ملكاً للمبعدين- محاطات بالحرير، شمبانيا مسروقة في معدهن، أمام أعينهن صور غريبة، من المفترض أن تكون ثمينة. كلّ

الأشياء التي لم تكن حتى أدنى شرائح النازيين ومن نهج نهجهم بحاجة لها، قامت العصابة بتهريبها إلى سويسرا، وباعتها هناك. إن ما فعلوه، كان إهانة كبرى لروح باريس. لقد كان دوراس يحترق وهو يتحدث، تحدث عن ب. م، زميل له أيام الدراسة في كلية سوندسو، ويعمل اليوم في وزارة الخارجية الفرنسية، والد ب. م، وعلى الرغم من أنه يهودي، كانت له علاقة بشخص يدعى إدي باجنون، وهذا أيضاً كان يعمل مع عصابة شارع لاوريستون. ووالد صديقه كان نزيلاً، نعم، قال فعلاً كلمة «نزيلاً»، وكأنه يتحدث عن فندق، بمعسكر درانسي. كنت قد سمعت بهذا الاسم، ومن هناك تم نقل سلالة كاموندو أيضاً إلى أوشفيتس. لقد كان والد ب. م. أكثر حظاً من أثرياء شارع مونسو.

باجنون، الذي كان بالمناسبة صديقاً لقاتلة والديها فيوليت نوزير، قام في جنح الظلام بتحرير والد ب. م من المعتقل. لقد كانوا جميعهم من العملاء، وزجوا بالكثير من الناس في المعتقلات دون مقابل، أو مقابل أشياء تافهة من مثل: كونياك رديء، ملابس داخلية، دواليب سيارات. حقاً كان ذلك زمناً ازدهر فيه كل شيء، ولقد كانت الفرصة سانحة لكسب المال بسرعة فائقة ولتسوية الأحقاد القديمة أيضاً. كان ممكناً للمرء أن يسوي حساباته الخاصة، بعد أن انتظرت العائلة أجيالاً متعاقبة لتحقيق ذلك. وفي نفس الوقت رقصت الذبابات التي تعيش ليوم واحد طرباً لثراء دام أربعاً وعشرين ساعة. لقد احترقت في البريق الغريب، قبل أن تعود ثانية إلى أرض الواقع ساقطة من السماء التي قذفت إلى أعاليها. البعض منهم انكسرت رقبته بسبب سقوطه، بفعل الثمالة من على درج لا درابزين له».

الأسماء القليلة التي ذكرها لم تكن سوى بقٍ، من زمن اكتظت فيه

جعْلان البطاطس الألمانية. كان عليّ ألا أعتقد، بأن ب. م عرف ذلك من والده. كان قد عمَّ في أوروبا نوع من واجب الكتمان. وهو ما تحوّل إلى لغة مُلزمة بشكل عام لكل أبناء ذلك الجيل. وكأنني كنت أظن، أنّه سمع من أبويه كلمة أخيرة قبل الوفاة فقط إلى أي حد يمكن أن يكون الأمريكي ساذجاً، سأل ساخراً، لكي يعتقد بأن الأبوين يذكرون الحقيقة عن الأحداث؟ ولكوني كنت أريد معرفة المزيد منه، تجاهلت غطرسته، وفي مجرى الحديث عن الحي الغامض اندثرت بشكل تام فيوليت نوزير، التي تم ذكرها عرضياً. ولأنني لاأعرفها علمت لاحقاً أنها كانت بمثابة قديسة وطنية فرنسية، لم أعرها أيّ اهتمام. لماذا كان علي أن اهتمّ بامرأة قتلتْ أبويها وبالدوافع التي حركتها؟

كنت أريد أن أعرف شيئاً عما كانت تحويه ملاحظات برلنسامت. شارع لاوريستون، الذي يمتد من شارع ريمون بوينكير باتجاه إتويل، لم يكن يضم في ثناياه عصابة «المفتش» بوني وبيير لافونت فقط. بل كان فيه أيضاً مستودعات المسروقات، وأقبية التعذيب. بدا وكأن كلّ أشكال الفظاعة، التي يمكن أن تتصورها العواطف البشرية، توحّدت مع بوني ولافونت ، بل أكثر من ذلك.

دوراس تحدث عن مثل هذه الفظائع المفجعة، لدرجة أنني لم أعد قادراً على التفرقة، فيما إذا كان يبالغ في هذه القصص إلى حد كبير، أو أنه كان يعكس الحقيقة. ولافونت حصل على الجنسية الألمانية، وصار لاحقاً قائداً لكتيبة هجوم في قوات فرق الهجوم النازية SS في شمال إفريقيا، غير أن صلاحيته كجندي، كانت أقل بكثير منها كجلاد. أما بوني فقد أُجبر على ترك خدمته في الشرطة قبل الاحتلال الألماني بوقت طويل، بسبب تورطه في الرشوة. هذا الشخص، كما قال دوراس، كان

حيواناً نتناً، دمّل طاعون متقيح، نثرت محتوياته في كل أنحاء المنطقة. لكن في شارع لاريستون كانت تسكن كائنات أخرى، أناس انتحلوا قبل الحرب أسماءً غير صحيحة، مثل الكونته سِكِندورف على سبيل المثال، أو البارون فون كِرمانور. وكان الاثنان مشهورين بحفلات البذخ، حفلات السكر والتعذيب. أولئك المعذَّبون كانوا يملكون في السابق الطوابق العليا. هنا أفرغ الأرستقراطيون المزيفون زجاجات النبيذ الممتاز، التي كانت مخزنة في الأقبية، التي كان بوني ولافونت يعذبون فيها المسلوبين، وكأن هذا لم يكن كافياً. ولم يقتصر نفوذ العصابة ومن كان يقف وراءها على شارع لاوريستون، بل امتدت العدوى لتشمل كل منطقة الحي السادس عشر. وبدأت رائحة البُراز والدم الجاف تنتشر في باسي الهادئة.

«ماذا تظن، ما الذي حصل للبلدات بعد أن اعتقل سكانها ونهبت بيوتها؟ لم تبق شقة فاخرة، أو قصر في هذه المنطقة، إلا ودخله النازيون وبالوا على سجاده».

جورج دوراس تكلم حول كل ذلك، وكأنه عاش ذلك الوقت. أحياناً كان يبرز في نبرات حديثه تنويه لاتهام، لم يكن واضحاً، فيما إذا كان يقصدني. ربما كانت هذه النبرة ببساطة جزءاً من الخطاب، وربما يكون دوراس قد استغرب، أنني لا أعرف أي شيء عن ذلك، لكن ما الذي كان يعرفه هو عني، أنا الأمريكي في باريس؟ ردّ فعله الأول أثبت أنه لا يستطيع أن يجرحني البتة. أمّا ما يخصّني، فقد نبش عنه في القوالب فقط. عندما انتهى من حديثه وبعد أن تولّد عندي الانطباع، بأنني حصلت على ما يكفي من المعلومات، جاء دوري، فطرحت عليه سؤالاً مباشراً وقحاً، كانت روزي ستضربني على فمي بسببه، كان هذا

جوابي على العنجهية الفرنسية.

«شكراً جزيلاً، الآن أصبحت أفهم الوضع بصورة أفضل. لي صديق هنا في برلين، كان جدّه يسكن إبان الاحتلال في باريس، في الحي السادس عشر. صديقي كان قد ورث عنه مجموعة فنية غاية في الروعة. لا أجرؤ على طرح أسئلة تتعلق بأصل أو منشأ قطع معينة منها. على فكرة، هل صحيح ما يتهامسه الناس، بأن عائلتك كانت متورطة في عمليات تهريب الفن؟».

ضحك دوراس مجدداً، ولكن بصورة غير مسموعة هذه المرة.

«يمكن للمرء أن يخمن، أنك تكتب كتاباً، فأنت تفهم وبصورة مباشرة كيف تطرح الأسئلة التي لا يريد أحد أن يجيب عليها. المشكلة، يا عزيزي، كنت قد أشرت لها، فالعائلات لا تعطي أية معلومات. المعلومات الغريبة لا يمكن للمرء أن يثق بها، ومصالح الآخرين، إذا كنت تفهم ما أعنيه، يمكن للمرء أيضاً أن يسمّيها دعاية. الهجوم هو خير وسيلة للدفاع. في الواقع تمنيت، أن يكون لي معرفة أكثر منك. لكنني أنطلق من أن تكون عائلتي متورطة في شيء ما. أنا أيضاً لدي بعض اللوحات المعلقة على الحائط، التي لم أشترها شخصياً. أمي تربطها قرابة مباشرة مع البارونة العانس لافل *Lavalle* ووالدي كان يتناول طعام العشاء بكل سرور في الفترة الواقعة ما بين 41/4/20 و44/3/14 في مكسيم. لذا فإنه من غير المستحيل، أن تكون عائلتي متورطة بشكل أو بآخر. ربما كانت مُولَعة في توريط نفسها، وهذا النوع من الأخلاق، الذي تنتظره مني، كان يمكن الحصول عليه بثمن بخس، بعد تحرير باريس. لكنني لا أستطيع أن أتذكر أن أحداً من عائلتي كان متحمساً لأي سلعة رخيصة. المسار المحدد للخيوط المنفردة سيبقى في الظلام،

تماما مثل الأماكن التي وَجدتْ فيها الكثير من الصور المهربة مكاناً لها. والداي على الأقل احتفظا بالصور بمعرفتهما في مكان آمن. مقبرة عائلتنا موجودة في باسي، قريبة جداً من تلك الشوارع التي تحدثنا عنها قبل قليل. إنها واحدة من أجمل مقابر باريس. من هناك يحصل الإنسان على منظر رائع للمدينة. لم يجر عليه أيّ تغيير منذ ذلك الوقت. واحد من الأماكن النادرة التي لم ينهبها النازيون بالرغم من أنه موجود في الحي السادس عشر.

السابع

«سيدي، ما الذي تفعله هنا؟ الدخان يصل إلى الأعلى، نعم، حتى الطابق الثالث! هل تريد لنا أن نختنق بالدخان؟».

وقفت السيدة أويجني أمامي وهي ترتدي قميص النوم. إنها تبدو كشبح، إعلان من عصر آخر لا بد أن يكون ذا صفة بلجيكية. حقاً إنني لم أر إطلالة كهذه من قبل، فمن أعلى الرقبة الضخمة يطل فقط رأسها المكسو بشعرها المجعد، وغير المرتب، وقامتها الضخمة التي يصعب التنبؤ بحجمها الفعلي، كانت مَخفيّة تحت كمية كبيرة من القماش الأبيض بطياته المموجة، ومن دون انتظار أيّ توضيح، كانت تعبث بأشياء ما إلى جانب الموقد. سحبت شيئاً من الحائط، يشبه المدق، سعلت وكأنها أصيبت بتسمم، وهي تحاول إبعاد الدخان المتصاعد عن نفسها، ثم توجهت إلى باب الحديقة وفتحته. تسرب برد الليل إلى الداخل، وانسحب الدخان كأفواج إلى الخارج. ففي ذلك المساء الذي دخل بانسياب إلى الليل دونما فاصل، كنت أتعلم طريقة تشغيل موقد بلجيكي فالمواقد الأوربية لها فتحات للهواء يجب فتحها، كي تسحب المدخنة الدخان إلى الأعلى بصورة صحيحة.

«تلك الليلة كادت أن تكون آخر ليلة في حياتنا! من الواضح أنك قليل الخبرة في تشغيل المواقد. إذا حرقت الكثير من الورق، فعليك أن توسّع الفتحة، فالورق يسبب الكثير من الدخان».

عرضت علي كأساً من شاي الأعشاب، قالت إنه سيجعلني أنام بشكل جيد ونصحتني بضرورة النوم. ولكني بدلاً من ذلك، خرجت إلى الحديقة. كانت رائحة الهواء رطبةً، فالأشجار اتشحتْ بالسواد

بفعل زرقة السماء الداكنة، فالمرء لا يرى المدينة، بل يتخيل وجودها. خلعت حذائي وصرت أخوض عبر العشب المبتل. لقد كنت محظوظاً جداً لحصولي على هذا البيت. في وسط المدينة، أصوات الريف، زقزقة العصافير، حفيف أوراق الشجر. لم أستطع استيعاب هذا الجو المسالم فعندما وقفت في أسفل الهضبة، ونظرت إلى البيوت المدنية البلجيكية الطراز على يمين وعلى يسار الشارع الذي يسير إلى قمتها شعرت بالارتياح. لكنّ الشعور بالارتياح، والتلذذ بالهروب من برلين والتاريخ المظلم لم يدم إلا قليلاً. فمنذ أن تعرفت على برلنسامت يتملكني الانطباع الملعون بأن خلف كل شيء يختبئ شيء آخر.

كيف قيّمت دافيد بعد لقائنا الأول؟ الذكريات تخدع، ولا يمكن حينها الاعتماد عليها، خاصة إذا توجّب عليها أن تواجه الحاضر. الآن أصبحت لا أستطيع تحمل أن يكون دافيد قريباً مني، ولكن قبل عام كان الأمر مختلفاً، كانت تناقضاته تبهرني. وحدها شقة برلنسامت! لقد اكتشف إلى جانب اللوحات الثمينة والسجاد، وبشكل مضطرد، الكثير من الأشياء الرخيصة، أشياء مقلّدة لا روح فيها أو نسخ؛ كالزهرية من عهد أسرة مينج، وثريا مصنوعة من زجاج مورانو المزيّف، وكانت هناك أرائك منجّدة وملبّسة بقماش بوليستر مطبوع كتقليد لقصب الحرير. الشيء الأكثر غرابة كانت المطبوعات: دالي، ماتيس، شاجال! أعيد إنتاجها آلاف المرات، ورق سيئ الطباعة، في بيت يحتوي على مثل هذه المجموعة الفنية! تحدثت مع دافيد حول هذا الموضوع، فأجاب:

«ربما كانت هدية من إحدى أخوات أمي، فأمي لم تكن تردّ هدية من أخواتها. لقد كن يحببن بعضهن كثيراً، كما كن يتبادلن الزيارات في أغلب الأحيان. إحداهن، إليزا متزوجة من دبلوماسي. وهما يقيمان

الآن في جوهانسبرج، والأخرى تعيش بالقرب من ميونيخ.

في زيارتي التالية كانت المطبوعات قد اختفت. هز دافيد كتفيه عندما نبّهته إلى الأشياء المقلدة للقطع الفنية التاريخية، قائلاً:

«ألا يحصل هذا في أحسن العائلات؟ هل تعلم، أمي كانت ساذجة في هذا المجال. كما كانت مرحة، واقعية وصريحة، وعندما كانت ترى تقليداً لزهرية مينج، ولم يكن بالإمكان حينها الحصول على الأصل، كانت تشتري المقلدة. ووالدي الذي كان أكثر حساسية لم يكن قادراً على أن يرفض أمنية لأمي. ربما كان يزعجه هذا الخليط من الأصلي والمزوّر، غير أنه كان يحب زوجته أكثر من الذوق النقي».

عندما زرته مجدداً كانت زهرية مينج قد اختفت. فتوقفت منذ تلك اللحظة عن طرح الأسئلة. وبدلاً من تعذيب دافيد بذوق والديه، ذهبت معه إلى المتحف، ثم خطرت بباله فكرة بدت لي في البداية مزعجة. كان يرغب في أن أذهب معه للتسوق لشراء أحذية وملابس وأشياء أخرى. شعرت بأنّ ذلك من طبيعة النساء، ولم يكن هذا ليخطر ببالي، فأنا أقوم بهذا دائماً وحدي. لكن دافيد أصّر على ذلك، ولهذا وافقت في نهاية الأمر كي أحقق له السعادة. وكما هو الحال في كل شيء يفعله المرء مع دافيد، كانت أوقات العصر لتلك الأيام عبارة عن مسرحيات من نوع خاص حيث كان «لدافيد» ذوق غريب الأطوار إلى درجة المبالغة. وفي أغلب المرّات صارت عمليات التسوق هذه في قطاع أزياء المدينة الناشئ حديثاً تشبه المطاردة وراء أفضل العروض، وكما بدا لي أحياناً، فإنها كانت غالباً ما تكون تحت الأرض أكثر من فوقها، ومن خلال ذلك أَثْبَتَ لي أن له معرفة جيدة بالأقمشة والألوان، وأنه كان يعير أهمية بالغة للجودة، على العكس تماماً لما في بيت والديه من أغراض مقلدة.

أما أنا فأميل للألبسة المحافظة، مثل: قمصان مقلمة بالأبيض والأزرق، ربطة عنق مقلمة، بنطلونات صوف رمادية، سترات، حذاء بإبزيم؛ بنطال بني اللون بعد انتهاء العمل في المكتب. دافيد كان يختلف عني تماماً، فهو لعوب، ومظهره الجيد ساعده على ذلك. وفي الحقيقة فإنه كان أنيقاً حتى لو ارتدى أي خرقة. وبعد أن ذهبنا سوية عدة مرات للتسوق، أصبح الأمر يروق لي إلى حد كبير، فالإحساس الغريب الذي ساد في بداية رحلاتنا قد زال. كان دافيد يضحك، يمزح ويتفوق على البائعات بمرحه الجسور. كنا نغادر المتاجر بزهو المنتصر، حاملين الأكياس، مخلفين وراءنا أرضاً محروثة بشكلٍ لم تكن فيه مزرعة دواجن كاملة قادرة على أن تنبشه بهذه الطريقة. أما اليوم فلا أستطيع استيعاب ذلك. هل كان أمراً محرجاً؟ كلا، ليس هذا. ربما كان غريباً، مجوناً وأكثر من ذلك. كنا فرحين مرحين، ولا نفكر إلا بأنفسنا فقط. كأننا واقعين تحت تأثير المخدرات.

وبعد ذلك، في صباح يوم سبت، واجهتنا حادثة غريبة في متجر دافيد المحبب، في شارع فريدريك. كنا قد مررنا على عدد من أجنحة الملابس للعديد من مصممي الأزياء، وعثرنا على بعض القطع، وبدأنا البحث عن مقصورة للقياس. لقد تهنا في الممرات خلف صالات البيع في المتجر إلى أن وصلنا فجأة أمام باب مفتوح لنصفه، ينبعث ضوء آت من خلاله. اعتقدت حقاً أننا وجدنا أخيراً مقصورة لقياس الملابس. بعد ذلك، وعند فتح الباب رأيت فيها رجلين، كان هذان الرجلان واقفين فيها. وكانت الأطراف العليا من جسديهما عارية، أحدهما كان يدير ظهره نحونا، الاثنان بنفس الطول، وكانا متعانقين ويقبلان بعضهما. أنا كنت مَنْ فتح الباب، ولكنني أصبت بالذهول، لدرجة أنني نسيت

أن أعتذر. أما الرجلان فقد توقفا عن عناق بعضهما. وفي هذه اللحظة التي نظرا فيها حولهما، شعرت بيد دافيد على ظهري. كانت أنفاسه تخفق على رقبتي قبل أن يتكلم.

«المعذرة، كنا نبحث عن مقصورة فارغة».

ثم وضع يده الثانية على يدي، التي كانت ما تزال على المقبض، وأغلق الباب.

وقفنا هناك دون حِراك، بالكاد تمكنت من بلع ريقي. اعتقدتُ بأنه يجب عليَّ أن أتحرّك، أن اذهبَ، أن أمشي، أن أقول أي شيء، يا إلهي، لقد كان موقفاً سخيفاً! لكّنني لم أقوَ على الحراك. نظر دافيد إليّ متفحصاً؟ مسروراً؟

«لقد فاجأناهم» همس مبتسماً.

لم أجب، فرأسي كان فارغاً، غير قادر على التفكير، وكأنني غادرت هذا الزمن. صدغاي كانا يدقان بقوة، هنا أحسست بيده على مؤخرة رأسي، قبضة شديدة. هذه اليد، التي كان دائماً يرد بها شعره إلى الخلف، شدّتني إليه، أمام وجهه. لم أقاوم بل تركت ذلك يحدث، انتظرت ما الذي سيحدث بعد ذلك، في الوقت الذي كان فيه صدغاي ما زالا يخفقان، محبوس الأنفاس.

«مارتين، ما الذي جرى لك؟ نحن بحاجة إلى مقصورة لكي نقيس هذه الأغراض».

استدار، وطرق باب مقصورة أخرى، وعندما لم يُجِبْ أحد، فتح بابها، وأشار لي آمراً بحركة من رأسه.

«هل تأتي الآن؟ أم أن علينا أن نعيد الأغراض بكل بساطة إلى أماكنها؟» اتّسَعت بسمته، غمز بإحدى عينيه؟ حلقي كان جافاً، وأظن

أن قميصي كان مبتلاً، من شدة العرق، ثم سمعت دافيد وهو يثرثر في المقصورة. لقد جرّب القمصان، وبنطلون جينز وكنزة، وطلب مني أن أبدي رأيي، وفي الختام خرج من المقصورة.

«هل أنت في حالة سيئة؟ تبدو شاحب الوجه. ثم أضاف: سأشتري هذين القميصين، بعدها يجب علي أن آكل شيئاً، ألست جائعاً؟».

ذهبنا إلى مطعم صغير قريب. ديفيد كان يعرف مدير الاستقبال، فتحدث معه وقدّمني إليه بهذه الصورة «هذا *صديقي مارتين ساوندرز*»، ثم حصلنا على طاولة في وسط المطعم، على الرغم من أننا لم نحجز مسبقاً، وعندما جلسنا نظر لي مبتهجاً.

«يا له من عصر يوم رائع. فقط بنطال الجينز لم يأت على المقاس، لذا يجب علينا أن نذهب السبت القادم إلى هناك مرة أخرى، أو هل لديك وقت قبل السبت؟ أنا أجد..».

كان لديّ انطباع أن كل الذي حدث قبل وقت قصير، لم يكن إلا ضرباً من الخيال. وبعد أن انتهى الحديث عن الثياب، تحدث دافيد عن دراسته للتمثيل، عن زملائه الذين درس معهم، وعن المسرحيات والأدوار المحببة إليه. وفقط عندما دار الحديث عن نيويورك، نجحت في أن أعطي هذه الملاحظة، أو تلك عن المدينة التي أتيت منها. أما القصة الطويلة للوحة كوربيت، الصورة التي كانت «البداية»، فلم يحدثني دافيد عنها هذه المرة أيضاً.

عندما عدت -في وقت متأخر من المساء إلى البيت- كنت أشعر بالإرهاق، وكأنني قد قطعت كيلومترات طويلة مشياً على الأقدام. اليوم كان قد انقضى مثل مهزلة، ولم أتمكن من تفسير ارتباكي. لا أستطيع أن أتذكر بأن إنساناً آخر قد فجّر عندي مثل هذه الانفعالات القوية- لا

قبل معرفتي بـ «دافيد» ولا بعدها.

لقد كان لطيفا ومؤدباً تجاه النساء، وأحياناً كان جذاباً إلى حد كبير. كان يقدم المجاملات لـ« هنرييت» عندما يأتي في زيارة خاطفة إلى الشركة. أمّا منى فكان يجلب لها الورود، وكان بمقدرته أن يتقرب إلى النساء لو شاء. لكن من الغريب أن هذا الأمر لم يكن يثيره على الإطلاق. ورغم أدبه، فقد بدا وكأنه لا يجذب النساء، حتى أنه لم يُعجب مُنى، ولو لم يكن هذا الخلاف بيننا حول برلنسامت لما كان عندي أي تفسير الآن لموقفي السابق منه. ثم سألتني منى:

«ما الذي يعجبك فيه؟».

رفضت أن أجيب على هذا السؤال، وعلى أية حال ليس أمامها، وبصوت عال. أثناء الدراسة كنت أخرج أحياناً مع بعض الزملاء لشرب أي شيء. بالطبع وصفتهم بالأصدقاء، لكن أغلب أوقات عمري قضيتها وحيداً. فالرجال في هذا المجال مختلفون عن النساء، فهم ليسوا بحاجة إلى هذا النقيق الدائم، وحشر الأنف في كل مكان والثرثرة.... لم أفكر مطلقاً بوحدتي. ولم أفتقد شيئاً على الإطلاق. دافيد هو الذي جعلني أفكر بأنه بالإمكان عمل شيء بالاشتراك مع الآخرين. لقد بدا وكأنه مغرم بهذا إلى حد الهوس، لكن دافيد كان سريعاً ومهووساً بأشياء كثيرة. كانت طاقته هائلة لا نهاية لها وجرّني معه. من المحتمل أنني اعتبرته صديقاً في ذلك الوقت، خاصة وأنني كنت أشعر بعدم الارتياح لطريقة مُنى في التهجم عليه، لكنني لم أدافع عنه.

«إنه شديد القلق، مُفرط في المغالاة، وبالرغم من ذلك كان لديه شيء مخيف، وكأنه سرق ظلّ شخص آخر. هناك شيء غير طبيعي في هذا الشخص، ربما كان هذا هو سبب ركضك وراءه، إنه شخص غامض.

وبالنسبة لمحبّة مارتين ساوندرز للأسرار فقد كان ذلك تحدياً حقيقياً. احذر، كي لا تحرق جناحيك به».

في ذلك الوقت كنت أعمل مع منى بتوافق جيد، ولم نتفادَ بعضنا حتى ذلك الحين. عدا عن ذلك لم أكن اهتم بالألفة، وعندما كنت أشعر بأنني أكاد أن أجذب امرأة، كنت أحاول تهدئة الموقف. ربما كنت أكن المودة لمنى، لأنها لم تفكر أبداً في أن تتدخل في حياتي الخاصة. فقد كنا في أغلب الأحيان نتمتع بمزاج جيد، بغض النظر عن نوبات متباعدة تعكّر مزاجي، كانت تأتي بين الحين والآخر، ربما بسبب مشكلة الأيض، التي كان علي فحصها بين حين وحين. مُنى وأنا كنا متشابهين فيما نحب وفيما نكره. أما دافيد فقد كان الاستثناء.

انتهى الصيف، وقد تناسيت عمداً متابعة موضوع كوربيت، لأن هذا كان شأناً من اختصاص مُنى. لقد حدثتها عن الصورة التي بحوزة دافيد وعن الوضع الغريب، بأنه في برلين وحدها كان هناك أكثر من صورة مشابهة، غير أن البحث عن صلات مشتركة بينها، كانت مهمة مُنى، أما أنا فكنت منشغلاً بمجوهراتي.

على طاولة مكتبي، كانت تتكوم الأشياء المعتادة: رسائل إلكترونية مطبوعة، صور مجوهرات معروضة للبيع، كتب مفتوحة، وبينها ملاحظة من منى: *سأذهب بعد موعد عمل خارجي مع أ. إلى بار فيكتوريا. إلى اللقاء غداً*، م.

بعد أن جمعت مسودة الكتالوج القادم، بدأت بقراءة الرسائل الإلكترونية التي وصلت بعد الظهر. في تلك اللحظة، التي رنّ فيها الجرس، فُتح الباب وكانت منى واقفة في إطاره.

«هل من جديد؟».

«ألستِ مع أ. في بار فيكتوريا؟».

«... كان قد سافر، عاد إلى شيكاغو».

«ربما لم تحسني معاملته. الرجال هم أيضاً حيوانات ثديية».

«وتقول هذا بهذه البساطة. أنا لم أرَ مطلقاً رجلاً ينجب شاباً حياً في هذا العالم. على فكرة كانت امرأة».

«على الأقل لهم وجوه. منذ متى تقيمين علاقات حب مع النساء؟ كنت أظن، أنك تريدين الزواج وإنجاب الأطفال».

«أنا لا أمارس الحب مع أحد، أنا أبحث فقط عن صلات اجتماعية مثيرة، وعندما أصل إلى الحد الكافي، سأقوم بتحضير نفسي لفحص دخولي إلى دير الراهبات، فأنا أجد أن مجرد التفكير بالزواج يثير القرف. إنها ليست طبيعية».

«عفواً؟».

«قلت إنها ليست عادية».

«نعم، لقد فهمت هذا، ولكن..».

«اقبل بهذا. سألتك، هل من جديد؟».

لم أحدث مُنى عن تفاصيل لقاءاتي مع دافيد. أما هي فلم تضعني بصورة المستجدات حول تحرياتها فيما يخص كوربيت، غير أنني ظننت أنها قد أنجزتها منذ زمن. والآن تبين لي أنها أهملت كل شيء.

«وصلني جواب من CP ، أنت تعرفه- المراقب في نيويورك».

«أما زالت منشغلة «بكوربيت»؟ هل ذهبتِ أخيراً إلى الزبون؟».

« CP يؤكد ما وجدته في فهرس الأعمال الفنية لمعرض كوربيت الأخير».

وحسب CP كان هناك سبعة إصدارات للصورة. كلها حملت

العنوانين: *الموجة، والبحر الهائج*. واحدة منها معلقة في باريس، في المعرض الدائم على رصيف أورسي، اثنتان محفوظتان هناك في المستودع. واحدة منها ذات تغيير طفيف في المقطع، وبحجم مختلف، كانت ملكاً لمعهد المدينة للفنون في فرانكفورت على نهر الماين دون بيانات عن المصدر أو تاريخ الشراء، نسخة خامسة كانت مسجلة في معرض فني خاص في شيكاغو، وأخرى في زيوريخ. كلا المالكين الأخيرين لم يرغبا في ذكر أسمائهما، وأخيراً كان هناك نسخة من الصورة، كانت ضمن مجموعة فنية، توجد في الأصل في باريس، غير أنها وبعد الحرب العالمية الثانية ذهبت أدراج الرياح. هذه النسخة للموجة بقيت مفقودة إلى الآن.

«ولكن لماذا يفترض أن تكون صورتنا «البحر» من ضمن هذه المجموعة؟ من قال لك إنه لا وجود لإصدارات أخرى؟».

«لا أحد. هذه هي المشكلة. العمل الذي نقوم به الآن، هو عبارة عن نظام استثنائي. لا أكثر ولا أقل».

قالت *صورتنا*، وكأن كوربيت شأن مشترك بيننا. للوهلة الأولى لابد أن يظن المستمع بأنها تتحدث عن عائلتها. فقد عرفت من هنريت أن مُنى تحب عائلتها أكثر من أي شيء، حيث اعتنت بتعليم أشقائها الخمسة الأصغر منها، وكانت ترسل لهم المال باستمرار. مُنى كانت أحياناً كثيرة المطالب، لكن هذا لم يكن أكثر من تمثيل، فهي في الواقع لم تكن تخشى الاختلاط، كما أنها لم تصف نفسها بأنها مهمة، وكانت بعيدة كلّ البعد عن ذلك النوع من النساء اللواتي كن يُشبهن أنفسهن بالأميرات. تصرفاتها الطائشة كانت على ما أعتقد، لصرف النظر عن قناعاتها الثابتة، ليس إلا.

«أعتقد أن عليكِ أن تفحصي النسخة الأصلية، لكي ننهي الموضوع، وإذا كان هناك ثمة عدم وضوح، فسنرى ما يجب علينا عمله».

بدا وكأن اقتراحي لم يكن مقنعاً لها، فرأسها تحرك إلى جنب، كما تفعل بعض الطيور التي تشعر فجأة بأنها مراقبة. سألت نفسي عن السبب الذي يجعلها ترفض هذه المهمة، وطرحت عليها السؤال مباشرة مرة أخرى. لم تكن مني عاجزة، وعلى كل حال كانت متأثرة ومنزعجة، ولكنها كانت تكره هذا الموضوع الذي يغمّ على قلبها. تلك هي الصورة العكسية لأخلاقها الألمانية، حيث كان على الطفل المسكين أن يكدّ في العمل، لكي يكون جيداً. كان يلاحظ عليها بوضوح أنها بذلت جهداً كبيراً– على عكسي أنا. لقد حبست في داخلها أشياء حاولت أن تصعد إلى السطح. منظرها وهي واقفة هنا بكنزة ناعمة دون أكمام، وبنطال المخمل– نحيلة وناعمة إلى الحد الذي ترتسم فيه عظمات خاصرتيها على المخمل الناعم كهضبتين صغيرتين في منظر طبيعي–، تجعل المرء يعتقد بأنه لو دخلت ريح من الشارع عبر النافذة لحملتها معها في ذات الوقت.

«أنا لا أطيق هذا المتكبر برلنسامت. أنا لا استوعب أن تكون أعمى إلى هذا الحد».

«ما علاقة دافيد بهذا الموضوع؟».

«ألا تعتقد أنه هو الذي يعرض لوحة كوربيت للبيع، وهو الذي يقف خلف السمسار؟».

«ليس لدي أية فكرة، ولم أسأله عن الموضوع، فهذا واجبك. أنا حدثتك فقط عمّا رأيت، لأنني ظننت أن هذه التطورات تعنيك. ماذا كان موضوع القرابة المختارة؟ المجرمون يصبحون يهوداً...ساعديني

أنا لا أستطيع تجميعها وحدي».

لم تُجب.

«ما بك؟ هل فقدتِ القدرة على الكلام؟».

«أنتْ– أنتَ الذي تغيرت تماماً منذ أن تعرفت على هذا ال«برلنسامت»».

فجأة اغرورقت عيناها بالدموع، واستدارت نحو الحمام. وبعد عدة دقائق عادت إلى هنا من جديد، بدون دموع. وكانت لا تزال صامتة.

«حسناً، دعينا نبدل مهماتنا، على سبيل الاستثناء، وليس بالضرورة أن تحس هنريت بالأمر. أنت تعتنين بأمر مجوهراتي في فيينا، وألبرتينا، وبإمكانك أن تثرثري مع صديقتك هاتي فون بابسبورج، وأنا أعتني بموضوع كوربيت. هل لديك أسماء وعناوين؟».

هزت رأسها بالإيجاب. «اسم وعنوان الوسيط، وكما قلت فإنّ البائع لا يريد أن يُذكرَ اسمه».

«فيما يخص كوربيت يبدو لي عموماً، أنه لا يوجد أحدٌ يرغب أن يذكر اسمه، لذا علينا أن نعطي هؤلاء الناس أرقاماً كما يفعل السويسريون بأرصدتهم».

وضعت منى البيانات أمامي وعادت للجلوس.

«هاريت ليست صديقتي، صديقتي هي ابنة عم هنريت»، قالت ذلك بصوت هامس.

«كان علي أن ألاحظ ذلك ما دام لهما أنفان متشابهان، نفس الحقائب اليدوية، وإلى حد كبير أسماء متشابهة».

«على كل حال، شكراً يا مارتيني. في بعض الأحيان ينتابني العجز،

شكراً على مراعاتك لذلك».

لم أعلم شيئاً عمّا انتابها، وعوضاً عن ذلك انهمكت بدراسة إعطاء الأسماء عند العائلات، وكأن الأمر يتعلق بوشاح رمزي للعشيرة. «بسبب اسم العائلة كلها تبدأ في عائلة هنريت بحرف ه، وعلى أية حال في هذا الجيل. نحن أسماؤنا بدون نظام.» فسّرت ذلك وكأنّ عائلتها، عائلة مناجم الفحم المؤلفة من حفاري ومفتشي مناجم الفحم، لا تستطيع المنافسة مع المنزل الحاكم في ذلك الزمن (الهاء H) بالأخص بسبب خربطة الحروف الأولية للأسماء، كانت تنظر بتعقل إلى العالم من حولها الذي أقف أنا فيه في الصف الأول، مكان خاطئ في هذه النظرة الحالمة.

«كان من الممكن أن تكون فكرة جيدة أن نجعل أسماءنا تبدأ بحرف الكاف».

تركت الأمر يقف عند السر الكامن وراء حرف الكاف الساحر. «ألا تريدين أن تذهبي إلى البيت؟ لقد تجاوزت الثامنة، ماذا تريدين أن تفعلي هنا؟».

«أريد أن أسالك إذا كنت تريد الذهاب معي لتناول العشاء».

«علي أن أجري مكالمات هاتفية مختلفة»، قلت ورفعت السماعة. شعرتُ حينها وكأن كرة وقفت في حلقي. اللعنة، لماذا تريد أن تذهب معي لتناول الطعام؟ لم نفعل هذا من قبل.

«هل هناك شيء؟»

«أنا متعبة أشعر بالبرد، وأرغب بخليل يرافقني».

«إنه الصيف الهندي! وأي صيف! قبل أيام قليلة سادت حرارة حارقة. فكيف يمكن للمرء أن يشعر بالبرد؟».

«لم آخذ إجازة منذ وقت طويل. وكان علي أن أضحك كثيراً»، أجابت وحاولت أن تبتسم.

«استريحي. اذهبي الآن. لا، لا، اعذرني يا سيد فون آرنولد، كنت أتكلم مع زميلتي. رن جرس الهاتف طويلاً... ساوندرز على الخط، مارتين ساوندرز، فرع برلين لشركة نوبل نيويورك *Nobble NYC*. مساء الخير. عرضت علينا كوربيت، *الموجة*، نعم، أرغب في رؤية الصورة. هل هناك تقرير خاص بها؟ هذا جيد. غداً بعد الظهر. شكراً».

منى كانت لا تزال واقفة عند الباب. «وماذا عن الصورة التي رأيتها قبل وقت قصير عند هذا ال «برلنسامت»؟».

«ما شأننا نحن بهذه الصورة، ما دامت معلقة في تلك الشقة؟ ربما كان كوربيت مجنوناً بشاطئ اترِتات *Étretat* [1]، أو ربما أن المنظر قد نفق مثل الخبز الساخن. أنت بالتأكيد سمعت بأنني سوف أنظر إلى العرض غداً، بعد ذلك آمل أن يكون الموضوع قد اتضح، فأنتِ في العادة سريعة في أبحاثك».

ثم حملت حقيبتها، ولفت شالاً من الحرير على عنقها، وكأنها تريد أن تعقد اتفاقاً نهائياً.

«أنت..».

«نعم، ماذا؟».

كانت ما تزال تبدو ضعيفة وجريحة. شعرها الأحمر الذي كان يبدو داكن اللون، بدا فاتحاً على غير العادة، غادرت دون أن تلتفت إلى الخلف مرة أخرى.

---

(1) مدينة ساحلية فرنسية صغيرة ومنتجع بحري على بحر المانش في نورماندي.

وجدتُ نفسي متلبساً بتقييم دافيد، بحثت عن أوجه تشابه ممكنة مع شخص ما كان يعمل في باريس مع النازيين، وذي رتبة عالية وكان له دور في الفن. من هذا الذي كان جد دافيد؟ (*يعمل مع الحكومة*) إنه تعبير مطاطي. وفيما يتعلق بالمظهر الخارجي، فلا وجود لأي دلالات لمعالم تشير إلى ذلك في وجه دافيد، فوجهه كان «ألمانياً» مثل وجه ماريا كالاس[1]، ومن ناحية أخرى، لم أكن أعرف البتة، كيف يكون المظهر الخارجي الألماني. البعض عندنا في الوطن يتصورونه شخصاً يرتدي بنطالاً من الجلد، وينهش فخذ خنزير. لقد كان للنازيين نظرة مختلفة تماماً لهذا الأمر. ربما كان والد دافيد يتطابق مع ما كانوا يتصورونه، وعلى أية حال كان هكذا قبل الجريمة، وقبل أن ينطوي على نفسه. لكن هذا لم يساعدني على التقدم، فوالدة دافيد؟ كانت امرأة بشعر أسود، وعلى الأرجح إسبانية المظهر. الصور التي عرضتها الصحف، تظهر أنها كانت خالصة الجمال، لكن دافيد لم يكن يشبهها رغم شعره الأسود وعيونه الغامقة. وإذا كان دافيد يشبه أحداً ما، فأنا أعتقد، أنه كان يشبه الرسام بالتوس[2].

تبع تلك الفترة وقت، كثرت فيه لقاءاتنا. ومشكلة الأيض التي عانيت منها في السابق، زالت من تلقاء نفسها. أصبحت أحس أن الظل الذي كان يضغط علي بعض الأحيان، قد ذهب أدراج الرياح، وكنت

(1) ماريا كالاس 1923–1977: مغنية أوبرا يونانية الأصل ولدت بنيويورك وتوفيت في باريس.

(2) اسمه الصحيح بلتزار كوسوفسكي دير ولا 1908–2001: رسام بولندي– فرنسي ولد في باريس ومات في سويسرا.

ممتناً لحدوث ذلك، لأن ذلك المزاج الغريب لم يكن يتوافق مع همة أمي القوية، ولا مع الأجواء العاطفية التي كان يبثها بوب في البيت. كما أن هذه الهالة الكئيبة لم تكن تتناسب مع المدينة التي كبرت فيها. لقد كنت أنا ودافيد مستمتعين بذلك، كان بالنا صافياً، أو ربما بسبب تلك الظروف التي تعرفنا فيها على بعضنا. على أية حال، فقد شارك دافيد جزئياً بعملي، كما كان لنا اهتمامات مشتركة، ولم تعد مهنة التمثيل، أو أي مهنة أخرى ذات أهمية في أحاديثنا، فقد كان مهتماً بالخصوصيات. وكان دائم الحضور ومعه خطط ومزاج رائق وأفكار ما. كما كانت جيوبه مليئة على الدوام. ولم يكن يحمل في جيوبه حبال أو فئران ميتة أو سكيناً. ولكنه كان على مثل تلك الحالة، عندما كان يأتي ليأخذني أو إذا كان ينتظرني على شرفة مقهى لشرب أول كأس من النبيذ.

«لدي تذكرتان للسينما المجاورة».

أو أنه كان يأتي ومعه دعوة لحضور افتتاح معرض صور، على بعد ثلاثة شوارع من هنا، بطاقات دخول لدار الأوبرا، أو لزيارة مطعم افتتح قبل عدة أيام. ما الذي كان يفعله خلال النهار؟ لم نتحدث عن ذلك، بل كنا نتحدث عن سرقة الفن، وعندما كان يدور الحديث عن هذا الموضوع، كان دافيد أكثر همة من أي وقت آخر. كانت سويسرا توفر أفضل الظروف للمالكين الجدد، والقانون السويسري يقول، إن حق المطالبة بالملكية يسقط، إذا لم يقدم طلب استرجاع خلال خمس سنوات. المالكون الشرعيون أو ورثتهم، الذين كانوا في غالب الأحيان، لا يعرفون أين توزعت أو اختفت أجزاء من مجموعاتهم الفنية، لم يكن لهم أي فرصة للمطالبة بها، ولهذا كان دافيد ينفعل وكأن الأمر يعنيه شخصياً. بؤبؤا عينيه كانا يتقلصان حتى يصبحا كقنوات غاية في الصغر

إلى درجة أن المرء لم يكن قادراً على التخمين إلى أين يجريان، ربما إلى زاوية ما من دماغه الذي كان يرسم مخططات معينة. كان من الممكن أن يكون دافيد محامياً جيداً، فهو الشخصية المثالية للمُرافع أمام المحاكم في القضايا الأنجلو-سكسونية، وكان يتحدث ببلاغة، وبدون شك بانفعال. وكثيراً ما كان يتولد لدي الانطباع، بأنني أعيش في برلين وسط النازيين، عندما كنت أسمعه وهو يتكلم.

«تصور أنك في معرض للفنون في زيوريخ، وفجأة تكتشف لوحة فنية من ممتلكات جدك، وتتعرف عليها على الفور، لكنك تبدو غير متأكد، لأنك لا تتصور، أن يكون هناك دولة بهذه الوقاحة، وتعرض علناً ما ليس ملكاً لها، فيساورك الشك بنفسك. لكن هناك مجموعة من الصور الفوتوغرافية من بيت جدك. ترى العمة آني تظهر في الصور، وجدك على البيانو، ووالدك يلعب في الواجهة بحصان خشبي، يرتدي بزة بحار، الرأس الصغير بدون شعر. وفي خلفية الصورة علقت على الجدار لوحة «لبيكاسو» بين مجموعة أخرى من الصور، هي التي تراها الآن أمام عينيك.

أنت تعتقد، أن هذا هو الدليل، بأن هذه اللوحة كانت ملكاً لعائلتك، التي لقيت حتفها في أوشفيتس. وعندما تتوجه للمفتش في المعرض، يقال لك: *أنا آسف يا سيدي، إن هذه الصورة معلقة هنا منذ عشرين عاماً. السيد فلان اشتراها بطريقة صحيحة من السيد علان. كان عليك أن تأتي للمطالبة بها في عام 1950، كحد أقصى- إضافة إلى ذلك فإن الصورة الفوتوغرافية ليست دليلاً قاطعاً على المنشأ*، وعندما تفسر له، بأن عائلتك قد نُهبت ممتلكاتها في عام 43، وفيما بعد تم نقلها إلى معسكرات الاعتقال، وأن الذين تمكنوا حينها وفي آخر لحظة من

الهجرة، كانوا مضطرين للنجاة بجلودهم، وأنهم لم يكونوا قادرين على الاهتمام بشأن بقاء الصور، ولا كان عندهم– في وسط الحرب وسيطرة النازيين– أي فرصة للمطالبة بحقوقهم، كان المفتش اللطيف والخبير الذي كان أصغر منك بعدة سنوات، يهز كتفيه ويتسلح بالقانون الوطني والظلم التاريخي».

«لكن هذا كان في سويسرا فقط، وليس في ألمانيا ولا في فرنسا».

«قد يكون من المحتمل، أن تكون مثل هذه الصور في معارض خاصة بألمانيا، ولا يمكن لعامة الجمهور رؤيتها، كما هو الحال عندنا. حقاً على المرء أن يجلدهم علانية».

«من؟».

عندما سمعت دافيد يتحدث بهذا الشكل لوهلة أتتني رؤية روحانية لرجل دين متحمس. رجل مُرسل يحمل هذا العالم الهش على سنارة. إنه يقول الحقيقة، الكل يصدقه. حركة مثيرة للانتباه تبدأ في النشوء، وتزداد حماساً بفعل ديناميكيتها الخاصة، وحماسة دافيد كانت جذابة ومرفوضة بعض الشيء في آن معاً. لقد كان حاد الطبع، يبالغ في النقد. أحياناً كان عندي انطباع، بأنه غائبٌ عن الوعي، وعندما كان يتحدث هكذا. كان يلوح بيديه بانفعال، فتتقلص عضلات وجهه. ويبدو صوته عميقاً وكأنه يغني. اقترح دافيد إطلاق حملة. من أجل الكشف عما تبقى من الفن المسروق، سواء في المعارض العامة أو الخاصة، وللبحث عن مصير بعض القطع الفنية، ومن الذي كان يملكها سابقاً، ومن هو المالك الشرعي لها.

«تصوَّر، لو كشفناها كلها. مساء الخير، يا سيدة الهراء، شكراً جزيلاً على هذه الدعوة، لكن يشرفني أن أصطحب ابنة أخيك إلى المائدة.

هل تجمعين الفن أيضاً؟ آه، هل ورثت هذه المجموعة الفنية من عمك؟ ورتبتها منذ الثلاثينات؟ وحتى بيكاسو؟ براكوي *Braque*[1]؟ هذا مثير. كان هذا الفن يتعارض مع قيم المجتمع. جدك كان مقاتلاً في المقاومة وفيما يتعلق بالفن؟ هذا مثير للتقدير، فكل الذي كان موجوداً في ذلك الوقت! ما يزال المرء لا يعرف عنه إلا القليل. أليس كذلك؟».

بعد استراحة قصيرة لأخذ الأنفاس، لمعت عيناه الداكنتان بفعل الإثارة. تابع بصوت منخفض: «علينا الأخذ بالثأر. وإذا تمكن الجاني من الهرب، علينا أن نتعقب سلالته».

الثأر؟ لفترة من الزمن، كنت كمن فقد القدرة على الكلام. لا يجب أن يكون هذا الرضا عاطفياً إلى هذا الحد. هنا رن هاتفي النقّال.

«تساءلت، فيما إذا ما كنت جائعاً؟ يمكن أيضاً أن نتمشى بعض الشيء في الهواء الطلق، وبعد ذلك نحتسي كأساً من الكوكتيل».

منى اتصلت بي ببساطة في ذلك المساء. اتصال خاص، فلم يسبق لها أن فعلت ذلك مطلقاً.

«هذا غير ممكن. ليس لدي وقت. علي أن..».

«الآن؟ وفي هذا الوقت ليس من واجب أحد أن يفعل أي شيء».

امرأة مُتَطَفِلة، كم أكره ذلك، في تلك الأثناء التي حاولت فيها أن أتخلص من منى، كان دافيد صامتاً. وكان ينظر لي مبتسماً، وكأنه أدرك، أنها هي. وعندما أنهيت المكالمة، ربت على كتفي.

«هيا، دعنا نذهب للطعام. سنأخذ سيارتي، ونذهب إلى بحيرة المعارك *Schlachtensee*[2]. إنه المكان المناسب لمساء كهذا».

---

(1) جورج براكوي 1882–1963: رسام ونحات فرنسي.

(2) بحيرة في جنوب برلين.

كنا جالسين في سيارة دافيد المكشوفة، وكانت نسمات الهواء الصيفية تداعب شعرنا. استدار دافيد لوهلة، ونظر إلي وابتسم، ثم عاد وركز نظره على الطريق.

تقييم لوحة كوربيت– وبالتالي البحث– أنهيته كما حسبت لذلك بعد يوم من تبادل المهمات مع منى. وقد قادني ذلك إلى تجمع من البيوت البرلينية بعضها لأغنياء جدد، والأخرى كانت إلى حد ما بدون ذوق. وقفت في صالة استقبال من حجر الصوان الأسود، وفوق رأسي تأرجحت في السقف ثريا مصممة على طراز القرون الوسطى، التي أعرف أمثالاً لها في البنايات الحكومية في وسط المدينة بمانهاتن، الفرق أنها أنتجت في حوالي العام 1930. في ذلك الوقت كانت هذه الفخامة القاتمة ملائمة لنيويورك. واليوم من الواضح أنه ينظر لها كذلك في برلين. غريبة هذه الوصلة الزمنية من الذوق المبتذل.

«السيد فون آرنولد دي لا بيير في انتظارك».

البواب الذي كان يرتدي بزة محافظة– بالنسبة لبرلين ظاهرة جديدة– أشار إلى المصاعد في الوسط. بدا من الواضح أنه لُقِنَّ أن يعد افتخاره بعمله جزءاً من الوظيفة: فلا يستطيع أحد آخر أن يبدو مثله في هذا الاستعلاء. توقف المصعد في الطابق السادس، ولم يكن لدي الوقت الكافي للتفكير بشعوري حول الممر الطويل، وما به من ديكور، فقد ظهر أمامي فجأة، ومن خلال الضوء الخافت رجل في مقتبل العمر بقميص أبيض مفتوح الأزرار إلى نقطة متدنية جداً، بنطال جينز ضيق بدون حزام تمسك به عظام الخاصرة. لون عينيه لمع بالرغم من الضوء الخافت، كما تلمع قشور السمك، عندما تسقط عليها أشعة الشمس.

«السيد د. ساوندرز؟ تفضل، تعال معي».

اقتادني إلى باب مفتوح في الطابق. لفترة من الوقت بقيت أنظر إلى الضوء المتوهج. «السيد فون آرنولد سيأتيك في الحال».

ذهب الشاب، حركته كانت مركزة، وكأنه نسيَ نفسه: لا يرى المرء مثلها، إلا عند الناس الذين لا يثقون بذاتهم. بقيت أنظر إليه، حتى بعد أن أغلق الباب الذي ابتلعه. للحظة بقيت واقفاً، وكأنني قد تسمرت أو كمن أتته رؤيا، يداي ابتلتا من شدة العرق. جففتهما خلسة ببنطالي. ثم استدرت، وبدلاً من المرمر القاتم الملمع كنت أمشي على باركيت مُصَدَّف، الحجرة المضاءة بشكل جيد كانت على ارتفاع خمسة أمتار وتنتهي بجاليري يلتف حول الصالة. في إحدى زواياها كان هناك سلم لولبي، وفي الأعلى شاهدت خزائن من الزجاج بداخلها بعض الكتب. لا صورة، ولا مصباح ذو أهمية، ولا عمل فني واحد. أيضاً في الأسفل لم يكن هناك إلا القليل من قطع الأثاث: مقعدان، وحامل رسم فارغ. لا شيء غير ذلك، وعلى الجانب الأيسر، باب بواجهة زجاجية مفتوح على شرفة بها نباتات البقس المقصوصة بأحجام مختلفة. ودرابزين مطلي باللون الأسود. من خلال الباب الزجاجي رأيت بوابة براندنبورج، شارع أونتر دن لِنْدِن ***Unter den Linden***، بعض أجزاء حديقة الحيوانات. لم يكن بالمستطاع معرفة ما يدور في ساحة لايبزج، بفعل حاجز الصوت، يعيش المرء هنا دون إزعاج، في الأعلى، ورغم ذلك في المركز.

«أقر أن ما أعرضه من أشياء، لا يستطيع أن ينافس هذا المنظر.» جاء هذا الصوت من خلفي، استدرت.

«رودريك فون آرنولد دي لا بيير».

وقف أمامي رجل سمين قصير القامة، ينطبق عليه الاسم كحذاء الكعب العالي في الوحل. مدّ لي يده، وانحنى قليلاً كالعادة القديمة، وضحك، أسنانه كانت بلا عيوب. لم أرَ في حياتي مظهراً مضحكاً كهذا، فشيء كهذا لم يكن موجوداً أيام طفولتي، ولا حتى في حي جزيرة كوني *Coney Island*. لكني وبالضبط تخيلت واحداً مثل دي لا بيير. حركاته كانت قوية، وبدا وكأن بزته الفاخرة والضيقة ستنفجر في أي لحظة. الرأس المستدير وخدوده المحمرة كخدود الخنزير كانت تدل على ارتفاع في ضغط الدم. بالتأكيد لم تكن هذه مهنته الأولى، فربما كان في السابق يبيع المكانس الكهربائية، أو سمساراً للعقارات، أو لربما كان يبيع كروش الخنازير. بصعوبة استطعت السيطرة على نفسي من توجيه سؤال له: لماذا بحق السماء، يحمل هو بالتحديد هذا الاسم؟ ناولت السيد دي لا بيير بطاقتي.

«لقد تكلمنا على الهاتف بخصوص لوحة كوربيت، التي عرضتها علينا».

«أنا أعرف هذا بالطبع، أنا أعرف هذا. ساوندرز، ساوندرز– هل من الممكن أنني عملت مع والدك؟».

منافق، قلت بصوت عال: *«آسف، فعائلتي ليست من برلين.» كنت أفضل أن أقول: من الممكن أن أقول لك هذا، إذا قلت لي من هو أبي.*

«لم أفكر ببرلين بالضرورة، ربما لندن؟».

نفيت ذلك.

«وليكن، في مجال التجارة، بهذا المجال، يظن المرء، أن عليه أن يعرف الجميع، فعالمنا صغير، لدرجة أن المرء يجعل منه شركة عائلية».

«هل أصل كوربيت من برلين؟».

«نعم. إنه من مجموعة خاصة، وصاحب العرض يرغب أن يبقى في السر، وعندما تتم الصفقة، سيعرّف بالطبع عن نفسه».

«أرغب في رؤية الصورة».

«بالطبع، سيد ساوندرز، فأنت هنا لهذا الغرض، سأحضرها. هل تحب أن أطلب لك شيئاً إلى حين أن أعود بها؟».

رفضت العرض، وتوجهت مجدداً إلى الشرفة. في بعض الأحيان أظن أنني أعيش في المدينة الخطأ. بدأت أفكر بتقديم طلب لنقلي مؤقتاً إلى مكان آخر، إلى باريس أو أمستردام، أو العودة إلى نيويورك. ليس لأن برلين لا تعجبني. بل لأنني أشعر بعدم الراحة هنا، رغم الصداقة مع دافيد. كنت أتوقع آثاراً خفية – تحت أرضية – لا تتلاءم مع السطح. ربما أفسدني نفور روزي، أو ربما كنت أبحث عما يؤكد وجهة نظرها. ما هذا الذي أفكر به؟ فليس لدي إرث ثقيل لأدير شؤونه. من الواضح أن معادلة نظرية المؤامرة لمنى قد تسربت لي خفية، الأقارب المختارون، إنها مهزلة.

«البائعون ليسوا في وضع حرج، وغير مضطرين للبيع. وحقيقة أنا لا أفهم بالضبط، لماذا يريدون بيعها، فالصورة من أملاك العائلة منذ عدة أجيال، ولدي انطباع بأن سبب البيع يعود لدافع شخصي. لكن المرء، في مثل هذه الحالات، لا يدقق في السؤال».

كلام دافيد، بأن كل شيء– أياً كان– بدأ مع لوحة كوربيت، يتلاءم مع هذا الجو. ولكنه لن يكذب علي! لماذا يكذب؟ فخلال هذه الفترة تطورت الثقة بيننا. نظرت بدقة إلى الصورة، التي وضعها السيد فون آرنولد على حامل الصور. كانت هي الصورة نفسها، إذا لم تخني الذاكرة، التي رأيتها عند برلنسامت. من النظرة الأولى، بدت وكأنها

ليست نسخة مزيفة، فهل هي صورة أخرى من نفس المجموعة؟

«هل عندك تاريخ منشئِها؟».

«بالطبع».

«من أين حصلت عليه؟».

الأوراق احتوت على قائمة من المالكين، وتقرير اختصاصي مع صورة، إضافة إلى وصف وتقييم لصورة أشعة. «يمكنك بالطبع الاحتفاظ بهذه النسخ».

في كل مرة أمسك فيها بمثل هذه الأوراق بيدي، أتساءل عن قيمتها الفعلية، من المؤكد أن لها قيمة ما، وهذا شيء مسلم به. سيّان إذا ما كان في القائمة أسماءُ مثل: روتشيلد، أو اليوم ساتشي *Saatchi* [1]، وتيسين *Thyssen* [2] أو فليك *Flick* [3]، فللأسماء قيمتها، على الرغم من أن المحطات الحقيقية لا يمكن فحصها بدقة، في غالب الأحيان، فكثيراً ما تحصل مغالطات، وأحياناً عمليات خداع. في إحدى المرات كان عند الشركة لوحة «لبوي» *Beuys* [4] بيعت في مزاد بقيمة ستة ملايين مارك ألماني، في ذلك الوقت. المنشأ كان بدون أي ثغرات سوى ما يتعلق بالمالك الأخير، فقد كان متورطاً بفضيحة اقتصادية، ليس هذا فحسب، فوالده كان ينتمي للنخبة النازية *crème brulée*، وأعدم بعد محاكمات نورنبيرج. لم يكن أحد يرغب في أن يترك مثل هذا المستنقع بصماته على النحبة الألمانية، لهذا وبكل بساطة، تم تناسي هذا المالك

(1) تشارلز ساتشي 1943: بريطاني من أصل عراقي ولد ببغداد، تاجر أعمال فنية، أسس مع أخيه موريس شركة عالمية للإعلانات.

(2) اسم عائلة صناعية ألمانية.

(3) عائلة ألمانية ينتمي لها العديد من الصناعيين ورجال الأعمال.

(4) يوسف بويز 1921–1986: فنان ومربٍ ألماني.

عمداً، وهذا ضاعف ثمن البيع أضعافاً مضاعفة. لكن القيمة حسب المنشأ، لا يعرفها أحد. وفي بعض الأحيان يكون هناك شك في أصل مجموعة فنية، والكل على معرفة بذلك، لكن لا أحد يريد إثبات هذا. ألقيت نظرة عابرة على الأوراق، اسم برلنسامت لم يكن موجوداً في أي مكان على القائمة، والخبير كان معروفاً بالنسبة لي، إضافة لذلك فقد ذكرت أسماء مجموعات فنية، تم فحصها، ومن غير الممكن أن يقوم أحد بتزوير الأوراق، إلا إذا كان غبياً.

«جيد، سوف أقوم بإيصال هذه البيانات، وسأبلغك عن المزاد الذي يمكن أن تعرض فيه. من الممكن أن يكون في نهاية العام بباريس، فلست أنا من يُقرر ذلك، كما تعلم. سوف أعطيك أيضاً السعر التقديري الحالي لها».

السيد فون آرنولد هزّ رأسه بالإيجاب. «في أول مزاد مناسب لها، موكّلي يريد أن تباع في أقرب وقت، أقصد اللوحة الخاصة. أنت تفهمني».

لم أكن راغباً لأن أفهم أي شيء. فقد كان فكري مشغولاً بما قالته مني، حول ما إذا كان دافيد هو الذي يعرض الصورة للبيع، دون أن يعرفه أحد. وهل من الممكن أنه بدأ شيئاً فشيئاً بالتخلص من هذه المجموعة. في هذه الحالة سيكون الآن في جدارية بطرسبرغ مكان فارغ. السيد فون آرنولد شعر بالارتياح، لأنني كنت على عجل.

«ألا تريد أن تشرب شيئاً؟».

«لا، شكراً جزيلاً، فبعد عشر دقائق عندي موعد».

رافقني إلى الخارج، وعندما وصلت إلى الأسفل، ركبت دراجتي الهوائية وانطلقت شارع 17 يونيو باتجاه الغرب. كانت السماء زرقاء

صافية، وكنت متلهفاً لما ينتظرني في شارع فازانن شتراسه، لدرجة أنه وعلى الرغم من وضعي الصحي الجيد، فقدت القدرة على التنفس.

التاسع

هكتور فيليسيانو أخطأ مرة أخرى، عندما أتى على ذكر سوزان برويكر في كتابه حول المتحف المفقود، بوصفها ابنة للصحفي الشهير جان لوشير. هذه الشخصية الرقيقة كانت قبل زواجها من أوتو آبتس سكرتيرة لوشير الذي كان يدير صحيفة ***Notre Temps*** الثقافية السياسية. في هيئة التحرير كانوا يستمتعون بأن سفير هتلر اللاحق في باريس، طلب من صديقه لوشير يد كريمته، ليس فقط لأنها ابنته، بل لأنها كانت أنيقة، ذكية، ومحافظة في طبعها، هذا ما قرأته في سيرة ذاتية عن هذه المرأة. عدا عن ذلك لم تكن سوزان فرنسية الأصل، بل كانت في الأصل فلامية ألمانية من بلجيكا. في تشرين أول أكتوبر1933 أنجبت ابناً: بيرنهارد، وفي آذار مارس 1936 رزقت بابنتها سونيا.

سأستبق الأمور، هل الوثائق هي التي فعلت ذلك، أم هو النبيذ؟. لو لم توقفني الخادمة ليلة الأمس، لكانت النار التهمت كل هذه الأوراق. في هذا اليوم أشعلت مدام أويجين النار في الموقد وسحبت فتحة الهواء. من الممكن، أنها تحسب أنني مجنون، لكنها لن تصرح بذلك علانية. تقول، إنها رأت الكثير من الناس يأتون لهذا البيت، ويغادرونه، كانت نبرة صوتها تقول بأن شيئاً ما لن يفاجئها. أريد أن أتخلص منها، أريد أن أُجْهِز على هذه الوثائق. لكن ليس بالأمر السهل، التغلب على سيل الكلام الجارف للمدام. أخيراً وصلت إلى النقطة التي ربما كانت هدفها منذ البداية، وسألت: ما الذي أقوم هنا بحرقه؟ هل لهذا علاقة بالمكالمات الهاتفية التي كان عليها التخلص منها منذ عدة أيام. أنا مندهش، صحيح أنني طلبت منها، بأن تغطي علي. لكنني لم أفكر، بأنها

ستستخلص استنتاجاتها من خلال هذه المكالمات المتكررة.

مدام أويجين أوضحت لي بإسهاب، بأن من المعتاد، أن يتسلم المستأجر الجديد عن القديم ليس فقط الخادمة، وإنما أيضاً الموظفين الآخرين مثل: عمال تنظيف النوافذ، عمال الحديقة، والمدلك الذي كان يقدم خدماته *للسيدات المحترمات* السابقات. من الواضح أن هناك اعتقاداً سائداً، أن من بمقدوره أن يستأجر مثل هذا البيت، فإنه قادر على كل شيء. أيضاً مربية الأطفال كانت ستسأل عن وظيفة. لكن الأمر كان واضحاً، أنني لست بحاجة لمربية أطفال، ثم اتصل شخصان آخران، كانا يريدان التحدث مباشرة معي. أحدهما كانت امرأة تتحدث الفرنسية بطلاقة – وبالتالي فمن غير الممكن أن تكون مني–. الشخص الآخر كان رجلاً تحدث بلطف بالغ بالإنجليزية، لكنها لا تفهم الإنجليزية. أما المرأة فقد من باريس، وتركت رقم هاتفها، غير أن مدام أويجين قالت لها، بأن عليها أن تنتظر لأسابيع قبل أن يصلها الرد، فسيد البيت، وهو أنا، مشغول جداً. الرجل اللطيف كرر الاتصال أكثر من مرة، يبدو أن الأمر كان مهماً جداً له، ثم أعطتني مدام أويجين ورقة بها رقم هاتف إدفيجه. هل من الممكن أن يكون دافيد هو الرجل الذي لم يترك خبراً؟ كيف تمكن، اللعنة على الشيطان، من الحصول على رقم هاتفي؟ بقيت مدام أويجين واقفة أمامي متلهفة لسماع إجابتي. أهي تأمل أن أقول لها، ما الذي أقوم بحرقه؟ في تلك اللحظة، التي فكرت فيها أن أخرج لساني لها، بأن هذا لا يعنيها، فطنت بأنني مُرغمٌ على الاعتماد عليها.

حينها قصصت عليها أغرب قصة خطرت ببالي. فقلت لها: لقد هربت إلى بروكسل باحثاً عن ملجأ، وأريد أن أحرق كل ما يدل على

فشل زواج مزعوم، هذا الرجل اللطيف، الذي يتحدث الإنجليزية يلاحقني، إنه عشيق زوجتي. وهو يريد أن يجبرني، على الموافقة على الطلاق. اتسعت عيون مدام أويجين. لقد اخترت الموضوع المناسب، إذاً سأواصل السرد. أنا الآن بحاجة إلى ذهن صاف فقط، لأفكر برويّة، ما الذي يجب عليّ عمله. الرجل الذي يتعقبني يدعى برلنسامت. يجب أن يكون واضحاً لها، بأنه أغرى زوجتي، وانتزعها مني، دون أن يؤنبه ضميره. إنها امرأة جميلة، كمادونا الفن الغوطي، وفي الحقيقة إنها الكمال مجسم في شخص. وصفت لها مني بالضبط، حتى العطر الذي تستخدمه، وكل الصفات الصغيرة فيها ومنها، أنها تخلع حذاءها تحت طاولة المكتب، معتقدة أن أحداً لن يلاحظ ذلك. ثم حدثتها عن دافيد، وكيف استغل غيابي، لكي يقول لـ منى، بأنني أخونها في رحلة عمل، واستغل ضعفها وحزنها تحت غطاء المواساة، ليضمها بذراعيه، ويكسب مودتها لتصبح في صفه. قلت بأنني عدت إلى البيت، وكان كل شيء قد انقلب ضدي، لكنني صمدت رافضاً الموافقة على الطلاق. إنني لا أريد في هذا الوقت، أن أترك زوجتي الجميلة الحائرة لمثل هذا الوغد. لقد كنت متأثراً بالقصة، لدرجة أن دموعي كادت أن تنهمر من عينيَّ، من الواضح أن لدي موهبة في الكذب.

وأيضاً مدام أويجين كانت متأثرة جداً، وقد هزت رأسها مرات عديدة، وبعد أن انتهيت من الحديث، كانت علامات التفهم لوضعي مرسومة بعمق في تفاصيل وجهها. إنها لا ترى الوضع الذي أنا فيه أمام ناظريها فقط، بل إنها ترى الخطر المحدق بمنى: دون حماية في ذراعي هذا الوحش! بفطنتها تدرك المدام على الفور، أن يديَّ الآن مكبلتان. وزوجتي التي غرَّرّ بها هذا الشيطان، لم تعد تثق بي في هذا الوقت.

«عليك أن تسحبها من تحت تأثيره! أحضر زوجتك إلى هنا، يا سيدي!».

طلبت منها أن تساعدني، ورأيت من خلال نظرتها، أنها تسجد أمامي وأمام قصتي. بعد ذلك قلت لها، إنني سأستحم، وأذهب إلى النوم. اليوم، وبرغم الضرورة القصوى، لن أحرق أي شيء، فالذكريات قوية وتؤلمني إلى حد كبير. رفعت يديَّ إلى السماء طالباً من النجوم أن تغفر لي هذه الكذبة الخرافية.

بعد عشرين دقيقة من انتهاء موعدي عند السيد آرنولد دي لا بيير، قرعت جرس برلنسامت، لكن لم يكن دافيد هو الذي فتح الباب لي. بل صوت أنثوي رد على سماعة الباب. «أريد أن أرى دافيد برلنسامت».

«لحظة من فضلك، سوف أنزل وأفتح لك الباب».

في هذه اللحظة لفت نظري، أن هذه البناية ليس لها مفتاح باب أوتوماتيكي، وكان مطلوباً من السكان أن يعينوا موظفين. علاوة على ذلك فإن المجيء والذهاب بدون رقابة، لم يكونا مرغوبين، والمرأة التي أتت وفتحت الباب، لم تكن الخادمة، كما كنت أتوقع.

«أظن أنك صديق «لدافيد». أنا إدفيجه آبز، عمّة دافيد».

بدت لي أقل صغراً من أن تكون عمّة «لدافيد». كانت ترتدي فستاناً من الحرير المطبوع بالزهور، بادية الأناقة، شعرها العسلي اللون مرفوع إلى الأعلى والأذنان مكشوفتان. الماكياج على وجهها بدون أي عيوب، والشفتان مطليتان بأحمر شفاه كلون الفريز، بعد وقت اتضح لي، بأن إدفيجه آبز لا بد أن تكون تماما على عكس كِنَّتِها، ليس في مظهرها الخارجي فحسب، وإنما في سلوكها أيضاً.

لقد تحدثت، وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد.

«دافيد اختفى دون أي أثر، الأحمق. لا بد أنه يغوص في عناده.» بدت ملاحظتها ساخرة. «قلت إنكَ التقيت به قبل فترة قصيرة، سيد...؟».

ناولتها بطاقتي.

«... د. ساوندرز؟ لنصعد إلى فوق. تفضل».

«ماذا تعنين، بأنه اختفى؟».

«ذهب، دون أي كلمة، إلى أين».

صعدت الدرج أمامي، ثم دعتني للجلوس في الصالة، وغابت في الممر المظلم. نظرتي الأولى اتجهت نحو جدارية بطرسبرج، لوحة كوربيت كانت لا تزال معلقة في مكانها. إذن لم يقم دافيد بعرض اللوحة خفية للبيع.

عادت إدفيجه بسرعة.

«لطيف منك، أن تهتم «بدافيد»، يا سيد ساندرز».

«ساوندرز. إنه اسم أمريكي. أنا لست من هنا».

«آه! لكنك تتكلم الألمانية بشكل جيد جداً، رائع، أفضل مني. لقد صرت أخطئ كثيراً، لكن وكما تعلم بالتأكيد، أنه من الممكن أن ينسى الإنسان حتى لغته الأم».

قطع حديثنا عندما أتت الخادمة لتسأل، ماذا ستقدم لنا.

«أحضري لنا الشاي والكعك من فضلك، سيدة آرنو. هذا السيد د. ساوندرز، صديق «لدافيد».

أحنت رأسها لي بلطف، غير أنها لم تقل، إنها تعرفني من قبل من خلال زيارتي للبيت، ربما كانت تدرب نفسها على التحفظ.

«السيد د. ساوندرز لا يعرف أيضاً، إلى أين ذهب دافيد».

«لكن يا سيدتي الفاضلة، أنت تعرفين دافيد!».

تولد لدي شعور، أن السيدة آبز، كانت ممتنة لكلمات الخادمة. تنهدت قبل أن تواصل حديثها.

«إنني أخشى، يا سيدة آرنو، أنكِ تعرفينه أكثر مني بكثير. دائماً، وعندما أفكر، أنني»، لم تكمل إدفيجه الجملة. حولت نظرها لي مجدداً. «لكن لطيف جداً أن تأتي الآن تحديداً، للأسف ليس له»، ترددت للحظات، وكأنها فكرت، فيما إذا كان عليها أن تذهب بعيداً إلى هذا الحد، «للأسف ليس له الكثير من الأصدقاء، كما هو الحال عند غريبي الأطوار من الناس. إنني منشغلة عليه، لذلك أتيت إلى هنا، وهو غير موجود. هذه القصة..».

«سيدة آبز. دافيد برلنسامت وأنا تعرفنا على بعضنا بالصدفة. لقد عدت، لأن لدي بعض الأسئلة المتعلقة بالمجموعة الفنية».

أقصى ما كنت أفكر فيه، هو أن تأتي على أفكار خاطئة. ما شأن عمّة دافيد بهذا، إذا كنت أنا ودافيد صديقين وفيما إذا كانت العلاقة بيننا وطيدة أم لا؟ إن هذا لا يعني أحداً، ثم أشرت إلى اللوحة.

«لوحة كوربيت، تفهمين ما أقصده؟ كنت أريد تفاصيل دقيقة عنها. كما ترين على بطاقتي، فإنني أعمل في الفرع المحلي هنا لنوبل نيويورك. قبل فترة عُرِضَتْ علينا لوحة مشابهة لهذه، وكنت أريد أن أطلب من ابن أخيك بعض المعلومات. إن الوضع محيِّر. فكوربيت لم يرسم هذا المنظر مرة واحدة فقط».

بدت خيبة الأمل على وجهها. «كنت آمل...» صمتت. «في هذا الوضع..».

«لقد قرأت عن الحادث المفجع، الذي حل بأمِّ دافيد. إنه مُرَوِّع».

تغيرت ملامح وجهها، كما أنها لم تحاول حتى أن تتمالك نفسها. سيدة متقدمة في العمر، تنتظر فقط أن تنفجر غضباً. في اللحظة التي قالت فيها إدفيجه، «لم يكن حادثاً مفجعاً»، دخلت الخادمة حاملة صينية وحولت النظر عن هذه الجملة الجريئة، وبعد أن ذهبت السيدة آرنو، كررت إدفيجه ما قالته. ثم ناولتني الشاي.

«لا أستطيع أن أتصور، أن دافيد، سيعرض شيئاً من هذه»، الكلمة الأخيرة قالتها وكأنها تتلذذ بنطق حروفها منفصلة، «من هذه المجموعة.» المرء يتحدث دائماً عن إرثٍ عائلي، ومن ضمنه هذا»، نظرت من حولها بتأثر، «المحيط وهذا العنوان، اللذان تعتز بهما كل عائلة برلنسامت».

بدت وكأنها لا تعد نفسها جزءاً من هذه العائلة.

«موريس وميريام بنيا واجهة براقة، ربما أخذ أخي هذا الهواية عن والدنا. وأيضاً باول كان كذلك، لكن هذا يقود للماضي البعيد. دافيد على أية حال، لم يكن ينسجم، كيف علي أن أعبر عن ذلك، إطلاقاً مع عالم والديه ذي التوجه الاجتماعي. لقد كان مهتماً على الدوام بالأشياء، وزوجة أخي كانت طموحة إلى حد كبير، وكانت تهتم فقط بالتقدم في المجتمع. لم أعرف حتى، إلى أين كانت تريد أن تصل. إن والدي دافيد، أقصد ميريام وموريس مضحكان».

«موريس؟».

«ألفرد– سيّان بالنسبة لي».

«قال لي دافيد، بأن والده اتخذ اسماً آخراً، كمحاولة للتخلص من الإرث الثقيل الذي كان يمثله الاسم الأصلي، ربما أنه يرى صلة لذلك

مع الحدث الحزين».

«أي إرث ثقيل؟» قطبت جبينها. «دافيد موهوب، لكنه يعيش في عالم من الخيال، وهذا خطير. لقد كنت دائماً آسف لهذا كله، التصنع لدى والديه، هذه الأطماع نحو المكانة، لكن ليس من حقي التدخل. كنت آمل، أن يجد دافيد بنفسه مخرجاً... من هذا الجنون، من هذا البلد، من قهر عائلته. لقد تمنيت دائماً أن يجد رابطاً أكبر مع باريس، أكثر حيوية، وعموماً، أن يكون- كيف علي أن أعبر- أن يُطَوِّر اهتمامه بالعالمية».

«مثل جده؟».

«كيف فكرت بذلك؟ والدنا كان رجلاً لا اعتبار له. دافيد ورث للأسف هذا الموقف من أخي، فهو يتقوقع مثل القنفذ. إنه- يصعب علي أن أقول هذا- ريفي رغم كل هذه العجرفة المصطنعة. أيضاً ألفرد وميريام كانا، أقصد ميريام كانت ريفية، مواطنة بسيطة اغتنت، وتريد إخفاء أصلها. دافيد أخذ هذا الخوف الغبي، كالكثير من العادات عنهما. للأسف لم يكن لي أي تأثير عليه. كان يرغب بشدة أن يكون مثلهما بالضبط، وكان يريد منهما أن يُحباه حتى العبادة، وكمن يحاول أن يمثل لهما كيف يكون ذلك، أحبهما. ثم كانت انفجارات الغضب، التي لم يكن من الممكن السيطرة عليها. ميريام لم تستطع أن تحتمل ذلك، فعاملت الطفل كالطاعون. آخ، أعذرني على ما ثرثرت به.» صمتت للحظة وحدقت النظر بيديها. في الأصبع الأيسر الصغير كانت تلبس خاتماً ذهبياً مرصعاً بترمالين، ولم تكن تلبس خاتم زواج.

«بما أنك لا تعرف أين هو...» بدا وكأنها لم تعد مسرورة بوجودي، ثم أضافت «دافيد بحاجة إلى صديق»، غمغمت وكأنها غير حاضرة،

وكأنها كانت تريد أن تؤمن بشيء ما، وقفت، ونظرت في عيني وبدت وكأنها تجمع كل قواها. «إنه بحاجة إلى صديق مثلك. هذا ما اعتقدته فوراً. لكن المرء لا يستطيع أن يُسيِّر الأشياء».

«اسمحي لي بسؤال آخر».

«نعم، تفضل!».

«قال دافيد، إن لوحة كوربيت»، وأشرت إلى صورة البحر، «كانت البداية. ما الذي يعنيه بذلك؟ بداية ماذا؟».

«أنا آسف، لا علم لي بذلك، ولم أر هذه الصورة من قبل هنا. هناك منظر مشابه «لكوربيت» في متحف أورزي. وهي معلقة في الأسفل في صالة، علقت فيها لوحات أخرى لهذا الرسام الفذ. ولكن هذه هنا، لا، لا أستطيع أن أقول عنها أي شيء.» تنهدت قبل أن تتابع «أيضاً بقية الصور. إنها تجعلني أفقد القدرة على الكلام».

كم هي ضبابية هذه العائلة، مجمعة بدون تناسق ومتناثرة. هذا ما خطر ببالي عندما وصلت إلى الشارع. دافيد اختفى؟ لماذا لم يقل لي، إنه سيسافر؟ لماذا أتت عمته فجأة إلى هنا؟ بدا وكأن إدفيجه آبز لم تكن تحب زوجة أخيها الميتة. وكأني أتيت في الوقت الصحيح، لكي تتخلص مما لديها من كلام رنان. كان من الواضح، أنها بحاجة ماسة لذلك. هذه الرغبات العائلية جعلتني بشكل ما متوتر الأعصاب. في الواقع ليس من عادتي، أن أقحم نفسي في شؤون الآخرين، لكن هل من الممكن أن أقطع علاقة الصداقة مع دافيد بكل هذه البساطة؟ وتحديداً في هذه المرحلة بالذات، بعد أن أدين والد دافيد؟ وبحركة لا إرادية بحثت في جيوب السترة عن علبة السجائر، قبل أن أتذكر، أنني قد توقفت عن

التدخين، كما أن الوقت كان مبكراً، لكي أشرب في مكان ما شيئاً من الخمر. شاهدت دراجتي الهوائية موقفة على عمود كهرباء، محكمة الإقفال. هل هي فعلاً ملكي؟ وفي البيت المجاور كان هناك سياج لورشة بناء. ألصقت عليه ملصقات ملونة نصف ممزقة، كان تنبعث من الهواء رائحة رطبة، وكأنها مشحونة بشيء ما. متى ستتوقف موجة الحرارة المرتفعة؟ أردت أن أنظر إلى ساعتي، غير أني وجدت أنني قد نسيتها في البيت. حركة السير في شارع كنت المجاور بدأت في الازدحام. أردت أن أحقق في شبهة. شبهة؟ أية شبهة؟ *دافيد برلنسامت كان غير مشارك أصلاً، كتابوت أمه*... لماذا خطر ببالي هذا الخبر الصحفي الآن؟ *ماذا* يعني *لم يكن مشاركاً*؟ أحاسيس متصلبة؟ اتهامات سرية، كونه لم يكن في وقت سابق في مكان الجريمة لمنع وقوع الكارثة؟ لكنه حاول ذلك. كيف كان عليه أن يعرف، أن والده يريد أن يقتل زوجته ونفسه من بعدها؟

رن جرس هاتفي النقّال. كانت منى. «ما الذي يجري حقاً؟ هل ستأتي مرة أخرى، أم ما هو رأيك؟»

«لقد خرجت للتو من هنا، هل لديك سيجارة؟ جيد، سأكون بعد خمس دقائق في المكتب».

عندما ركبت الدراجة، شعرت وكأنني أصبت بصاعقة. عمّة دافيد تحدثت عن أبيها، على أنه رجل غير ذي أهمية. باول كان مواطناً بسيطاً دون سعة أفق. هل يجمع مواطن صغير مثل هذه المجموعة الفنية؟ هذه ظاهرة جديدة إذن. رجل لا أهمية له يصنع لنفسه تمثالاً بمثل هذه المجموعة، وحفيده يعرِّف عن نفسه بها، ولوحة البحر كانت البداية. ما هذه الحماقة! كيف كان لرجل، لمواطن صغير القوة، قليل المعرفة

والمال أن يمتلك مثل هذه المجموعة؟ في العهد النازي كان يمكن أن تحصل أمور كثيرة، لكن وبالتأكيد ليس كل شيء.

في اليوم التالي اتصلت ثانية «ببرلنسامت». بقي جرس الهاتف على الطرف الآخر يقرع دون إجابة. بعد يومين وصلت دعوة من دافيد. لحفلة. رجوت منى، أن ترافقني.

«لماذا؟ أنت تعرف، أنني لا أكن له الكثير من المحبة».

«ببساطة أريد أن تري هذه المجموعة الفنية الخلابة ولو لمرة واحدة. لوحة كوربيت وما يتعلق بها الأمر واضح، ليس «لبرلنسامت» علاقة بذلك، لكن لا بد أن يكون مثيراً لك، أن تتعرفي على مثل هذه المجموعة الخاصة. لمَ لا، إذا سنحت فرصة لذلك».

حاولت أن أخدعها، فالسبب الحقيقي الذي يدعوني لاصطحاب منى، هو أنني أشعر بالانزعاج منذ حديثي مع عمّة دافيد. في البدء تعلق دافيد بي، ثم اختفاؤه، صعوبة تقدير ما يفعله، والآن ما نوهت إليه إدفيجه عن عائلة أخيها. أصبحت مقدرتي على تقدير دافيد تقل، رغم أنني ما زلت مشدوداً إليه- أو لتلك الحادثة المُروِّعة؟ أو ربما كنت مشدوداً لما عايشته مع دافيد. لم أستطع أن أفسر ذلك، ولكن كنت أرغب في لقائه من جديد.

«هل ستأتين معي؟».

«لا أعرف ما الذي ألبسه في حفلة هذا الشخص».

«إذاً، لا يمكن أن يكون هذا مشكلة».

«بالطبع لا، إذا ساعدتني».

ظلت منى تلحُّ على رأسي، إلى أن وعدتها بالمجيء إلى بيتها. كان الجو ما يزال جميلاً، لكن درجة الحرارة بدأت في الانخفاض، منى

كانت تسكن في حي على نهر شبري، لم تكن بناية سكن عادية، بل في بيت كان مستودعاً في السابق. مصعد السلع توقف في الطابق الذي تسكنه ووجدت نفسي مباشرة في صالة كبيرة، دون المرور بممرات، واجهة النوافذ كانت كبيرة ومنها ترى النهر. منى كانت تقف في وسط فوضى ملونة، وكانت تشبه أميرة سيرك، تستعد لتقديم عرض مع الأسود. كانت الصالة رغم كبر مساحتها، تزهو بأجواء دافئة، وتعبر في ذات الوقت عن تحرر منى من العادات والتقاليد. إن ما يعجبني في منى هو، أنها لا تريد الوصول حقاً إلى شيء ما. فالطموح كان بالنسبة لها غريباً، كما الحسد، كانت تحب كل شيء كما هو. وكثيراً ماكنت أسال نفسي: لماذا كان عليّ أن أساعد هذه المرأة تحديداً، التي تعرف كيف تتعامل مع نفسها ومحيطها، وخاصة في اختيار ماتلبسه، ولكنني لم أجد جواباً مقنعاً لذلك.

سرير حديدي ضخم، كان في وسط الغرفة، وعلى يمينه ويساره، كانت توجد طاولات صغيرة عليها مصابيح، بجانبها حاملات ملابس. ملابس منى كانت معلقة عليها حسب اللون. على اليسار حاجز فاصل، عليه رسوم صينية. وفي زاوية بعيدة كان هناك ما يمكن أن يسميه المرء مطبخاً، كما كان عدد من الكراسي الخشنة موزعة في أنحاء الغرفة، وبجانب المطبخ كان هناك باب، ربما يؤدي إلى الحمام، وعلى الجدران غير المقصورة علقت أعمال فنية لفنانين معروفين وغير معروفين من العصر الحديث.

«إذا أردت أن تجلس على مكان ليس صلباً، فاجلس على السرير، لأنه مريح. الكنبتان الوحيدتان اللتان أملكهما، أرسلتهما لإعادة التنجيد».

فتحت باب النافذة المطلة على نهر شبري. أمامها كانت شرفة مزروعة بالخضار والأعشاب.

«ليس سيئاً».

«هل أعجبك هذا؟ لقد رممتها بنفسي. كانت خراباً، عندما اشتريتها. انتبه، إذا خرجت إلى الشرفة، يميناً إلى الأعلى يسكن نك ونورا».

«مَن؟».

«نك ونورا، زوج حمام، نورسان صينيان. الصيصان حصلت عليها من أبي. أثناء فترة دراستي كنا نتبادل الرسائل بواسطة الحمام، فالكثير من الناس في بوط Pütt كانوا في السابق يملكون الحمام الزاجل الأبيض.

«الكثير من الناس، أين؟».

«في بوط، أعني في المناجم. الحمام الزاجل هو رديف للحرية، لرحابة العالم، للعلو و» قفزت في الهواء وهي تضحك، وحركت ذراعيها دوائر فوق رأسها وكأنها راقصة باليه في رشاقتها: «للأسف هذا التقليد يسير نحو الاندثار، لكن منطقة مناجم الفحم تلفظ أنفاسها الأخيرة».

صوتها كان دافئاً، وكنت أصدق القصة الأسطورية، مثلها تماماً، عن الحمامتين. ثم خرجت إلى الشرفة، المنظر من هنا إلى نهر شبري كان خلاباً. منى ستندهش، عندما ترى قطائف قماش برلنسامت– مع كل الظلمة، التي يصنفها المرء هناك في غاية الذوق.

«هل ترغب في شرب شيء؟ ماء، نبيذ؟ أو عرق يانسون فرنسي؟».

نظرت من حولي..

«بكل سرور».

«اجلسْ على السرير».

بالطبع لم استجب لذلك، وقفت هكذا حاملاً الكأس بيدي، فلم أستطع أن أتخيل أنني ألقي بنفسي وسط وسائد مكومة كالباشا في الديوان.

«لماذا دعا إلى هذه الحفلة؟ هل لديك فكرة عن المدعوين؟ عن أسمائهم أو عن صلة القرابة بينهم؟».

ارتدت منى فستاناً بسيطاً، قصيراً أسود اللون، شعرها الأحمر كان مرفوعاً للأعلى، بالطبع لم تكن مساعدتي ضرورية، فلم تمض نصف ساعة، حتى كانت قد اختارت ما سترتديه، بعد أن جربت خمس أو ست فساتين على التوالي. بجبهة مقطبة كانت تخرج من وراء الحاجز الفاصل وتمشي في الغرفة بزهو، ثم تقف أمام المرآة قبل أن تعود إلى خلف الحاجز الخشبي، وأثناء ذلك كانت تتمتم أشياء لا رابط بينها ولم أفهم مغزاها مثل: ... *لن تنجح... لن يتقبل هذا أحد مني... ثقي بنفسك... غريزتك لطماطم فاسدة... يجب على المرء ألا يكون ضعيفاً... اعمل، ما يخشاه المرء*... من الواضح، أنها نسيت، أنها ليست وحدها.

«ربما مثل صديقتك هِتِي فون شنابسبورج».

انتظرت إجابة عصبية مثل «*إنها ليست صديقتي، إنها*...» لكن هذه الإجابة لم تأت. منى بدت وكأنها غارقة في المنظر الذي انكشف أمامها، ومن الواضح أنها كانت تتحسس الوضع، هل ثمة شيء أثارها؟ مما لا شك فيه، أنها كانت قادرة على أن تشوي الناس، فقد كانت في لقاءات عمل في أطر واسعة تتندر بأسماء دلع لمشاهير من الناس، بينما هم واقفون إلى جانبها، وفي وسط الجمع الغفير من الشخصيات المهمة قالت منى وكأنها تتحدث من أنفها: *«علب بيرة؟» أنا أفتح نوعين*

فقط من العلب، طعام القطط والكافيار. السيدات *الراقيات المبودرات* استفسرن بشكل مبطن عن أصل مني، *هربارت، أنا لست متأكدة، إذا ما كان اسم الولادة لإحدى صديقات أمي هو هربارت*، هكذا بدأت تلك المرأة تتحدث بانفعال، كيف فُقد والدها.

«فُقد؟ ماذا تعنين بذلك، يا عزيزتي؟ هل كنت على معرفة بوالدها؟».

«طُمر في المنجم، يا بارونة وسترهولد، والدي كان عامل مناجم».

شعرت بأنني مضطر للبكاء، والضحك في آن، لكن هذه العصابة تسببت في التصاق المجاري التنفسية لدي إلى حد الانغلاق. هذا المشهد ذكرني بكتاب شتيفان بيرمنغهامز: عائلتنا *Our Crowd*، الذي يتحدث عن العائلات اليهودية القديمة في نيويورك، ويعرفه الجميع عندنا. لم أتعلم قط، أن أتعامل مع مثل هذه الظروف، رغم أن علي أن أعترف، بأنني لم ألتهم فقط هذا الكتاب، وإنما كتب أخرى تصف الحياة الداخلية لهذه القشور الفوقية. وإجمالاً كل شيء، كان يتحدث عن هؤلاء المذكورين أعلاه. كنت أكره، أن أكون وصولياً. كان شعر روزي سيقف كالجبال على رأسها، لو عرفت بماذا أفكر– أو ربما أسوأ من ذلك– بماذا أحس. كانت ستنعت ذلك، بأنه ليس صفة أمريكية، وستشعر بالقرف، أن أعترف بالحنين لشيء تعده أمي مُقرفاً، إنه أمر حيّرني على الدوام. حيث كنت أشعر أمامها بأنني خائب وفاشل، حتى عندما كنت شاباً صغيراً، كنت أسأل نفسي، كيف تمكنت روزي أن تتجاهل بكل بساطة أصلها، وما هي الأشياء التي لم تتعلمها، ولم تحصل عليها في طفولتها. كنت أحب أن أنتمي لهم، وقد اتضح ذلك لي، عندما كنت أزور بيوت أهل زملائي. وعلى الرغم مما هو متعارف عليه

عندنا، بأن على المرء أن يأخذ ما لا يملكه، فقد كانت لوحات برونزينو *Bronzino* [1] ولوحات رنوير *Renoir* [2] وبيكاسو بعيدة المنال بالنسبة لي. حتى لو تسلقت على سلم، فلن يكون بإمكاني أن أحصل سوى على لوحة واحدة فقط، وليس على تاريخ العائلة التي تملكها. من أين كان «لروزي» هذه المفاصل المرنة؟

نظرت من حولي مستغرباً، إذا كان برلنسامت يريد أن يهزأ بي، فإنه قد نجح الآن في ذلك. الآن فهمت ما عناه دافيد عندما اتصل هاتفياً بي في أول المساء.

«أرجو منك أن تعمل معي معروفاً؟ عندما تأتي الآن، من الأفضل بالنسبة لي، ألا تذكر في الحفلة، أن هذه المجموعة الفنية ملك لعائلتنا».

«لكن بمقدور الجميع أن يروها!؟».

«إلى اللقاء بعد قليل».

سؤال منى انتزعني من تفكيري العميق.

«أين لوحة البحر؟».

«ماذا؟».

«عفواً! هل تحلم يا مارتيني. لوحة كوربيت واللوحات الأخرى التي كنت هائماً بها، أين هي؟».

بدا الحائط وكأن الموجة جَرَفَت بقية اللوحات الأخرى، ثم ابتلعت نفسها بعد ذلك. كنت قد عدت إلى صوابي من الحيرة، عندما وقف برلنسامت إلى جانبنا. فتح ذراعيه، ارتسمت على فمه علامة نشوة

---

(1) أنجلو برونزينو 1503—1572: رسام إيطالي.

(2) بير أوغست ونوير 1841—1919: رسام فرنسي.

حماسية.

«ضيوفي الأعزاء. إنني في غاية السعادة، أن أرحب بك عندي، سيدة هربارت».

«لكني لست أكثر من مرافق، أنا لست مدعوة، يا سيد برلنسامت. شكراً، لأنك سمحت لي أن أحضر هذا الحفل، على الرغم من معرفتنا السطحية».

«آه، مارتين، زميلتك منعشة للقلب! تعالوا معي، سوف أُعرفكم ببعض الضيوف».

اصطحبنا إلى مجموعة من خمسة أشخاص كانوا منهمكين بالحديث، وكان الملل بادياً عليهم.

«إنه لأمر مخيف، أن يشاهد المرء السماء بلون أسود، رغم سطوع الشمس.» سمعت هذا من شخص كان يرتدي قميصاً وردي اللون بقبة ضخمة لامعة، وكأنها دُهِنت بالسمن، فوق القبة أطل رأس بشعر أسود، لون يتلاءم مع الشارب الرفيع. اعتقدت أن هذا الفم المطلي بنعومة بأحمر الشفاه، كان لرجل، حتى وإن كان الصوت أنثوياً. أمْسَكَتْ المرأة بكوع دافيد، سحبته إليها وقبلته على وجنته. لقد بدت المرأة وكأنها متخشبة، تذمرت، وكأنها تخشى ألا يسمعها أحد.

«ألا يسمى هذا كسوف الشمس؟».

«هذا أمر يعاني منه كل الفنانين. إنها روح الفنان. بإمكان المرء أن يقرأ هذا في كتابات بونيتو أوليفا *Bonito Oliva*».

«إنه مانيرسموس»[1].

«جاء هذا في فيلم.لإيطالي، كان معاصراً لحد ما، اسمه *L'eclisse*. ما

---

(1) نوع من المدارس الفنية وهو مزيج من الحداثة والباروك.

اسمه؟» «أعتقد أنه *L'eclisse* ، ».

«لا، أقصد المخرج، إيطالي معاصر».

«بسكويات *Basquiat*»[1].

«شنابل *Schnabel*»[2].

بدا هذا الجمع الذي دعاه بيرلنسامت إلى هذه الحفلة، وكأنه مجموعة من الأشباح. وكأن ابن صاحب البيت، قصير القامة، قد جمع خفية هذه الأشكال الغريبة، لحفل تهريج.

«ما هو تقييمك لهذه الصور الرائعة، التي... برلنسامت-».

«أعذرونا للحظة.» سحبتُ مني إلى زاوية. «أغلقي فمك. لقد وعدت برلنسامت، ألا أتفوه بكلمة، عما كان معلقاً هنا».

أخذت كأسين جديدين من صينية، وأشرت بحركة حذرة إلى المكان الذي كانت جدارية بطرسبرغ معلقة عليه. المساحات الفارغة بدت كإعلان يقول، بأن ساكن هذه الشقة هو من أتباع طائفة محطمي الأصنام.

«ولماذا؟».

«اتصل بي قبل الحفلة ورجاني، أحب أن أعرف فقط، لماذا؟، ربما يكون لذلك صلة بلوحة كوربيت المعروضة علينا. يبدو أنه دعا لهذه الحفلة فقط، ليُري أناساً معينين، بأنه لا يجمع أعمالاً فنية. لكن- مَنْ؟».

«إنه لأمر غير معتاد في محيطه الاجتماعي. يا للهول، ما هذا المتحف من التماثيل الشمعية؟ ما علاقته بالمجموعة الفنية؟ والاسم؟ لا يعني

---

(1) فيلم أمريكي عن حياة الرسام الأمريكي جان ميشيل بسكويات 1960-1988.

(2) جوليان شنابل 1951: رسام ومخرج سينمائي أمريكي.

لي شيئاً.» تمتمتْ ورشفتْ شيئاً من كأسها. توجه النادل بالصينية إلى ضيوف محاذين. حذاؤه التي كان من الواضح أن صفائح معدنية ألصقت على نعالها، طقطقت على البلاط الملمع وكأنها أحذية راقصين.

«ألم تذكر أيضاً، بأن عندهم هنا سجاد فاخر؟».

«ربما أتتني رؤيا، وكان السجاد الفاخر من ضمنها. كيف ترينه؟».

«البلاط العاري؟».

«مضيفنا».

هزت كتفيها.

«يبدو غريب الأطوار إلى حد ما، إضافة إلى شيء من الجنون، وخاصة هذا الارتعاش في نظراته. لكن الصالة جميلة، وعلى خلاف ما كنت أتصوره».

قبل أن أتمكن من الإجابة على ذلك، عاد دافيد ووقف إلى جوارنا. اصطحبنا وعرَّفنا على زوجين فرنسيين، مُعجبين ببرلين، وبالتغيرات التي جرت على معالم المدينة منذ زيارتهم الأخيرة لها، كما أنها تتغير يومياً أمام أعينهم، فهم يأتون كل سنة لزيارتها. من أين لبرلين كل هذا المال؟ برلين هي المدينة الأوروبية الوحيدة، التي يمكن للإنسان أن يحيا فيها حياة غير معتادة، مثيرة للأجانب وحتى للفرنسيين أيضاً. كما يوجد فيها الآن عدد لا بأس به من المطاعم الجيدة، وقد تصبح هذه السنوات أسطورية لبرلين كما العشرينات لباريس، الثلاثينات لنيويورك والستينات للندن. منى انشغلت بخيال امرأة بدينة، اعتقدت أنها كانت تجمع ساعات اليد، فقالت لها، بأن لديها عرضاً، هو ساعة من كارتير من الثلاثينات. اعتبرت ذلك سخافة، كما أني اعتقدت بأن منى قد ضاقت ذرعاً بهؤلاء الناس. أما أنا فقد بقيت وحدي مع الزوجين الفرنسيين.

«هل أنتم من باريس؟ هل تعرفون عمَّة دافيد؟»

عائلة درواينز كانت من باريس، لكنهم لم يعلموا قط، أن لـ «دافيد» عمَّة تعيش في باريس. كلا، لم يكونا على معرفة بأي شيء. لم ينبسا ببنت شفة عن غياب الأب ووفاة الأم. على ما يبدو أنهما لم يستغربا التغيير الذي حصل في أثاث البيت، وقفا ككومبارس مدفوع الأجر خلف الكواليس التي تغير مظهرها. الحجرة الواسعة أصلاً بدت أكبر مما كانت عليه، الجدران أعيد دهنها بلون مشمشي موحد، وأيضاً تم تجديد الستائر، وأصبح لونها بيج فاتح مع ورود مطرزة بالأخضر، الوردي والأحمر. لمن أعد دافيد كل هذا؟ «لدراينز»، بالتأكيد لا، ثم لَوَّحْتُ للنادل الذي كان يمشي، وبيده صينية عليها وجبة من طعام بروسي، يدعى مقبلات شرائح سمك السلمون. استفضت في مدح هذه الأكلة البروسية، أمام الفرنسيين وشرحت لهما طريقة إعدادها ما جعلهما منبهرين، ثم وبعد إيماءة تركتهما يمضغان الطعام وحدهما.

اكتشفت دافيد ومنى في كُوَّةٍ. كانت منى مشرقة في هذا المكان كرسم ذاتي «لبرونزينو». وكان دافيد يُلِحُّ عليها، أما بقية المدعوين فقد تناساهم. الحفلة كانت كحفل أشباح، الضيوف بدوا وكأنهم لا يعرفون بعضهم مطلقاً، وليسوا أيضاً على معرفة بصاحب الدعوة!

«الآن، يا مارتين، هل يعجبك هذا؟».

«أشعر باحترام خاص لأعمال برونزينو»، قلت هذا بكل برودة ممكنة موجهاً نظري إلى منى. «وأين هو الآن؟».

«لم يكن للأسف من ضمن المجموعة التي كان جدِّي يملكها».

«ضيف الشرف، بالطبع هو من أعنيه!».

«أنا لم أفهم ما تقصده حتى الآن».

«هو أو هي، الذي أو التي كنت تريد بهذه الدعوة أن تقنعه أو تقنعها، بأنه ليس هناك شيء يمكن مشاهدته، أو أنه لم يعد موجوداً».

بدت على دافيد علامات الاستغراب: «من أين أَتَتْ لك مثل هذه الفكرة؟ لقد ضقت ذرعاً بعد كل ما حدث، بهذه الحجرات المظلمة. حتى وأنا طفل كنت أرى، وكأنني موجود في قصر من قصور البندقية. أظن أنني واحد من القليلين، الذين يمقتون مدينة البندقية من الأعماق. لتغرق المدينة بكاملها. لا أكِنُّ الكثير لما مضى. المشكلة فقط تكمن في أن الماضي لا يرحم، فالغرف التي تم تحديثها– أقول هذا بكل خصوصية– هي وَقْف، محاولة للتخلص من الماضي بصورة مرئية».

«ماذا تقصد بذلك؟».

«المجموعة الفنية، يا عزيزتي منى، هي إعلان للتواصل الروحي لعائلتنا. جدي بدأ في جمعها في الحقبة النازية، لقد صمت المرء عن ذلك، لكن اللوحات تتحدث عن نفسها. الشقة بكاملها وبما فيها من لوحات هي عبارة عن أشياء مصادرة من قبل القضاء. في الحقيقة، فإن إمكانية تفكيكها تبدو غير ممكنة، وعلى الرغم من ذلك، فقد تجرأت بالقيام بأول خطوة لإحداث هذا التفكيك».

في لحظة يصعب الإحساس بها لمس يدي اليمنى. فطفح النبيذ من الكأس وانسكب على أكمام قميصي، ثم تظاهر وكأن هذا حصل بالخطأ. لكنني أدركت، بأن هذا كان متعمداً.

«أردت أن أبرهن لك، بأنني نجحت في إجراء هذه التجربة الخطيرة، وهي كسر هذه الدائرة الملعونة، التي بقيت العائلة طيلة جيلين أسيرة لها».

حدَّقت منى به، وكأنه جعلها تنام مغناطيسياً. كنت سأقسم أنها

وفي مثل هذا الوضع ستبدأ بالصفير بشكل تظاهري واضح. غير أنها كانت مأخوذة بـ «دافيد». كأنه أصابها في وتر حساس، ليس لي المقدرة على معرفته، لذا يجب علي أن أبعدها من هنا، قبل أن يحدث شيء غير متوقع. بأي طريقة، حتى لو اضطررت لحملها.

«إذاً لماذا لم ترحل من هنا؟».

«أنا، ومنذ فترة طويلة، لا أقيم هنا بشكل دائم، لقد درست في نيويورك، وبعد ذلك انسحبت وسكنت في الريف. وحتى...»، وجَّه دافيد نظره إلى حذائه– غالي الثمن، جلد حصان، لون أحمر داكن، مستخدم بشكل جيد، ، لم أره يلبسه من قبل– «... في أثناء غيابي لم أسلم غرفتي بشكل نهائي. أمي... كنت متعلقاً جداً بها. لم يشجعني قلبي».

رن في أذني صوت إدفيجه، التي حدثتني عن الأم والابن، بدون طلب مسبق. قصتها كانت مختلفة. لابد أن واحداً من الاثنين يقصّ خرافات.

«أنا أشبه أمي إلى حد بعيد، حتى الشعر».

ما هذا الهراء؟ ما الذي يقوله دافيد هنا؟ لـمَّحتُ لمنى بالإشارة، أن علينا أن نذهب، لكنها لم تأبه بذلك.

«دافيد برلنسامت، قل لي ما هو برجك؟ ومتى ولدت بالضبط؟».

لا، ليس هناك داع الآن لهذه الخرافات. فأنا لا أهتم بقراءة الفنجان، ثم تركت الاثنين وحدهما. في نفس اللحظة أخذت أنا وسيدة ترتدي المخمل الأزرق كأساً من الصينية وقدمت نفسي لها، تصرفت وعلى خلاف بقية الضيوف، دون استغراب.

«فرصة سعيدة، أنا كارين نتلبك».

«كيف علي أن أصنفك؟ أأنت صديقة لعائلة برلنسامت؟».

«صديقة؟ لا أظن أن لهذه العائلة أصدقاء، خيول ميريام برلنسامت موجودة في نفس الإسطبل الذي توجد فيه خيلي. كنا نعرف بعضنا من ركوب الخيل، ونساعد بعضنا أحياناً، وخاصة في الإجازات. لقد تعرفت على دافيد في مراسيم دفن أمه. وفي وقت ما اتصل بي، وسألني عما يجب عليه أن يفعل بالخيل، ثم دعاني إلى هذه الحفلة. إنه لشيء غريب، هذا الذي يحصل هنا، أشعر وكأنني في القرن الماضي. هل هو عصر ويليام؟».

«أنا، وللأسف، لا أفهم بطراز الحقب الفنية. هل أنت لأول مرة في هذه الشقة؟».

«بالتأكيد، وهذا بسبب وفاة ميريام. كان من الواضح أنها ستغلق الباب بالمسامير، قبل أن تأتيها فكرة توجيه دعوة لأحد».

عندما عدت مجدداً للبحث عن منى ودافيد، لم أجد أحداً، كان في هذا المكان من قبل. قد يكون من الممكن، أن أكون الإنسان الوحيد الذي شاهد هذه الشقة في حالتها السابقة. لا أثر «لبرلنسامت» ومنى. بدا وكأن أحداً لا يفتقد المضيف، بحثت عن الاثنين ووجدتهما في ممر خلفي.

«... قبل وقت من تلك الليلة، التي أطلق والدي النار عليها، تعرضت لنوبات ربو متكررة. لذلك قررت الإقامة هنا لفترة من الزمن. كنت أريد أن أكون قريباً منها، إذا ما احتاجتني. لذلك كنت في الفترة الأخيرة غالباً ما أكون في البيت، ليلاً ونهاراً، ولذلك فاجأت أبي، فقد شعرت بأن شيئاً كهذا سيحصل».

لماذا تحدث معها حول هذا الموضوع؟ لم يتحدث معي إطلاقاً عن

موت أمه.

«لماذا أطلق والدك النار على أمك وهي نائمة؟».

«لماذا يقتل المرء إنساناً نائماً؟ لأن القاتل يخاف أن ينظر في عيون الضحية. قد تكون الضحية ليست ضحية، وإنما المجرم».

إذا فلديه نظرية.

«لو تردد المرء للحظة، لما كانت الجريمة ستقع. لا أدري، كل ما أعرفه، أنه كان يريد أن يموت معها».

كانا واقفين طيلة هذا الحديث في ممر مظلم، يديران ظهرهما لي.

«أين حصل ذلك؟» سمعت منى وهي تسأله.

«في الغرفة الأخيرة في نهاية الممر. لم أدخل الغرفة مطلقاً، منذ أجريت التحقيقات فيها».

لم ينظرا حولهما، للتأكد من قدوم أحد ما، فقد كانا متعمقين في الحديث.

«ألا يثيرك السؤال، عن السبب؟ ألم تسأله أبداً؟».

«أتستغربين الأمر، يا عزيزتي منى، لكن عليك أن تفهمي، بأنني ومنذ أسابيع لا أخشى شيئاً مثل خشيتي من هذا السؤال. أنا أتألم ليلاً ونهاراً، دون أن أتمكن من مواجهة والدي المسكين بالأمر».

«لا تستطيع مواجهته بالأمر؟» للمرة الأولى في هذا المساء أتعرف على نبرة صوت منى. «إنها أمك التي قتلها. مَنْ غيرك له الحق في معرفة، لماذا فعل، ما فعل».

دافيد واصل حديثه دون تعب. «والدي مصاب بصدمة، لهذا لن أتمكن من الحصول منه على كلمة عقلانية. عدا عن ذلك، هناك شيء بين الرجل والمرأة، لا يمكن للطفل أن يصل لمعرفته. والدي كان يريد،

أن يموتا سوياً، لقد كان هذا سر زوجين، وأنا رهينة لنظرياتي المتضاربة، لذلك أبحث بطريقة أخرى عن جواب لذلك. تعالي معي».

سحب منى معه إلى حجرة، وترك الباب مفتوحاً على وسعه. تبعتهما، لم أصدق ما رأته عيناي. كانت الحجرة –باستثناء ضوء ينبعث من شمعتين– مظلمة. ضوء الشموع زاد إلى الضعف بفعل انعكاسه على مرآة مقابلة، في وسط الحجرة تربعت امرأة، على كومة من الوسائد الشرقية. كانت شفتاها تتحركان ببطء. لم يسمع أحد شيئاً.

«ما هذا؟».

«ماري أندراموفيتش. إنها وسيط روحي».

لم أتمكن من السيطرة على نفسي لفترة أطول فقلت: «هل تؤمن بمثل هذه الخرافات؟».

«لا ترفع صوتك يا مارتين، أنت تزعج الحقل الذي هي فيه. لنقل ذلك، أنا لا أعتبر السحر من السخافات، فهناك حقول مغناطيسية، وهذا مثبت فيزيائياً».

«نعم، وحركة الكواكب والنجوم، المسارات، ما تجذبه وما تقذفه..».

«صحيح جداً، يا منى. إنه شأن فيزيائي. يجب أن يكون المرء موهوباً. وأن يتعّلم المقدرة على التركيز، التي بدونها لا يمكن الوصول إلى المسرب الصحيح. كما عليه أن يتعلم الاستماع لهذه المجالات، تماماً كما يتعلم طبيب الأشعة قراءة صورة الأشعة. ماري هي من أفضل نساء هذه المهنة. أصلها من روسيا، وتعلمت في نيويورك على يدي آدلايد برايد، إنها امرأة عظيمة في هذا المجال.

عندما سمعت بهذا الاسم، شرقت بالهواء الذي تنفسته. بنوبة حادة

من السعال خرجت من الحجرة. آدلايد برايد. ربما أخطأت السمع. وددت لو أخطأت السمع. مرت فترة من الزمن، إلى أن هدأت قصباتي الهوائية. وأخيراً جاءت منى ودافيد من الحجرة السحرية، بدت منى متأثرة، كانت منطوية على نفسها وصامتة. دافيد، الذي لاحظ بوضوح استغرابي لكل هذا، غير أسلوبه بصورة مخادعة.

«أنت لك رأي آخر يا مارتين، أليس كذلك؟ إذاً فاسأله أنت. قُم بزيارة لوالدي واسأله، لماذا قتل زوجته، ربما تستطيع أن تحدثني بعض الشيء عن والدي. ماذا تعرف أنت عن والديك؟ كل شيء؟ أظن، أن كافة الأبناء لا يعرفون إلا القليل القليل عن آبائهم. أنت لا تعرف عائلتي. إنها– ككل العائلات: لعنة، شؤم، حنين. إنها كحجر يشد المرء بقوة إلى القاع، وعلى الرغم من ذلك، لا يريد أن يتخلى عن الإمساك به. إنه وكأن المرء، مثل الجميع، ينتمي إلى القاع. نعم، افعل ذلك. زره،» كرر ذلك، «كصديق لي واسأله، ماذا سيحدث للوحات. ربما يفتح نفسه ولو قليلاً لغريب. ربما تجد المدخل إليه، الذي منعني، أنا ابنه، من الوصول إليه».

دافيد نظر إليَّ بإلحاح. هذه النظرة أثرت بي إلى حد الغرابة.

«سأفكر بذلك. سأذهب الآن. يوم غدٍ هو يوم عمل عادي، للأسف. منى، هل ستأتين معي؟».

هزت رأسها بالموافقة.

أمر برلنسامت بإحضار معاطفنا. عندما ودعناه استدرت مرة أخرى، لم أتمكن من التنازل عن هذا السؤال.

«قل لي، ما اسم «المرأة العظيمة»، الساحرة، التي سميتها قبل قليل؟».

« آدلايد برايد، لماذا؟ هل يهمك الموضوع إذن؟

أجبت بالنفي. أنا لم أسمع ذلك بالخطأ، وأنا في سريري ظللت أهز رأسي، مردداً آدلايد برايد. إنه أمر مثير للضحك، أو ربما للبكاء؟ روزي، مرة أخرى، ومن جديد. أمر غير قابل للتصديق، وضعت أصابعها في كل لعبة. كيف تفعل ذلك؟

الحادي عشر

كان لذلك المساء تأثير غريب على مني.

«كان ذلك موحشاً، وكان عندي شعور، أنك كنت الوحيد الذي تعرفه عن قرب».

«ولكنكِ غازلته، وقد تسليت معه، وكنت متأثرة بمشعوذته».

«هذا ليس صحيحاً على الإطلاق. أنت تتخيل ذلك».

«هل تتقبلين منه سبب الجدار العاري؟».

«أنا لا أصدق شيئاً من برلنسامت. إنني آسفة، لأنني لم أر الصور. أما الباقي فلا يهمني».

أنا لم أصدقها، كما أنني لم أجرب مطلقاً أن أوضح أي شيء. أنا لا أفهم النساء مطلقاً. حتى طلبها مني، أن أساعدها في اختيار ما ترتديه، كان مستهجناً.

بعد الحفلة كان لدي شعور، بأن علي أن اتصل ببرلنسامت، حيث تبادلنا الحديث حول مواضيع تافهة، إلى أن سألته، عن سبب اختفائه قبل الحفلة بوقت قصير، وأخبرته بأن عمَّته استقبلتني. دافيد كان في زيارة أبيه في السجن، وحين عودته إلى البيت كانت نفسيته مهتزة، وهذا ما قاده للانسحاب لبعض الوقت. ذهب في البداية لعزبته الريفية، ثم سافر إلى البحر، ليس إلى البحر الذي رسمه كوربيت في لوحاته. فقط إلى بحر البلطيق، وعلى كل حال كانت مياه مع أفق وحركة. يوزيدوم *Usedom* [1]، كانت قريبة وخلفها تقع بولندا. بولندا. سأل، إن كنت

---

(1) جزيرة في بحر البلطيق مقسومة بين ألمانيا وبولندا.

أفهم ما يقصده؟ لقد ذهب عبر الحدود ولأول مرة في حياته، يذهب إلى بولندا، سراً، لم يجرؤ على ذلك من قبل، كما أنه لم يجرؤ على الذهاب إلى فرنسا، لكن هذه قصة أخرى. دول أوروبا الغربية القديمة لا يمكن لأحد سرقة روحها أبداً. بولندا على العكس من ذلك– هذا الإذلال من طرف النازيين... هو، أي دافيد برلنسامت، تسلل عابراً الحدود، مروراً بالتجار السعداء، الذين يبيعون في الصيف التوت البري والفطر. مشى على قدميه باتجاه سوينِموندِه *Swinemünde* [1]. مثل متجول عادي جداً عبر الغابة، وبعد ساعتين اضطر للعودة، فلم يعد قادراً على تحمل أكثر من ذلك، خجل، انتابه شعور بالبؤس.

لم يتمكن ببساطة من مواصلة السير، وكأنني كنت أعرف مثل هذه النوبات من الشعور بالذنب؟

«من أين؟».

لم يكن لدي أدنى معرفة، عن الذي كان يتحدث عنه. بولندا، هذا جيد، إنها ليست بلداً محظوظاً. لكن ما سبب خجله؟ بالطبع لم يكن قد دخل بولندا كمحتل.

دخلت المدام وسألتني، عما إذا كنت سأشعل في كل مساء ناراً كتلك. كان عليَّ أن أفكر، بأنه لم يعد لدينا الكثير من الحطب. الاستهجان كان باديا بوضوح في نبرتها. ربما تفكر، أن الأمريكيين يميلون للتبذير. إنه منظر درامي، عندما يحترق الورق في النار كل مرة، كيف يتقوس الورق ثم تأكله ألسنة اللهب. كنت أهمّ بقراءة الملاحظة التي كتبها لي ألفرد برلنسامت، لكن المدام وقفت مجدداً في الباب.

«سيدي، هناك سيدة على الهاتف تريد الحديث إليك، من برلين».

---

(1) مدينة بولونية تتوزع أراضيها على عدة جزر في بحر البلطيق ومنها جزيرة يوزيدوم.

«لقد عاد من جديد للظهور، لقد مر إلى هنا ببساطة، وسأل عنك».

عندما سمعت صوت منى، وددت لو أتمكن من قطع الاتصال فوراً، فليس فقط عملية الحرق الملعونة للورق، التي يؤلم قلبي إفناؤها، وتحمل جزءاً من الخريف الماضي إلى بروكسل، وإنما أيضاً صوت منى يقوي الانطباع، بأنه لا يمكن وضع نهاية للقصة.

«مارتين، أرجوك، قل أي شيء. أنا خائفة منه، لقد أخطأت».

بعد زمن قصير من حفلة دافيد قررت فعلاً أن أزور ألفرد برلنسامت في السجن. أتذكر جيداً ذلك الصباح، الذي ذكرني هواؤه الصافي وسماؤه الزرقاء بنيويورك، بطفولتي، بالخريف في شمال نيويورك، الذي كان بفعل ألوانه المتضاربة والساطعة، أكثر طولاً من حيث الزمن وأكثر خريفية منه في أي مكان آخر. في هذا الصباح سألت نفسي كم من الوقت مرّ علي، دون أن أذهب إلى هناك؟ المرة الأخيرة كانت في فترة أعياد الميلاد قبل ثلاث سنوات. ولكن المرة الأخيرة التي رأيت فيها يوماً خريفياً كهذا في نيويورك، أو شمال نيويورك كانت أبعد من ذلك بكثير، دون رؤية هذه الألوان الساطعة والمختلفة للطبيعة، ودون أن أشم رائحة أوراق الخريف التي تنعكس عليها أشعة الشمس. فجأة افتقدت بساطة مدينتي، وددت لو أنني أعود ولو لساعة واحدة إليها، فقط لكي أستمع لصوت أبواق السيارات التي تشق طريقها بكسل عبر الشوارع الضيقة، الحركة في وسط المدينة، الضباب الأبيض خلف المدينة. في وسط المدينة وعند انعطافات الشوارع تبدو مانهاتن كرقعة شطرنج نائمة على الماء، أحببت أن أكون هناك ولو لعشر دقائق. لأرى الحي الوحيد الذي تبدو فيه المدينة كمتاهة. أحتاج لناطحات السحاب

لكي أحدد موقعي على الأرض.

مررت عبر الحاجز الإلكتروني لسجن مؤابيت *Moabit* [1]، سلمت بطاقتي الشخصية واستلمت عوضاً عنها ميدالية كلاب[2]. أحد الموظفين دعاني للدخول عبر ثلاثة أبواب من الحديد الثقيل، إلى أن وصلت إلى حجرة فارغة، أمامي حاجز زجاجي يفصلني عن حجرة أخرى. بعد عدة دقائق ظهر رجل مسن خلف الواجهة الزجاجية. بينما كان واقفاً يتفحص الزائر، الذي لم يكن اسمه يعني له أي شيء، بحثت أنا في ملامحه عن أوجه الشبه مع دافيد. الصور التي نشرتها الصحف، أظهرت الفرد برلنسامنت دائما على أنه ذو شعر قصير، أشقر مع بعض

خصلات من الشيب، طويل القامة، عريض المنكبين، بجاكيت من الصوف الخشن، وقميص مع ربطة عنق. والبقية الباقية من المواصفات التي تجعل المرء أنيقاً ومحافظاً في آن معاً. السجين الذي يقف أمامي كان ذا شعر أملس كامل البياض، يصل طوله حتى الكتفين. بدلته فاتحة اللون كانت وكأنها علقت عليه دون ترتيب، مجعدة، بركب مكورة. كان حافياً في صندله، من خلال الجلد المشقق انفرجت أظافر قدميه، طويلة كمخالب الطيور الجارحة. شيئاً فشيئاً بدأ يتوجه نحوي، وبحركة خرساء، دعاني للجلوس وكأنه سيد البيت. ضغطت على مفتاح تشغيل الميكرفون ونقلت له تحيات دافيد، هز رأسه وصمت لبعض الوقت، ثم سأل، فيما إذا كان بإمكاني أن أحضر له طعاماً صينياً، فطعام السجن مسموم. لم يبق له الكثير من الوقت، وعدته أن أنقل هذا «لدافيد». ثم كان علي مرة أخرى أن انتظر وقتاً طويلاً لسماع الجواب.

---

(1) سجن يقع في حي مؤابيت في برلين.

(2) المقصود ميدالية معدنية تسلم للزوار في السجون.

«دافيد لا يزورني مطلقاً».

«ولكنه كان هنا قبل فترة قصيرة هنا».

هز ألفرد برلنسامت رأسه. «حتى ولا مرة واحدة. بتاتاً».

عندما تحدثت فيما بعد مع دافيد حول ذلك، قطب جبينه.

«أخشى أن حالته سيئة جداً، ذاكرته لم تعد تعمل، يبدو أنه لا يستطيع تذكر ما يفعله أو يعيشه الآن. وخلافاً لذلك فإن السنوات الفائتة بدأت تأخذ حيزاً أكبر في ذاكرته، تماماً كما هو الحال عند الطاعنين في السن. لكنه ليس طاعناً في السن، إنه لم يصل السبعين من العمر. إنني قلق جداً عليه. إنه يفتقد أمي، وإلا فمن أين أتت هذه الفكرة الجنونية التي تلاحقه، أقصد موضوع السم؟».

«إذاً فقد أتيت لتنقل لي التحيات من ابني. لماذا لا يأتي هو شخصياً؟ أنا أقولها لك: لم يعد لي ابن، ابننا مات».

قلت له بأن دافيد حي يرزق وأنه شجاع. إنه دائم التفكير في إرث العائلة، وبالدرجة الأولى بالطبع المجموعة الفنية. ولكن ألفرد لم يتأثر بكلامي.

«مجموعة فنية»، كرر بهمس غير مسموع.

«نعم، أعني اللوحات الفنية. دافيد يشعر بأنه يتحمل مسؤولية هذه المجموعة الفنية، التي جمعها والدك. هل تريد أن تبقى هذه المجموعة الفنية وحدة متكاملة؟ هل تعني لك وصية والدك شيئاً؟».

«وصية والدي».

لم يضع شيئاً محلاً للشك. *الجملة* التي أعاد ترديدها بدت فارغة، وكأنها لا تعنيه بشيء.

«سيد برلنسامت، هل تتذكر الموجة، لوحة كوربيت الرائعة؟».

«لوحة كوربيت».

أصيب بالخرس، ثم ضحك بصوت عال، بدا وكأنه قد أصيب بمسٍ من الجنون، أو فقد عقله، وفي اللحظة التي أردت أن أودعه فيها، لأنني اعتقدت أن لا فائدة ترجى من استمرار الحديث مع هذا الرجل، طرح عليَّ هذا السؤال.

«هل كنت صديقاً «لدافيد»؟».

أجبت بنعم، فيها نوع من المبالغة.

«إذا كنت صديقاً «لدافيد»، فعليك أن تعتني أنت الآن بكل شيء. بالبيت، بالتركة الموجودة في حقيبة ملفاتي، وأيضاً بزوجتي».

«سيد برلنسامت، زوجتك..».

«هل هو كثير ما أطلبه منك؟ إذا كانوا يحتجزونني بدون سبب، فلا بد أن يكون ممكناً، أن يعتني أحد بأمر زوجتي المسكينة».

إنه يعيش في عالم آخر، عالم من الواضح فيه، أنه لم يُطلق فيه النار على زوجته.

«شكراً لزيارتك لي. ما اسمك؟».

«ساوندرز، يا سيد برلنسامت، مارتين ساوندرز».

وقف ألفرد برلنسامت وأومأ برأسه، ثم ذهب دون أن ينبس ببنت شفه. عندما نظرت إلى الساعة، لاحظت أنه لم تمضِ سوى دقائق قليلة.

«منى، أنا، أنا لا أستطيع مساعدتك»، قلت ذلك وأغلقت خط الهاتف. حالة غريبة من الشعور بفقدان الصواب حلت بي، وكأن أحداً سحب الأرض من تحت أقدامي. أو كأن قصة غريبة محت قصتي.

الثاني عشر

أوتو آبتس، سفير هتلر في باريس في الأعوام ما بين 1940 وحتى 1944، حكم عليه هناك في عام 1949 من قبل محكمة فرنسية بالأعمال الشاقة لمدة عشرين عاماً. رجل ذكي، مُتحدث بليغ، ومخادع كما تؤكده سيرته الذاتية. المعلم السابق والمنحدر من الطبقة الوسطى استطاع أن يرقى إلى أعلى المستويات، طموح لا يعرف الكلل. هكتور فيليسيانو وقع في خطأ آخر، عندما كتب، أن آبتس قضى من العقوبة التي فرضت عليه عشر سنوات في السجن، فالدبلوماسي المصنوع حسب المواصفات، أخلي سبيله بعد خمس سنوات. وخلافاً لرئيسه، تاجر المشروبات الروحية والوزير اللاحق ربنتروب، فقد كان محبوباً، حتى في فرنسا. ربما كانت هذه المحبة سبباً في إخلاء سبيله المبكر. فقد كوّن لنفسه حلقة سرية من المشاهير في باريس. دريو لا روخل كان من ضمن أصدقائه الحميمين، إضافة إلى جان لوشير الذي سبق ذكره، الصحفيين جوهاندو، شاردون... بهمة عالية قام آبتس، وبعد أن سمح أن يتصرف وكأنه حاكم مدينة باريس، كما قام بإفراغ القصور اليهودية من محتوياتها، مُدَّعياً الحفاظ على الفن من منافسه روزنبيرغ. فجأة بُدئ بتعليق عدد ليس بالقليل من هذه اللوحات التي يعود أصلها لمجموعات فنية خاصة في المقر الألماني، وقد نسي هذا تماماً في أعقاب العفو العام الكبير بعد عام 1945.

بعد خروجه من السجن عاد أوتو آبتس إلى ألمانيا وأصبح عضواً في الحزب الليبرالي الألماني الحر FDP. صديقه الحزبي أرنست أشنباخ نعته بأنه إنسان عبقري. بعد العفو من القضاء جاءت تهمة القذف. فهل

لهذا أي معنى؟ كلما ازدادت معرفتي «بدافيد» وعائلته، كلما تزايد طرحي لهذا السؤال على نفسي.

لكن المرء لا يستطيع الهرب من الأهوال بطرح السؤال عن المغزى. لو صَدَقَتْ ملاحظة أمي روزي، فإن الروح الألمانية المُهانة، المُمتزجة بحنينٍ هائلٍ وجوع فتاك، هي التي وهبت الناس أمعاءً مليئة في الزمن النازي. كانت الحياة اليومية، كما رأتها روزي، تجارة عفنة. كان المهم فقط هو التمسك بالبقاء، أما البقية فكانت صورة عكست الشر بشكلٍ غير مباشر. لم تكن متأكدة إذا كان هذا هو الشر بعينه أم هَجينة. بالطبع لم تقل روزي هجين، قالت مخلوقٌ سحريٌّ مشوه. هذه كانت لغتها. أحياناً كانت تقول أيضاً طفلٌ مُعاق.

لم تفصح روزي عن رأيها حول النازيين بشكل مباشر. لم تقل أبدا، ماذا كان والداها يفعلان أو لا يفعلان. الشكوى والتبريرات الشخصية، كانت بالنسبة لها من المحرمات. هي شخصياً، كانت قد ولدت في منتصف الثلاثينات، كانت صغيرة جداً لأن تكون قد فعلت شيئاً. فقط ذكرت وفي إحدى المرات، أنها نشأت في شعور غير واضح المعاني، ولم تكن في ذلك الوقت قادرة على العثور على الكلمة المناسبة التي تصفه بها، وفيما بعد سمته خرافات متوهجة بامتياز، أهم مواصفاتها الاستسلام والإجلال، ثم تابعت، بأن لا شيء ولا أحد كان قادراً على التمييز. لم تكن تعرف، أين يبدأ الإنسان وأين ينتهي، وقد كان لهذا تأثير بالغ عليها، هذه الكمية من الأمواج البشرية التي كانت تتداخل في بعضها، أناس لم يكونوا معروفين لأحد، كانوا يشدون أحداً أو كانوا يحاولون أن يندسوا داخله. كان لديها دائماً رؤية دينية إلى حد ما، بأن الخلاص آت. ومع انتهاء الحرب، حل الإحساس بالقرف محل الأمان.

شعرت بأنها اكتشفت نفسها وهي في وضع رغم جماله الظاهري، إلا أنه بشع. أخيراً وبعد أن تراجع الاستسلام، بدأت تشعر بأنها أصبحت تكبر شيئاً فشيئاً، المحتويات كشفت عن نفسها الآن. هذا كان بعد الحرب، في نهاية الأربعينات، وفي بداية الخمسينات كانت روزي- التي بلغت للتو السابعة عشرة من عمرها- حاملاً بي، وعندما وصلت إلى نيويورك، سألت نفسها، إذا كان من الممكن أن ينتشر هذا المرض في البلد الجديد؟ كانت متفهمة، لأن يُفحص الجميع، وفي كل زاوية في المجاري السمعية والجيوب الأنفية وتحت أجفان العيون، بحثاً عن الميكروبات والجراثيم والفيروسات. كنت على قناعة تامة بأن تأثير الخرافات لا يعرف حدوداً، فكل ركنٍ كان يُهدد بالمخاطر.

بعد زيارتي لوالد دافيد بالسجن، عدنا أنا ودافيد للقاء بشكل دوري. في إحدى تلك الأمسيات كان برلنسامت يهم بسحب فلينة زجاجة نبيذ فاخرة. «من السنة التي ولدت فيها»، قال مازحاً. كان يحب مثل هذه الملاحظات ولم يكن يملّ من تكرارها، وفي وقت لاحق، شككت في أن يكون قد امتلك ولو حتى زجاجة واحدة من تلك السنة. تخيلت كيف كان دافيد يعبئ الزجاجة الفارغة بنبيذ آخر، مع توخي الدقة والحذر، حفاظاً على الورقة الملصقة. على أية حال فقد كان النبيذ من النوع الفاخر، حتى لو كانت الورقة الملصقة لا صلة لها بالحقيقة.

اعتدت أن أمرّ بعد دوامي في المكتب، وتقريباً بشكل يومي على دافيد. كانت أمسيات مريحة، دافيد كان مغرماً بالموسيقى الكلاسيكية، وأكثر ما كان يحب موسيقى جسوالدو *Gesualdo* [1] وبورشل *Purcell*[2].

(1) كارلو جسوالدو 1566—1613: أمير وموسيقار إيطالي.

(2) ربما يكون المقصود هو دانييل بورشل أوأخاه هنري وكلاهما كان موسيقاراً.

هذا الولع كان يعكس نفسه في أحاديثه. دافيد كان يتطابق بالضبط مع الصورة التي رسمتها في مخيلتي عن ألمانيا كأسطورة. لأول مرة في حياتي، أشعر بأنني أقف أمام مدخل العالم الذي حرمتني منه روزي، على الرغم من استغرابي لنظرة دافيد المتغطرسة تجاه أمريكا، وكأننا جميعاً لا نفكر إلا بلغة الرصاص، لكن هناك شيء آخر، فقد بدأت أشعر بميلٍ متزايد تجاه دافيد، وأن هذه الجاذبية ترتكز على طبقة عميقة، حيث كان يقودني إلى شيء، لم أكن أعرف أنه موجود في الأصل.

بدا دافيد في هذا المساء غارقاً في التفكير. كان مصراً على سماع رأيي حول ما عليه أن يفعله بالشقة والمجموعة الفنية.

حمل الزجاجة في يده، وحدَّق في الورقة الملصقة عليها، كان يريد أن يقول لي شيئاً. ربما يعتقد بأنني سأستاء منه، وربما سيقود ذلك حتى إلى تخريب الصداقة. لكن ومن وجهة نظره، أنه من الضروري، أن يكون المرء صادقاً مع أصدقائه.

«اسم عائلتنا، وكما تعرف، ليس برلنسامت».

استراح قليلاً ثم أضاف:

«أنا، أنا لم أستطع أن أقول لك ذلك على الفور، فلقد أصبحت أتوخى الحذر في حياتي. البعض يتصرفون– باستياء – حيال مثل هذه الصراحة. لكنك أفضل صديق لي، ولا بد أن تعرف ذلك. اسم عائلتنا هو آبتس. جدي كان سفير هتلر في باريس.

كان ما زال يحدق في الورقة الملصقة على الزجاجة.

«عندما عُبئ هذا النبيذ في الزجاجة، كان ما يزال في السجن، حيث حُكِمَ عليه بالسجن لمدة عشرين عاماً، قضى منها عشر سنوات. كان متزوجاً من فرنسية، ابنة الصحفي الشهير لوشير».

عندما اعترف دافيد بهذا، لم أكن أعرف شيئاً عن آبتس. كنت أعرف، أنه كان سفيراً وأن له باعاً طويلاً في عمليات مصادرة الأعمال الفنية، ولم أكن أعرف شيئاً أكثر من ذلك. إذاً كان هذا هو رئيس المنظمة، الذي بحثت عبثاً عنه. وحتى بالأحلام لم أكن اعتقد أنني سأتوصل إلى أوتو آبتس. وضع دافيد الزجاجة. جلسنا لوهلة من الوقت صامتين، قبالة بعضنا، ثم وقف وذهب، وعاد حاملاً بيده شيء يشبه إضبارة، ثم سحب من الملف ورقة وأعطاني إياها.

كانت نسخة لمقال صحفي مؤرخ في 1958/5/6، *تعرض السفير الألماني السابق في باريس أوتو آبتس برفقة زوجته يوم الاثنين على الطريق السريع بالقرب من لانجنفيلد إلى الجنوب من دوسلدورف، إلى حادث سير أدى إلى مقتله. ولأسباب غير واضحة حتى الآن عبرت السيارة الخط الفاصل بين الاتجاهين وسارت بالاتجاه المعاكس واصطدمت بسيارة أخرى... وهبت فيها النار مما أدى إلى احتراقها بشكل كامل. السيدة آبتس كانت قد قُذفت من السيارة قبل ذلك. سائق السيارة الثانية، وهو مهندس من هوزل* *Hösel* [1]، أصيب بإصابات خطيرة. هذا ولم يشر المقال بأية كلمة، بأن صبياً صغيراً كان شاهداً على الحادث.

«قيل إن مقود السيارة كان معطوباً، الجَدَّان كانا قد حصلا قبل وقت قصير على سيارة الفولكس فاجن من صديق فرنسي، لقد كان لهما أصدقاء كثيرون في فرنسا، من المشاهير، وحتى في أيام الاحتلال. وكان من بين هؤلاء مقاتلين في المقاومة إلى جانب فاشيين وعملاء. يقال إن جدي قد عمل في تهريب الأعمال الفنية إلى ألمانيا، وحرق الكتب وتهجير اليهود. ولكن وحتى في الخمسينات كان ما يزال لهم

---

(1) أحد أحياء مدينة راتنغن Ratingen في مقاطعة نورد راين فستفاليا الألمانية.

أصدقاء هناك، وبالرغم من أن محكمة عسكرية في باريس أدانت جدي في عام 1949، فقد كان يُحب فرنسا، قبل أن يصبح سفيراً بوقت طويل، وحتى بعد الحكم عليه. والدي بدّل اسمه، فلم يعد قادراً على تحمل أن يُسمّى آبتس، فقد كان ذلك يعذبه، تماماً كما كانت تعذبه هذه التركة، وهذه اللوحات».

أشار دافيد بحركة من رأسه إلى الجدار العاري.

«كان يسأل نفسه مراراً وتكراراً، فيما إذا كان عليه أن يبيع هذه الصور. وكان يعدّ كونه ابناً «لأوتو آبتس»، لعنة عليه. لقد حاول أن يتستر على أصله. أما أنا فأرى الأمر على خلاف ذلك، فمواجهة الصفحة السوداء للعائلة، هي مواجهة الذات، وأوجه الشبه في التاريخ تتطلب عزة وشجاعة والنظر إلى الحقيقة في الصميم.

إن علينا واجباً يجب أن نقوم به».

دافيد لم يقل بشكل مباشر بأن ما هو مُعلّقٌ على الجدار لم يكن سوى فنٌ مسروق.

«هل لديك فكرة، عن مصدر هذه اللوحات؟».

«إنه لمن المستحيل، الحديث مع أبي حول ذلك، هذا الموضوع كان دوماً من المحرمات. المجموعة الفنية هي ملك لعائلتنا. لقد، علمت من أمي، بأن أبي لم يكن يتوقع أن يرى هذه اللوحات أمامه، عندما دخل هذه الشقة لأول مرة. فقط وبعد مقتل جدي وجدتي، في ذلك الحادث، عرفنا بأن هذه الشقة جزء من إرثٍ لم نكن ننتظره، فقد كانت ملكاً لعائلة آبتس عندما كانت تعيش في برلين. جدي كان يعمل لشركة ربنتروب ***Ribbentrop*** كمدير لقسم فرنسا، قبل أن يُرسل كسفير إلى باريس. وكان قد ذكر لأبي في إحدى المرات، بأن العائلة تمتلك شقة

كبيرة في غرب برلين. لكن وبعد اعتقال جدي والحكم عليه، اعتقد والدي بأن الشقة لم تعد موجودة، منذ زمن بعيد. كما ظن أن كافة أملاك عائلة آبتس قد بقيت في المقر الباريسي؛ حيث جرى مصادرتها بعد الهرب والاعتقال اللاحق هناك في المنطقة التي قضى فيها طفولته. جدتي ذهبت فيما بعد مع أبي وإدفيجه إلى راين لاند. ثم تبعهم جدي، حيث قضى في ذلك الحادث بالقرب من لانجنفيلد. وقد دفنا بالقرب من كارلسروه *Karlsruhe* [1]، على ما أعتقد».

«إدفيجه– تسمي نفسها آبز Abèz..».

«الصيغة الفرنسية لنطق الاسم».

«قالت بأنها ولدت في برلين، في مكان ما من حي بافاريا...» نطقتُ بهذه الجملة بلا رغبة.

«من الممكن أن تكون جدتي قد عادت أولاً إلى برلين، لأنها لم تعرف، إلى أين كان عليها أن تذهب. لا أعرف ذلك بالضبط. لكن وبما أن إدفيجه تقول في حي بافاريا، فإن هذا أفضل دليل على أنهم احتفظوا بسرية هذه الشقة عن أبنائهم».

«و إدفيجه، ألم تسألها عن اللوحات؟».

«لم تكن تهتم بها».

«كان على والدك، أن يحاول البحث عما هو مسروق منها، وذلك من أجل إعادة الصور لمالكيها الشرعيين، ربما كان هذا سيخفف العبء عنه. ففي نهاية المطاف لم يكن هو المذنب، فقط، الإرث. كان عليه في ظل المأساة التي يعيش فيها– آسف –، أنا...، أقصد..».

قاطعني دافيد:

(1) مدينة في غرب ألمانيا إلى الشمال من شتوتجارت.

«نعم، بالتأكيد، كان هذا سيكون جديراً بالاحترام. أنا تمنيت لو حصل ذلك، لكن لم يكن من الممكن فعل أي شيء. في بعض الأحيان كنت قريباً جداً من أن أقوم بذلك بنفسي. ولكن حالة أمي الصحية، إضافة إلى ذلك، وكما تعرف، حجم الصعوبات في عملية البحث. فالكثيرون من المالكين السابقين، يعيشون في جزء آخر من هذا العالم، في مكان ما بين استراليا ونبراسكا. هذا فيما لو كانوا ما يزالون على قيد الحياة، فإنهم يحملون في أغلب الحالات أسماء أخرى. حاول أن تعثر عليهم. في الغالب على المرء أن يفتش عن الورثة المحتملين. من أين لي أن أدفع تكاليف هذا البحث؟ إنها مهمة حياة. لكن ربما سأفعل هذا بالضبط الآن».

أخيراً فهمت الموضوع. بالطبع كنت أتناول هذا الموضوع يومياً في الشركة، لكنني لم أتعرف على أحد، شكلت له هذه القصة تهديداً حتى الاختناق بهذا الشكل.

«لا بد أن يكون الأمر في غاية الصعوبة بالنسبة لك، حتى لو- أو لأنه ليس لك ذنب فيها».

«أنت متفهم للأمر، رغم أنك غير قادر على استيعابه، فهذه قضية ألمانية أصيلة، قضية الذنب. بالطبع لا يستطيع أحد ما أن يرث مثل هذه القضية. مع ذلك يشعر المرء وكأنه ورثها. ثم يبدأ المرء بالبحث والتفتيش، كمن يبحث عن تشابه الوجوه والصفات الشخصية. فلا يجد مخرجاً منها».

«لقد أعجب الناس بهدوئك ورباطة جأشك أمام المحكمة. وهذا ما نشرته الصحف». .

«هذا ليس بالأمر السهل، لكن هناك آخرين، يواجهون مصاعب

أكبر. تخيل سلالة الارستقراطيين، الذين فرض عليهم الربط بين اللقب الذي ورثوه والنازية، وهناك آخرون يحملون لقب آبتس، تماماً مثل أولئك الذين يحملون اسم جورنج أو بورمان[1]، بالنسبة لهم من السهل جداً أن يندمجوا في الحياة اليومية، لكن فارس إب *Epp*، وسلالة فون أويلن بورج، وأمراء مكلنبورج، هؤلاء هم في الحقيقة عرضة للخطر. هل تفهم ما أريد قوله؟».

لم أفهم كلمة واحدة. فليس لي معرفة، لا بنبلاء ألمانيا، ولا بنبلاء أوروبا، إضافة إلى أن بعض الأسماء لا تعني لي أي شيء.

«هتلر ليس اسماً ارستقراطياً، وأنت لا تقصد أن بإمكانه أن يندمج بسهولة في المجتمع من جديد».

«كيف لي أن أوضح لك أهمية الارستقراطية لألمانيا- وللدبلوماسية الألمانية على وجه الخصوص؟».

ضحك دافيد بأسى.

«أردت أن أقول، إنني أتفهم البعض، من الذين يعتقدون أنهم يحملون إرثاً ثقيلاً، لأنهم ينتمون لعائلات ارستقراطية. نحن لسنا بعائلة مهمة. هنا في ألمانيا فإن اسم آبتس يكاد يطويه النسيان. أما في فرنسا فيعرفه كل طفل، وفي هذه الأثناء صدرت سيرة ذاتية واسعة عنه».

اقترحت على دافيد، أن نخرج إلى الهواء الطلق. عندما وصلنا إلى الشارع فاجأنا جو خريفيٌ رطب. مطره الخفيف أفسد علينا الرغبة في المشي. فسرت باتجاه مطعم دافيد المفضل، الذي يقع قريباً، كطفل يرضى بالمواساة عن طيب خاطر، شد دافيد الشال على رقبته، هز رأسه وتبعني. وبينما كنا نتجرع كأس نبيذنا الأول، وندرس لائحة

(1) ألبرت بورمان 1902—1989: أحد قيادي الحزب النازي.

الطعام، كان دافيد ينظر لي تعبيراً عن شكره، وكان يجس الطاولة بحثاً عن يدي. لم أتمكن من مقاومة هذه الرغبة. لا أعتقد أن أحداً، لاحظ ذلك، وعندما جاء اللحم المقلي حسب وصفة فيَنَّا Wiener Schnitzel، شعرت بأن هذا قد شغل دافيد عن حماسته العصبية. لكنني خدعت، فما تلا ذلك في هذا المساء، كان بمثابة اعتراف جعلني أعيش في حالة من الاضطراب، أرغمتني على القيام بتحريات إضافية...

الحكم على الرجل، الذي قال لي دافيد إنه جده، أصدرته محكمة عسكرية في باريس بتاريخ 22/ تموز يوليو/1949، est-*il constant que, dans les circonstances de temps et de lieu* ...... هل من الممكن الانطلاق، *ومع مراعاة ظروف الزمان والمكان*، هكذا تساءل محضر الحكم، الذي اطلعت عليه في وزارة الخارجية، وفي كل النقاط الواردة في لائحة الاتهام، *من أن المدعو أوتو آبتس لم يكن جزءاً من الجيش الألماني النازي، ولم يعمل في خدمة إدارة معادية في الوقت المذكور، ومذنباً فيما يتعلق بالجرم المنسوب إليه أعلاه*؟ مذكرة الاتهام والحكم كانا متطابقين، مع ما علمته من دافيد: سرقة أعمال فنية، جرائم قتل، أعمال نهب، دعم الدعاية المعادية للسامية، ترحيل اليهود ورجال المقاومة. إن عدم وقوف آبتس أمام محاكم نورنبيرج، وإنما أمام محكمة فرنسية، يشير إلى أنه لم يكن في هيئة أركان القيادة النازية.

كم أذل من الناس وأرسلهم إلى الموت، وكم من الأعمال الفنية سرق وهرَّب: هذا لم يكن كافياً، لكي يتقاسم مقعد المتهمين مع جورنج، وشبير وريبنتروب. كان انتماؤه عرضياً، ولم يكن من أعضاء السلك الدبلوماسي الطموحين. والجدير بالذكر، واستناداً إلى أقوال الكثير من الشهود، فإن الكثيرين كان يحبونه، رغم كراهيتهم للنازيين. وفيما بعد

قرأت أشياء أخرى عن أوتو آبتس. على سبيل المثال، أنه كان مدرساً للفن في كارلسروه، وقد لاحظت من خلال ذلك، أن دافيد قد أخطأ كثيراُ، فيما يخص حديثه عن جده. ومن المستغرب في الواقع، أنه لم يلاحظ تلك التناقضات، وبالتحديد لأنه كرر كثيراً مزحته عن النبيذ. فعندما سكب النبيذ في الزجاجة، كان أوتو آبتس قد غادر منذ زمن السجن الفرنسي. كان قد مات منذ أمد. قضى في حادث سيارة في لانجنفيلد.

الثالث عشر

دافيد وضع فجأة الشُوَك والسكاكين والملاعق. هذا النشاط، الذي كنت أعده قد فتر، في هذه الأثناء صرت أعرف التغيرات التي تطرأ على أحاسيس دافيد، عاد إلى وضعه الطبيعي مجدداً. وبدأ الحديث من جديد، وكأن رأسه هو المطلوب.

«عليك أن تتصور، أن جدي كان في الحقيقة فناناً قبل أن يكون دبلوماسياً، فقد درس في الأكاديمية وسبق له أن رسم، وكان يحب أن يكون فرنسياً مثلما هو ألماني. وقد عمل جاداً للتفاهم الفرنسي-الألماني. أنا أعتقد أنه كان مأخوذاً لحد الجنون بهذه الفكرة، ولحسن حظه أو ربما لسوء حظه، أنه لم يكن من أولئك الدبلوماسيين القدامى. فهتلر، الذي لم يتكلم سوى الألمانية، كان يخشى اللقاءات الدولية. عدا عن ذلك، فإن العاملين في وزارة الخارجية كانوا في الواقع حفنة من المتغطرسين، والكثيرون منهم اعتقدوا جديًّاً أنهم كانوا ضد هتلر، لكنهم كانوا في غالبيتهم معتزين بالنسب، وليسوا من المقاومة. ربما لا تستطيع أن تتصور، أنه كان في ألمانيا وفي ذلك الوقت مرتبات في التفكير، كما أن جدي وريبنتروب تميزا بقدرتها على الحديث بلغة أجنبية، وهذا ما جعلهما مهمين في نظر هتلر.

دافيد كان يتحدث بانفعال، وأخذت التناقضات في حديثة تتزايد. غير أنه لم يشعر بذلك، فبعد أن قال إن جده قضى عشر سنوات من أصل عشرين خلف القضبان، أشار فجأة إلى أنه لم يكن يعرف جده جيداً. ولكن كيف كان لـ «دافيد» أن يتعرف عليه، إذا كان جده خلف القضبان بفرنسا؟ لم يشر ولا بكلمة واحدة، متى رآه للمرة الأخيرة. لقد

ركز على أن غالبية ما يعرفه عنه، مأخوذ من الأحاديث وفي الغالب من الكتب. الكثير مما ذكره دافيد كان مطابقاً لما قرأته فيما بعد عن آبتس. ولكن بدا وكأن دافيد لا يعرف تفاصيل شخصية أكثر من ذلك.

«من المؤكد أنه ليس سهلاً عليك، أن تفهم ما أعنيه. هناك، في موطنك، لا يوجد سبب، لأن تتحدث عن الماضي دون تحيّز».

تحرك شيء ما في أعماقي. رأيت صوراً لمعت أمام عيني الداخلية، تقارير إخبارية يعرفها الجميع. فيتنام، كلمة أخرى لتعريف الجنون. صوراً، ملونة وغير ملونة، في بعض الأحيان مُوَزّعة بشكل مرعب، وكأنه لا يمكن تفسير هذه الفظائع بشكل آخر. لم يلاحظ دافيد شيئاً من ذهولي، لذا تابع حديثه بكل سهولة، مركزاً بشكل متكامل على قصته. بدا وكأن الزمن قد توقف بالنسبة له.

«... ربما قد سافرت مع والديك، أو مع أجدادك إلى نورماندي، إلى الساحل الذي حصل فيه الإنزال الضخم. فبدلاً من الصمت خجلاً، احتفلتم بأبطالكم الذين سقطوا قتلى».

«دافيد، أمي أصلها من ألمانيا. ليس لي أقارب، على الأقل الذين لي معرفة بهم وقاتلوا ضد النازيين».

«نحن، سلالة النازيين تربينا على الصمت. الصمت الذي بدأ مع جيل جدي، جيل المجرمين. لكن الضحايا، آباءنا أبناء المجرمين، وكما يُقال، يواصلون الصمت، ربما ليس الكل، لكن الغالبية. عندما كنت أسأل أبي عن جدي، كان ينظر لي، وكأنه لم يكن لي جد أبداً. والدي كان يتصرف، وكأنه نزل من السماء».

نزل من السماء. جيد، ولم لا؟ أنا أيضاً كنت قد نزلت من السماء. ما هو الشيء غير الصحيح في ذلك؟ هل كان ضرورياً معرفة من هو الجد،

أو من كان الأب؟

عندما بدأ دافيد يعي حجم المعاناة التي مر بها، لم يدرك بأن والده عانى أكثر منه بكثير. لم يكن يعرف، بأن شيئاً ما كان هناك. في الواقع كان هو من سقط من الغيوم وليس والده. كان يعد والده جباناً متهماً إياه بأنه كذب عليه فيما يخص أصله واسمه الحقيقي، ولم يدرك إلا في وقت لاحق، أن والده عانى من جرائم لم يقترفها، وإلا لماذا قام هذا الرجل بإرسال اسم العائلة إلى المنفى وانتزعه من العائلة؟ وشراء شركة قديمة لكي تنتج اختراعه كان أيضاً محسوباً بنفس المستوى من الناحيتين الاجتماعية والتجارية، بالنسبة «لألفرد» برلنسامت كان بديهياً أنه لا يرغب في تسمية شركته باسمه الحقيقي. فاختراعه الكيميائي كان أيضاً بمثابة اختراع عائلة جديدة. وقد نشأ دافيد في سنوات عمره الأولى مع القناعة الجيدة بأن كل شيء يسير على ما يرام. ثم، وفي يوم ما، تذكر، وكأنه كان الأمس، وكانت الفقاعة التي أحاطت به كرحم آخر، قد انفجرت. وذلك في سكن الطلبة، حين حصل على العلامة ستة في امتحان اللغة الفرنسية الذي كان هدفاً محققاً بالنسبه له.

«برلنسامت، أو من الأجدر بي أن أقول: آبتس، أنت مخادع، أنت أعمى»، هكذا علق مدرس اللغة الفرنسية بيرنشتاين على نتيجة الامتحان. «أنت تنتمي إلى أولئك الأشخاص الذين يسأل المرء نفسه آلياً فيما إذا كانوا يستحقون أن يعطيهم المرء فرصة أخرى، فمن الواضح أنك لم ترث موهبة تعلم اللغات عن جدك، نأمل أيضاً، ألا تشاركه في أيديولوجيته. فالأعمال الشاقة لم تعد موجودة اليوم، لكن الحكومة الألمانية لديها العديد من الإمكانيات، للتعامل مع الناس أمثالك».

آبتس؟ من كان هذا؟ لم يفهم دافيد شيئاً. نص إنشائي بلا أخطاء

جلب له هذا التوبيخ المثير للشفقة. ثم ما معنى الإدعاء بأن اسمه مختلف تماماً؟

اتصل بالبيت. أمه كانت في زيارة لأختها في إفريقيا، ووالده كان في رحلة عمل في موسكو. وقف دافيد وحيداً في مواجهة هذه الاتهامات المليئة بالألغاز. لم يقل له أحد، بأنه كثير الشبه بجده، وكأنه صورة عن جدّه. لم يفهم، لماذا كان مدرس اللغة الفرنسية يعرفه أكثر من معرفته لنفسه، كما أنه لم يعرف حتى خلفية الاسم الألماني بيرنشتاين ولا حتى ما يخفيه هذه الاسم. والداه لم يتحدثا ولا بكلمة واحدة عن ماض مظلم. كيف عليه أن يستفسر عن سر العائلة التي لم يكن يعرف أساساً حتى عن وجودها؟ السقوط الافتراضي من السماء، الذي تضيئه واقعية الطبقات الوسطى بشمسها، لم يكن إلا البداية. ففي مدرسة النخبة الداخلية تعلم برلنسامت، أن يكون آبتس. علَّمَهُ المرء درس أنه مُذنب. قريباً سيعرف كل شيء عن آبتس، الذي عده السيد بيرنشتاين ضرورياً. لقد عرف من رجلٍ غريب من هو جده، وما هي الجريمة التي اقترفها. السيد بيرنشتاين كان على معرفة تامة بكل من هو من آبتس، وذلك من خلال الوسائل التي أتيحت له. وهكذا توصل إلى برلنسامت، ولسبب معقول، سفير هتلر أخذ منه كل شيء: العائلة، الأملاك، بيت الوالدين، الوطن، والسمعة. بيرنشتاين كان يعلم، أنه لا يستطيع أن يثبت أي شيء من ذلك، وهذا بالتحديد كان الراية التي يرفعها فوق كل شيء. الإبادة التامة من الجذر حتى الجذع. فأجداده، هكذا يعتقد الناس، فقدت أثارهم في ترسين شتادت[1]، والمجموعة الفنية لعمته إليزابتا، التي كانت تقطن في ساحة فورستنبيرج بباريس،

(1) أحد معسكرات الاعتقال النازية في أراضي جمهورية التشيك.

قيل بأنها ذهبت أدراج الرياح، وبيت العائلة في مقاطعة الإلساس[1] دمره السكان النازيون هناك وسووه بالأرض. كل شيء حمل توقيعاً واحداً: أوتو آبتس. وبيرنشتاين كان الأخير. بيرنشتاين كان آخر من تبقّى من عائلة بيرنشتاين، حيث نجا من الموت من خلال أوديسة سرية عبر ألمانيا. عملية نقل أطفال إلى لندن أنقذته في اللحظة الأخيرة، ولم يبق له سوى ألمه وغضبه. الآن عَثَرَ بالصدفة على دافيد. صدفة؟ رأفة الزمن ألقت بين يديه هذه الجوهرة النفيسة. أي فصل من الرحمة، أتاح له فرصة تعذيب دافيد. الخوف جَعَلَ الطفل يحسّ به، انقباض النفس، انعدام المخارج، لأن أحداً لم يقف إلى جانبه، كان خوف بيرنشتاين نفسه. دموع دافيد اليائسة في مدرسة النخبة الداخلية كانت كدموع بيرنشتاين اليائسة في منفاه بلندن. تماماً ومثلما دافيد الآن وحيداً دون مساعدة والديه البعيدين، في مواجهة التعسف من الغريب، كذلك تماماً كان بيرنشتاين. بيرنشتاين كان يُجبره على الاستيقاظ في الخامسة بدل السادسة والنصف، ويُرغمه على مسح أحذيته وأرضية شقته. وبعد أن يكون دافيد قد أنهى العمل، كان المعلم يسكب قهوته على الأرض عمداً، ثم يأمر الصبي على البدء من جديد، وكان يسخر منه أمام تلامذة الفصل، فمثلاً: يقرأ بصوت عال، من الذي رفع الدعوى ضد جد دافيد ومن أدانه؟ كان يبدأ حديثه بإشارات جميلة حول التفاهم، فرنسا، ألمانيا، تبادل الزيارات بين الشباب، حفلات موسيقية والفنون التطبيقية. يا برلنسامت، آه، أقصد آبتس، ما هي الأشياء التي ما زالت معلقة عندكم في البيت؟ كان يعرض بعض اللوحات بواسطة آلة العرض على الحائط، لكي يُكَوِّن التلاميذ صورة عن اللوحات التي كانت بشكل

(1) مقاطعة فرنسية كانت تابعة في السابق لألمانيا.

أساسي لفنانين واقعيين فرنسيين، هذا ما كان التلاميذ يتعلمونه في درس اللغة الفرنسية، الذي كان يشبه إلى حد كبير محاضرة جامعية عن تاريخ الفن. في الدرس التالي سنأتي لموضوع المجوهرات المنهوبة. هؤلاء النازيون، الظربان، حشرات البطاطس، كانوا يعلقونها على الرقاب السمينة والأصابع الثخينة الدسمة لنسائهم وعشيقاتهم. كان دافيد يصاب بالدوران، لأنه لم يرَ أمه ميريام بالمجوهرات إطلاقاً، ولا يستطيع أن يتحدث حول ذلك، فعمره اثنتا عشرة سنة. والمجوهرات لا تعنيه. حمّامات أمه الكبيرة تسد طريقه، تمنعه من الاقتراب. إنه لا يتذكر أكثر من ذلك. يجب أن يتربى تربية جيدة، أن يتعلم جيداً لكي يستلم شركة والده. دافيد كان يتحدث بحرارة، لدرجة أنه لم يلاحظ البتة، كيف كان يناقض نفسه. فلم يعد الحديث الآن يدور حول الألفة الحميمة بينه وبين أمه. أخيراً وبعد أن اتصلت به بعد عدة أسابيع، كان آخر صديق له قد أدار ظهره لهذا الصبي الخجول. حدثها عن الذي جرى، وقامت هي بمواساته. وبعد أسبوع، عرض ألفرد برلنسامت على ابنه، عبر زوجته، أن بإمكانه العودة إذا رغب إلى برلين، أو أن يبحث عن مدرسة داخلية أخرى.

«يا إلهي، لقد كانا حقيقة، دون مشاعر؟».

هز دافيد كتفيه. «غير أنهما تفهما الأمر على الأقل، فلم يفرضا علي البقاء هناك. ولكن ومن ناحية أخرى، لم يكونا راغبين في أن يكونا طرفاً في الموضوع. قالا، إن علي أن أتصرف، كما لو أن شيئاً لم يحدث، حتى لا أصير جبهة معرضة للهجوم، وكانا مقتنعين بصحة مسح الآثار. لست متأكداً، فيما إذا كانت أمي تعرف، من تزوجت. ربما قال لها والدي ذلك بعد الزواج، وإذا كان الأمر كذلك، فإنها وعلى أية حال لم

تتأثر. ولو أنني لم أكن على شبه بجدي إلى تلك الدرجة، ولو لم أصطدم بهذا ال «بيرنشتاين»، فلربما بقيت هذه الخدعة طي النسيان».

«لكن الصحافة لم تعرف، أليس كذلك؟ أنا أعني الآن، فيما يتعلق بـ..».

«... الجريمة التي سببها اليأس؟».

«نعم، لم ينشر في أي مكان. وعلى أي حال لم أقرأ شيئاً عن ذلك».

«جدي لم يكن ريبنتروب، لم يكن ذا وجه معروف في العلن، تمتلئ به صفحات الجرائد. أنا شخصياً رأيت له صورة واحدة فقط، في كتاب. كانت الصورة مأخوذة من على مسافة بعيدة، صورة رجل يرتدي بزة نازيين، ومعطفاً أسود طويل بياقة بيضاء، ينزل على درج مكشوف. لم يكن بمستطاع أحد التعرف عليه فيها. كان الأمر بحاجة إلى شخص معين، لكي يقوم بالبحث لدوافع شخصية عن الروابط والكشف عن أوجه الشبه. كان الأمر بحاجة لرجل مثل بيرنشتاين. اعتقدت لفترة طويلة، أن الأمر كان محض صدفة، أما اليوم فأنا متأكد، بأن ذلك كان جواب القدر».

«أنت واهم، وتفرط في أوهامك. لِمَ لا تضع نهاية لهذا الجنون؟ القصة بكاملها ليست إلا محض وهم لأحد ضحايا النازية، لقد زج بك في هذا الموضوع دون أن تكون مذنباً. إنس ذلك، فليس لهذا علاقة بالقدر. لا وجود للقدر».

«ما الذي تعتقده حول الطريقة التي تعرفنا بها على بعضنا؟ ألم يكن ذلك قدراً؟» بدل دافيد فعلاً المدرسة الداخلية، ولم يحدث أي شيء بعد ذلك. لكن الخوف من أن ينكشف أمره مرة أخرى، كان يسكن في أعماقه. لهذا غيّر المدرسة مرة ثانية وثالثة. وكان يخجل من نفسه،

منطوياً على ذاته، يشعر بالوحدة، وكان ينظر لهذه التحولات على أنها مستنكرة وليست من ميزات الرجال. دورة الحياة ابتدأت، تراجع دافيد، كان يريد أن يتحول لشخص آخر، كان يبحث عن أدوار. بهذه الطريقة نشأ الحلم بأن يصبح ممثلاً.

وأخيراً تعود على أن يتذكر، بأن هناك أبناءً وأحفاداً غيره لمجرمين، كان عليهم أن يتحملوا أكثر منه أثقال الماضي.

«حصل الحادث، لأن الفرامل كانت معطوبة، فهناك من يعتقد، بأن ذلك كان حادث اغتيال، لا بد أن ذلك كان فظيعاً، كيف قذفت الجدة من السيارة».

«لقد رأيت حادثاً شبيهاً بهذا، عندما كنت طفلاً. حدث هذا على الطريق المؤدي من دسلدورف إلى كولونيا».

«لكن هذا حصل بالضبط هناك! هل رأيته؟ لقد رأيت أنت، كيف توفي جدي وجدتي؟».

«هذا تخريف، لقد رأيت حادثاً ما، ولا أتذكر الكثير عنه، لقد كنت صغيراً جداً، في الثالثة أو الرابعة، لا أرى في ذاكرتي سوى كرة من اللهب، ليس أكثر».

«أما تزال تؤمن بعدم وجود القدر؟».

للحظة وقفت من جديد على طرف الشارع، دافيد وقف إلى جانبي، واستيقظت من ذهولي عندما لمسني. في تلك اللحظة تحديداً تذكرت أن دافيد لم يعرف بالحادث الذي تعرض له جداه إلا من خلال التقارير الإخبارية. كنت أسير على الطريق الأفضل، الذي يقودني إلى الارتباك، تماماً كدافيد.

قال دافيد: «هناك شيء يربطنا على الدوام، الشيء الذي كان يربطنا

دوماً».

«اعذرني للحظة من فضلك».

بعد أن عدت إلى الطاولة، شربت كأسي، وطلبت الحساب. اختلفنا للحظات حول من سيدفع الحساب. وبينما كنت أعد الأوراق النقدية، لاحظت عدم ارتياحه، ثم اندفع خارجاً، وكأنه يريد أن يجعل المحرك يدور بسرعة، لكي يصل إلى موعد آخر في الوقت المحدد والمكان الصحيح. هذا الضغط، الذي كان يصاب به أحياناً كان مترافقاً مع الجَدِيَّة التي لا شفاء منها.

«لدي طلب من فضلك.» وضع يده على ذراعي، ونظر لي. «هل تبيت الليلة عندي؟».

استغربت سؤاله، حاولت ألا يظهر ذلك عليّ، ووددت لو أقول لا.

«هذه المرة فقط. رجاءً».

الرابع عشر

في الخارج، كان المطر الخفيف نفسه في انتظارنا، كما في بداية المساء. شعرت بالبرد، تخيلت النوم في سرير غريب، والاستيقاظ في الصباح التالي في محيط غريب، الذهاب إلى حمام ليس لي، وعدم فتح باب خزانتي، لكي أختار ملابسي، كل هذا جعلني أشعر بالاضطراب. لكن وفي الوقت التالي أحسست بتعب شديد، لدرجة أن كل شيء أصبح بالنسبة لي سيَّان، المهم هو السرير، ودراجتي الهوائية كانت علاوة على ذلك، لا تزال موقوفة في شارع فازانن شتراسه.

أثناء صعودنا الدرج إلى شقة برلنسامت، ساورتني بعض الأفكار المرتبكة. تساءلت ما إذا كنت سأضع نفسي في هذا الموقف الحرج، لو طلب مني أصدقاء آخرون هذا الأمر. إن علاقة الصداقة مع أصدقاء الدراسة والزملاء كانت مختلفة، ليست حميمة كهذه، ولا تفرض واجبات كهذه، ليست عاطفية بهذه الغرابة. الصداقات السابقة كانت قائمة على لعب كرة الطاولة والبايسبول، وليس على أساس إما الموت وإما الحياة.

عندما أراد دافيد أن يفتح زجاجة أخرى من النبيذ، رفضت ذلك، قائلاً: عليَّ أن أخرج غداً في الصباح مبكراً قدر المستطاع. أما هو فقد كان راغباً في مواصلة الحديث. ولم يكن قادراً على أن يجد نهاية لذلك. ولكن وعلى الأقل، تمكنت من فرض أمر بهذا الخصوص.

جهّز دافيد الأريكة في المكتبة وأراد أن أنام في سريره.

«غرفتي في نهاية الممر الآخر».

أشار إلى باب بدفتين في زاوية من الصالة.

«إنه مريح أكثر، ستكون وحيداً هناك، وعندما تأتي السيدة آرنو في الصباح، لن تلاحظ أبداً، أنك موجود هنا».

لم أُعِر هذا الباب حتى هذه اللحظة أي انتباه، ولم يَدُرْ أي حديث عن وجود ممر آخر، خلف هذا الباب بتاتاً. من الواضح أن هناك ممراً يربط هذا الجناح الجانبي بالبيت الأمامي، الشقة كانت أكبر مما توقعت. رفضت العرض وأخذت الأريكة.

«سأكون قد غادرت قبل أن تصل السيدة آرنو، فهناك الكثير من العمل ينتظرني في المكتب. كما أن عليَّ أن أمر على البيت قبل ذلك».

«أشكرك على مجيئك معي، على أية حال سأنام براحة أكثر. إذا كان الأمر لا يزعجك، فأرجو أن تترك الباب مفتوحاً بعض الشيء. تُصبح على خير».

بدا لي، وكأنني استيقظت في وقت ما بسبب رائحة غريبة، لم أستطع التنفس. في البداية فقدت المقدرة على تحديد موقعي، ثم خطر ببالي، أنني لست في بيتي، ثم أخذت الرائحة تزداد حدة، رائحة عطر ثقيل، كأن أحداً قام برش الغرفة به. كان الهدوء شاملاً، فلا صوت يتسرب من الخارج إلى الداخل. شعرت، وكأنني اسمع أنفاس أحد، دافيد؟ هذا هراء، تفصلنا الصالة وعلى اليمين كان الممر الذي تقع غرفة دافيد في نهايته. شعرت بجفاف في حنجرتي وبصداع، لا بد أن ذلك بسبب الرائحة الغريبة، وعندما نهضت من الفراش، لاحظت أنني عار. كنت متأكداً أنني لم أخلع ملابسي الداخلية. وجدت سروالي الداخلي ملقىً على الأرض إلى جانب أريكة النوم، لبسته، وألقيت القميص على جسدي، وتحسست طريقي إلى المطبخ عبر جو شبه معتم. وبينما كنت أشرب كأس ماء، من الحنفية، خطرت ببالي أجزاء من حلم، إنسان

غريب في الغرفة، في سريري، يد على ظهري، صوت دافيد، *هناك شيء يربطنا*، شيء *كان دائماً* يجمع *بيننا*. الآن بدأت أنا أيضاً أهذي بكلام فارغ. ثم تحسنت حالتي بعض الشيء، بعد أن شربت كأس الماء الثاني. في الخارج كان الغسق لا يزال مخيماً، وكان الهدوء عاماً، لا أصوات تأتي من الشارع. كيف كان ممكناً، أن أحداً لم يسمع أصوات الرصاص رغم هذا الهدوء؟ هل كانت جدران البيت سميكة إلى هذا الحد، حتى لا يتسرب الصوت إلى أعلى أو أسفل الشقة؟ وتولد لديَّ الانطباع، بأن التحقيقات لم تتم في الواقع إلا بشكل سطحي. قيل إن دافيد، وبعد أن استنفره صوت الرصاص، قد فاجأ والده وتمكن من منعه من القيام بذلك في اللحظة التي سدد فيها المسدس إلى جسده. كم من الوقت تردد برلنسامت لفعل ذلك؟ كان على دافيد أن يقطع الشقة ركضاً من آخر الممر، وأن يعبر الصالة، والممر الآخر حتى نهايته، حيث كانت غرفة والديه. في هذا الوقت، يستطيع المرء الذي اتخذ قراراً نهائياً للانتحار، أن يقتل نفسه ثلاث مرات.

عدت إلى المكتبة. كانت الساعة السادسة والنصف، إنه وقت مناسب لكي أرتدي ملابسي، وأغادر الشقة الغريبة. بحثت عن ملابسي، ولم أستطع أن أتذكر، أنني كنت قد وضعتها في المكان الذي وجدتها فيه. وعلى الخصوص كانت في وضع مغاير للطريقة المعتادة التي أرتب فيها ملابسي. تمايلت عندما تناولت البنطال، وأثناء إغلاق أزرار القميص حاولت أن أتذكر ما جرى بعد أن تمنى لي دافيد ليلة سعيدة، لكن لم أتذكر شيئاً، لقد كان هناك شرخ في شريط الذكريات، حتى أنني لم أعد أذكر، كيف وصلت إلى السرير، علماً بأنني لم أشرب إلا القليل مساء أمس. من جديد خطرت ببالي مقتطفات من الحلم الغريب.

«والدي، هل تفهم الآن، لماذا كان يجب لهذا أن يحصل؟».

كان صوت دافيد قريباً جداً من أذني، لكن ليس صوته فقط، شعرت وكأنه كان مستلقياً إلى جانبي، وكأنني أحسست جسده، جسد رياضي مليء بالعضلات.

«لذلك؟».

«بالطبع لهذا السبب، ماذا كنت تعتقد؟».

«لكن، لكن هل قتل زوجته لهذا السبب؟ أنا لا أفهم ذلك، ليس هناك أي رابط على الإطلاق».

ارتديت ثيابي، ونظرت إلى ما حولي، السرير، لا يمكن على الإطلاق أن اتركه في هذه الحالة، بدا غير مرتب، وكأن معركة جرت فوقه. أنا لا أترك سريري على هذا الحال، ولم أرغب أن يراه أحدٌ ما على هذه الصورة. رجعت وسحبت أغطية السرير واللحاف وحملتها ككرة ووضعتها في المطبخ مع كوم الغسيل. لقد شعرت بالراحة، لأنني انتبهت لذلك، ثم غادرت الشقة بصمت تام.

الخامس عشر

توجهت بمشكلتي إلى صديق قديم. كاسبار دي لاك كان ينتمي في الأصل لعائلة دبلوماسية ألمانية عريقة. تعرفنا على بعضنا في هارفارد. كان قد عاد قبل نصف عام من منصبه الذي كان يشغله في شنغهاي. حتى هذه اللحظة لم تتح لنا فرصة للقاء ثانية. هنا فقط خطر ببالي، كم من الوقت قضيته مع دافيد. طلبت من كاسبار، أن يبحث في مكتبة وزارة الخارجية، فيما إذا كان هناك شيء حول أوتو آبتس، وما هو؟

«سوف اتصل على الفور. تعال عندي بعد الظهر، وسيكون حينها كل شيء جاهزاً».

كاسبار وأنا لم نرَ بعضنا منذ بضع سنوات. لقد صار نحيلاً ويبدو بوضوح، أنه أكبر من عمره. في السابق كان لعوباً وغير جدي، ويحب الحماقات، وكان رياضياً، يعشق المزاح، هادئ الطبع، وكنت أحسده على ذلك، ربما يعود هذا إلى خلفيته العائلية. فقد كان أصله من *تلك* الطبقات، وكل ما يحدث، كان بالنسبة له أمراً طبيعياً، بينما كان بالنسبة لي أمراً لا يمكن الوصول إليه، بما في ذلك وكما تأكدت منه لاحقاً، زوجة مثل تلك. ذلك الكلب الصغير الذي كنت في زمن بعيد أفعل معه الحماقات، صار رجلاً له أهدافه الواضحة. ربما ما يصفه المرء بالدبلوماسي الواثق من نفسه. كان كاسبار يتصرف، وكأن العمل ملك له وحده.

«أنت على حق تام لأنك ذكرتني بانتفاضتي ضد الوزارة. كلا، أنا لم أعد وحيداً كما كنت أتمنى، فالعائلة كانت أقوى، وحبنا لهذه البلاد التي ننتمي لها غامض، تماماً كغموض عدم المقدرة على البقاء فيها.

فنحن باستمرار نحاول الهرب منها، ونحلم بساحات أخرى في عالم آخر. هذا يكمن في جيناتنا. أما البقية فليست سوى ديكورات».

ماعناه بكلمة (نحن) بقي غير واضح، أهي العائلة أم وزارة الخارجية؟ كان يريد أن يعرف السبب الذي يقف وراء تحرياتي وأبحاثي، عن مثل هذا الشخص الغامض. وبعد أن حدثته عن برلنسامت، نظر لي كاسبار بريبة، وتساءل:

«ماذا يعنيك هذا؟ عليك أن تكون مسروراً، كون أنه لا علاقة لك بهذا الموضوع. ارفع يديك عن هذا الشخص».

نوع من العجرفة الخفيفة، كانت في نبرة صوته التهديدي، وكأنه أراد أن يقول: مارتين، هذا ليس من شأنك. ضحكت بارتباك. بقي في قرارة نفسي إحساس بالخوف، لم استطع أن أجد تفسيراً له. للحظة قصيرة فكرت أن أحدثه عن الحدث الذي شاهدته في لانجنفلد، غير أنني تراجعت عن ذلك، فلم أرغب أن أجعل نفسي مهزلة لأحد. كاسبار لم يكن ذلك الإنسان الذي يعتقد، أن كل شيء مرتبط بكل شيء.

«لم أتعرف أبداً على حفيد من أحفاد تلك الوحوش»، أجبت بطريقة ظريفة وحاولت تحويل الحديث إلى الهزل، في نفس الوقت تولد عندي شعور، وكأنني أخون دافيد.

«من أين لك أن تدري، بأنني لست واحداً منهم؟ أنت لم تسألني أبداً عن جدِّي.» ضحك كاسبار من أعماق قلبه. «لا تُضيِّع نفسك في المتاهات. فحتى الوحوش مصنوعة في الدرجة الأولى من نفس الكيمياء التي صُنعنا نحن منها، وأنت لست بعالم نفسي. مازال لديك الكثير لفعله، لكي .ترتقي في حياتك العملية. دعنا نذهب في المساء لنشرب شيئاً، عندما أنتهي من مطحنة العظام هذه، وأضاف مبتسماً

أيضاً أربعتنا».

«أربعتنا؟ هل تفكر بشخص محدد؟».

ضحك مجدداً. «بزوجتي، لقد تزوجت قبل أن أذهب إلى شنغهاي. بسرعة الطير، العائلة كانت غير سعيدة بهذا الزواج السريع كالبرق. بإمكاننا أن نذهب لتناول الطعام أيضاً. أحضر أحداً ما معك. آه، أسف، ما معنى *أحد ما*؟ من الممكن أن تكون أنت أيضاً قد تزوجت خلال هذه الفترة؟».

نفيت على عجل، ثم رافقني إلى المكتبة وتركني هناك، أمام كوم كبير من الكتب.

«إذا أردت أن تأخذ شيئاً معك إلى البيت، فدعهم يسجلوه على اسمي.» ربت كاسبار بلطف على كتفي. «لا تنسَ أن تتصل، حسناً؟ أنا أعني ما أقول، يبدو أنك مُرهق. يجب أن تُرَفِه عن نفسك».

في أعلى كومة الكتب كانت مذكرات أوتو آبتس. الكتاب الذي صدر في بداية الخمسينات حمل العنوان المناسب المشكلة المفتوحة. الصفحة الأولى كتب عليها بخط يد المؤلف الإهداء. مهداة لرابطة الشباب الديمقراطي الألماني في قضاء ألتونا *Altona* [1] *اعترافاً بـ 1750 توقيعاً جُمِعَت من أجل العفو العام. مؤتمر الشباب في المقاطعة عام 1952 في فيرل Werl* [2]. جد دافيد قضى في السجن مدة أقل بكثير مما كنت أتوقع.

ألقيت نظرة سريعة على الملفات في المكتبة، أما المطبوعات فأخذتها معي إلى البيت، كان ضمنها سيرتان ذاتيتان. واحدة تناولت الحقبة

(1) أحد أحياء مدينة هامبورغ ويقع في أقصى غربها. كان حتى عام 1937 مدينة مستقلة.
(2) مدينة في مقاطعة نورد راين فستفاليا بألمانيا.

الزمنية حتى عام 1945، من الواضح أنها كانت رسالة دكتوراه لمؤرخ ألماني. حتى قراءة المقدمة كانت جافة إلى حد كبير. أما السيرة الذاتية الثانية فقد امتد زمنها إلى وفاة آبتس وبدت من حيث طريقة الكتابة أنها شيقة للقراءة أكثر من سابقتها. المؤلفة كانت فرنسية، ومن خلال المقدمة بدا واضحاً، أنها انطلقت من أن الجميع يعرف عمن تكتب. دافيد كان محقاً، ففي فرنسا يتذكر الناس أوتو آبتس، أما في ألمانيا بالكاد كان الناس يعرفون هذا الاسم.

بعد أيام اتصل كاسبار، ودعاني للسبت القادم، وبدون تفكير قبلت الدعوة.

«أحضر أحداً ما معك».

لكن من؟ دافيد؟ أظن بأن هذا سيكون صعباً.

على طاولة مكتبي في البيت تراكمت خلال هذه الأثناء صور الوثائق، الحكم القضائي للمحكمة العسكرية الباريسية من عام 1949، مراسلات من عام 1936 من المكتب الإقليمي للحزب القومي الاشتراكي العمالي الألماني النازي *NSDAP*، تقارير السفارة المرسلة لوزارة الخارجية، وفي وسط الصفحات دمغ الصليب المعكوف. ليس هناك أشياء مثيرة في ذلك الوقت، لا أدلة لتصرفات وضيعة، وما لم أجده في وزارة الخارجية، عثرت عليه في الأرشيف الاتحادي. المنظر القاتم للوثائق المنسوخة لم يكن له علاقة بتلك السنوات المظلمة.

السبب في ذلك يعود إلى آلة النسخ السيئة التي نسخت الوثائق من الميكروفيلم مباشرة. وعلى الرغم من ذلك بدت تلك النسخ، وكأنّ المنظر والمحتوى مترابطان ببعضهما وموحدان برابط غير شفاف. الآن هي موضوعة أمامي مرة أخرى، أوراق تخلق جواً ممتعاً، لكنها لا

توضح شيئاً، ولا تفسر شيئاً. وعلى أية حال، ليست قضية برلنسامت. ألقيت كل شيء إلى لهيب النار.

عثرت على صورة شخصية واحدة «لأوتو آبتس»، لم يبدُ فيها إطلاقاً شبيهاً بدافيد. هل تلاشى هذا التشابه، الذي وجده بيرنشتاين بحدسه في تلميذه، مع نمو دافيد؟ لم أجرؤ على الحديث مع دافيد بهذا الشأن، وكنت أتفادى الحديث عن هذا الموضوع في لقاءاتنا، فكلما تعلقت في تعمقي بشؤون عائلته، كلما ازدادت شكوكي وابتعادي عنه.

اصطحبت منى لدعوة كسبار.

منذ عودته من شنغهاي سكن كاسبار وعائلته في الطابقين الأرضي والأول من بناية مؤلفة من ثلاثة طوابق في شونبيرج[1]. ولأن المكان كان بالنسبة له ليس كبيراً بما فيه الكفاية بالإضافة إلى أن صاحب البيت المجاور كان يريد بيعه، قام بشراء قطعة الأرض المجاورة بسرعة وأمر بهدم البناية القبيحة التي كانت تقف عليها. المكان الخلاب الذي أنشأه في وسط المدينة، كان جديراً بالتقدير، ولم يكن من الممكن لراتب مُستشار سفارة مُحاضر أن يدفع ثمنه. ثم مالبث هذا المكان الخلاب أن اكتسب صفة الكمال، لأن هواية زوجته كانت العمل في الحدائق، إضافة لذلك كانت وريثة لتركة ضخمة. حقاً لقد كنت مأخوذاً بالمكان، أما منى فلا.

بالإضافة لنا، كان هناك زوجان مدعوان. بدا واضحا أنها زميلة من أيام المدرسة «لكسبار» مع زوجها. كذلك زميل من الوزارة، آرثر، نسيت اسم العائلة، كان يشغل في ذلك الحين منصباً في رواندا. بدا واضحاً أنه كان معجباً إلى حد كبير بـ منى. لاحظت ذلك من النظرة

(1) Schöneberg من أحياء مدينة برلين.

الأولى، بأحاسيس متناقضة.

وبالرغم من أننا كنا في شهر كانون أول/ديسمبر فقد قُمنا بالشواء. كان هذا بمثابة الضريبة التي يجب علينا أن ندفعها للحديقة. وقفنا لفترة من الزمن بمعاطفنا ملتفين بالشالات وواقفين حول الجمر لندفئ أنفسنا، على أمل أن يُسمح لنا بالدخول.

«صديقتك لطيفة. جمال حقيقي».

انسحبنا إلى الداخل بحجة البحث عن النبيذ.

«نعم. لكنها ليست صديقتي. إنها زميلتي في الشركة».

«للأسف.» ثم ابتسم بمكر. «من الممكن أن تصبح صديقتك، إذا لم يعترض أحد طريقك».

أشار إلى الخارج، كان الشخص المغرور غارقاً في الحديث مع منى، وكمن فقد عقله كان يقلب الجمبري وسجق الخرفان، وينقلها من موضع لأخر على الشواية، وكان يبدو في السترة المحشوة بالريش، وكأنه يعمل في الدعاية لإطارات الكاوشوك. أما منى فقد كانت مُرَكزة على شفاه آرثر، وكانت ترتدي على رأسها قبعة روسية أصلية من فرو الأرانب، وعليها المطرقة والفرجار، كتلك التي يمكن شراؤها أيام الأحد بعشرة ماركات في شارع أونتر دن لندن، وكانت تنفخ في يديها دون توقف. بين الحين والآخر، كانت تضحك وتحني رأسها، وتتكلم بضع كلمات، لم تصل إلى مسامعنا. لم يسبق لنا أن تحادثنا معاً مثلما تحدث الاثنان. كما أن تقاسيم وجهها في هذا الحديث لم يسبق لي أن رأيتها في أي حديث لها معي. وعلى أية حال فقد تغير كل شيء منذ تعرفنا على برلنسامت. أجدها الآن مرتاحة ومتحررة، كما لم أرها منذ زمن بعيد، فكرت للحظة أن أخرج إلى الخارج وأضع معطفي على كتفيها، لكنني

تراجعت عن هذا الأمر، لأرى كيف سيشعرها آرثر بالدفء.

أيضاً وفي هذا المساء انشغلت بـ «برلنسامت». عندما رأيت منى واقفة في الخارج، افتقدته، لكن معرفتي بعائلته يجعلني كرهينة. أحاديثه احتوت على الكثير من التناقضات، كان علي أن أقول له ذلك، غير أنني لم أكن راغباً في أن اختلف معه، ثم أتت حينها تلك الأفكار غير القابلة للتفسير. من المؤكد أن الصداقة لم تكن وحدها هي التي دفعتني للبحث المكثف حول تاريخ عائلة دافيد.

كيف كان برلنسامت سيتصرف في هذا اللقاء وفي مواجهة «خليفة» جدِّه في وزارة الخارجية؟ في طريق العودة إلى البيت طرحت على منى هذا السؤال. فتحفظت عن الإجابة.

«ليس هناك في الواقع سوى موضوع واحد يشغل أفكارك، فأنت لم تعد تشعر بالعالم المحيط بك».

«هذا ليس صحيحاً. لقد كنت متأثراً بأثاث البيت، بزوجة كسبار..».

«هل تقصد، أنك كنت متأثراً بتلك الساقطة غريبة الأطوار. يبدو أن لديك مودة تجاه الناس الذين يثيرون الزوابع من حوالهم».

«آها، وماذا عن آرثر؟».

«إنه سفير لألمانيا في كيغالي منذ أربع سنوات!».

«لا حاجة لأحد به في مكان آخر».

نظرت لي مقطبة جبينها. وقالت: «ما ذكره آرثر عن رواندا كان حقاً مثيراً. لا بد أن تكون الطبيعة خلابة للغاية، فهناك تعيش الغوريلا الجبلية..».

«إذاً فهو في أحسن مجتمع».

«... كما أن هناك عالم نبات فريد. إنه يعرف الكثير عن تلك البلاد. كان حديثه ممتعاً ويدل على الاهتمام. لقد انسجم هناك إلى حد كبير».

«لقد ركع بشكل خاص أمامك».

«كيف تتحدث معي بهذا الشكل؟».

«لماذا أنتِ ضد دافيد؟».

«لا شيء»، قالتها ببرودة، ولم تكن نبرة صوتها عادية، وشعرت بالحيرة.

السادس عشر

تلميحات مني اللاذعة قادت إلى القطيعة بيننا. بالكاد كنا نقول طاب يومك، أو إلى اللقاء، وكنا نتبادل الاستفسارات الموجهة للشركة فيما بيننا بدون كلام.

ثم اقترح دافيد، أن نسافر إلى البحر. لم أتحدث معه حول تحرياتي، وأيضاً دافيد لم يتطرق لفترة من الوقت إلى الحديث عن عائلته.

عندما تنزهنا على كورنيش آلبك *Ahlbeck* [1]، شعرت وكأن الزمن عاد بي إلى أيام الصبا.

صحيح أن شاطئ جزيرة كوني بمدينة الألعاب والأكشاك الخشبية القديمة، لا يجمعه شيء بالمنتجعات البحرية المُرمَّمَة حديثاً على سواحل بحر البلطيق، لكن رائحة الملح وزعيق طيور النورس والأصوات الناجمة عن تلاطم الأمواج، كانت كافية لأن تعيد الحياة للأيام السالفة، فقد شعرت وكأنني عدت للطفولة من جديد: البحر، الأفق، الشاطئ، المشاهد المنسية منذ زمن بعيد، فجأة عاد بي الحنين إلى الوطن. فقلت لنفسي ما الذي فعلته في ألمانيا؟ يجب أن أعود إلى نيويورك، وطني هناك.

مشينا على الألواح الخشبية السميكة والموسَّدة في الكثبان الرملية نحو الشاطئ. كانت السعادة تغمرني، خفيفاً خالي البال، تماماً كما في ذلك الوقت، عندما مشيت وصديق لي على شاطئ جزيرة كوني بعد وقت قصير من الامتحان النهائي.

رافقتنا زخات من الأمطار، مع رياح قوية في ذلك العصر في آلبك،

(1) مدينة ومنتجع بحري على بحر البلطيق في ألمانيا.

وكانت الغيوم معلقة كالقشدة فوق هذا السيناريو المصبوغ حديثاً من عام 1900، إلى أن ينكسر الضوء في الغسق ويضفي على الشاطئ الخالي وشارع الكورنيش ظلاً كئيباً. بدا وكأننا الزوار الوحيدون في هذه البلدة، وبعد أن تمشينا لمسافة طويلة، عدنا واتفقنا على أن نلتقي بعد نصف ساعة لتناول الطعام.

كان في الفندق، باستثنائنا، زوجان عاشقان، وسيدة مع ابنة أختها أوحفيدتها. طاقم الفندق بدا سعيداً لصعود وهبوط الدرج لهذا العدد القليل من الزائرين، وبدت الأجواء عائلية إلى حد كبير. استحممت ولبست قميصاً نظيفاً وكنزة مع سروال جينز، فلم يكن هناك أي سبب للتكلف. لقد كنت مُتعباً بعض الشيء، لكن الحمام كان منعشاً وجعلني أشعر بالجوع، كما لم أشعر به في برلين منذ شهور. شربت كأساً من البيرة، ثم وجبة كبيرة من الطعام مع نبيذ أحمر جيد، وبعد ذلك ذهبت لنوم هادئ عميق.

اتفقنا على أن من ينتهي أولاً يأتي للآخر. لم يرد دافيد على طرقي للباب، أعني سماع الأصوات رغم الباب المزدوج. أدرت مقبض الباب. فوجدت الغرفة مضاءة جيداً، السرير غير مستخدم، وعلى الغطاء كانت هناك كومة من شالات الحرير اللامع. كما كانت هناك حقيبة مفتوحة على الطاولة المعدة خصيصاً لها. والتلفاز مفتوحاً، وعندما هممت لإطفاء الجهاز وأنا أنادي عليه، رأيت باب غرفة الحمام مفتوحاً، وأتتني فكرة مزاجية فيها نوع من الوقاحة لأن أفاجئه في الحمام. مشيت على أطراف أصابعي لكي لا أحدث أي أصوات، وعندما وقفت إلى إطار الباب نصف المفتوح ،مُتَسَتِراً خلفه، سمعت دافيد يتحدث، ثم رأيته في المرآة فاتحاً عينيه على وسعهما. ظننت في البدء أنه يُحدث نفسه.

حيث قال: «لكنه هو الذي قال أنت، وليس أنا». ثم اتضح لي الأمر بعد ذلك، ف «دافيد» فعل ذلك، وكأن الوجه الذي في المرآة يعود لشخص آخر.

«في وقت ما سأراك بدقة. سوف أعرف حينها، أي خط سأشقه في وجهي».

كان في لهجته نوع من التهديد، وكان متشنجاً وكأنه يرى جزيئات صغيرة من خلال الميكروسكوب، لا يمكن لمراقب أن يراها عن بعد، ثم مسد حاجبيه بسبابته اليمنى، وجس جبينه ومرَّ بإصبعه من أعلى الأنف إلى أسفله.

«وجهك اللعين حبسني في قفص».

ثم رد شعره الأسود إلى الخلف. وجنتاه بدتا شاحبتين ومائلتين للزرقة بفعل ضوء المصباح، وبلاط الحمام الصيني الأبيض. إطار المرآة الذهبي المشغول بجهد، والمعلق فوق مغسلة المرمر زاد الأمر سوءاً، وجعل بشرة دافيد تبدو بدون دماء. الشيء الوحيد الذي كانت الحياة تدب فيه في هذا الوجه كانت تلك النظرة. فقد كنت أرى الغضب يتدفق من عينيه. حاول دافيد أن يسيطر عليها بواسطة لهجة أخرى غير متسامحة.

«اهدأ يا دافيد. عد إلى واجبك، الذي خلقت من أجله. سيبقى الذنب يحوم حول عائلتك، إلى أن يفككه أحد ما».

عسى أن يعرف، لمن كان هذا الصوت الغاضب.

«أكرهك»، قال دافيد بصوته المعهود. بدا صوته الآن وكأنه باكٍ، به نوع من التحدي، يافعٌ. للحظة شعرت بالخوف من أن يضرب نفسه بالمرآة وهو في يأسه الطفولي، لكن غضب دافيد هدأ فجأة، فرأسه اقترب الآن من المرآة، عيناه كانتا تبحثان في كل مسامة، وقال هامساً:

«سأحفظك عن ظهر قلب.».

فقط وعندما تناول دافيد قلمه ورسم صورة شخصية له بخطوط قليلة مركزة وتنم عن خبرة واسعة ، عندها رأيت دفتر الرسم وقلم الرصاص اللذين كانا موضوعين طيلة الوقت على المغسلة. هل ما كنت شاهداً عليه للتو، حدث عادي يومي؟ ابتعد دافيد عن المرآة قليلاً، ونظر إلى نفسه، للحظة بدت فيها نظرته وقد استردت هدوءها بشكل ملحوظ. ثم أعلن بلهجة عقلانية نهاية المشهد. تناول عطر الحلاقة، ورشه على رقبته ووجنتيه. وحينها انسحبت بنفس الهدوء الذي أتيت به.

عدت إلى غرفتي، فتحت نافذة الشرفة، نسمة الهواء أنعشتني. كان البحر يبدو كالسراب خلف قمم الأشجار، أمواج سطحية صغيرة كانت تلتطم بالشاطئ. ما الذي شاهدته؟ هل هو انفصام الشخصية؟ هل فكك الجنون وعي دافيد؟ رغم نسيم الهواء المنعش، شعرت وكأنني أغوص في صور خيالية، ولم يكن بمقدوري أن أدير ظهري عن ذلك. شيءٌ ما استوقفني، وأجبرني على النظر وإذا بصوت دافيد يقول:

«لقد كان ذلك رائعاً. النزهة، الحمام، ملابس نظيفة. أنا جائع مثل دب. وماذا عنك؟».

وقف أمامي. كان قد حلق ذقنه للتو، وقد لبس أجمل ما عنده: شالاً أحمر منقطاً بالأزرق وقميصاً مُقلَّماً بالوردي والأبيض. سترة زرقاء. بنطالاً رمادياً من الصوف. لقد بهرني بإشراقته. شعرت بالبؤس، وبأنني مُتعب وعصبي، لم أعرف ماذا أقول وكيف علي أن أتصرف. فسألني:

«هل أنت في حالة سيئة؟».

أسوأ ما في الأمر، أنني وبرغم تلك المسرحية، شعرت أنني مشدود إليه إلى حد الاستغراب، والشيء الوحيد الذي كان يبدو عقلانياً هو أن

أحمل حقيبتي وأترك هذا المجنون في حاله، لكن دافيد تقدم مني بضع خطوات، وربت على كتفي بهدوء. لا أعرف، ما الذي دار في نفسي. وفيما بعد تبين لي أن الأمر مرعب، فبدلاً من الابتعاد عنه، ها أنا أضع رأسي على كتفه. لفترة من الزمن بقينا واقفين على هذا النحو دون أن يحدث أي شيء.

«هل بإمكاني أن أساعدك بأي شيء؟».

في هذه اللحظة، عشر ثانية، كنت سأقع بين ذراعي دافيد، لم يبق سوى القليل، لم ينقص الكثير. ما نقص إلا القليل من فقدان الضمير. شعرتُ بالألم في كل أنحاء جسدي، وركزت فقط على ألا أجهش بالبكاء، وفي هذه الحالة كان سيربح الآخر الساكن بداخلي. دافيد لم يبخل علي بشيء، مرر يده على شعري وضم رأسي بحنين إليه. بدفعة تخلصت منه.

«مارتين».

حاولت أن ابتسم.

«اعذرني، شعرت بنوع من الدوار. دعنا ننزل للأسفل».

جلسنا على البار، وطلبت كأساً، بينما طلب دافيد كوكتيل مانهاتن، وبعد أن بللت الجرعة الأولى حنجرتي، قررت حال عودتي إلى برلين، أن أبدأ في البحث عن صورة فوتوغرافية أفضل لـ «أوتو آبتس». ربما أتمكن بكثير من الحذر، أن أفعل شيئاً لـ «دافيد»، أن أقول له ولو على هامش الحديث، بأن كل إنسان فريد من نوعه، وأن شبهه بجده لا يمكن أن يتعرف عليه كل شخص.

السابع عشر

في صباح اليوم التالي أيقظني هدير البحر. فتلاطم الأمواج على الشاطئ جعلني الليلة الماضية استغرق في نوم عميق، ثم انتزعتني منه من جديد. طلبت طعام الإفطار وجريدة، ووقفت ببرنس الحمام على باب الشرفة، وبدأت استعيد خلاف ليلة البارحة العنيف. للحظة حاولت تجنب التفكير بذلك، ونظرت إلى البحر. كانت الأمواج تدفع نفسها على ارتفاع بسيط فوق الرمال بانتظام، وعلى مرأى من هذا العالم، الذي أدار لنا ظهره كما في اليوم السابق، تذكرك الأرض الرملية الخالية الآن بقصة منسية. قصة أشخاص فرادى في حجرة ذات سقف مرتفع، حركات لا يعرف المرء مغزاها... أشباح... في الصيف وبعد طلوع الفجر فإنّ وجود كراسي الاستلقاء والمظلات الشمسية والنفايات سيمحو هذه الخرافة خلال دقائق سريعة. رائحة زيوت الوقاية من أشعة الشمس، البطاطس المقلية، صراخ الأطفال الرضع، النداءات بصوت عال بحثاً عن أشياء مفقودة وأطفال مفقودين تُكمل بقية المشهد لتعري العواطف الجياشة للحظة الصباح الباكر. ما الذي أطلقها؟ هل هي مقالة صحفية من جريدة شعبية، أسرت تحفها الرائعة في صلوات الشاطئ الصباحية؟ كنت أريد أن أبقى لبعض الوقت في هذا المكان، الذي يمنحني في كل الأوقات الحماية من حاضر مهيمن. هبت نسمة منعشة لها نكهة عشب البحر والملح، بينما كنت أقف حالماً على العتبة.

طُرِق باب الغرفة،حيث أحضر أحدهم الإفطار والجريدة، وبينما كنت أشرب قهوتي،.وأنا مستلق في السرير، حاولت أن أقرأ بعض المقالات، لكنني تخليت عن ذلك بسرعة، إذ لم أكن قادراً على التركيز،

فمساء البارحة دفع بنفسه إلى الواجهة، ولم أنجح طويلاً في إزاحة الفضيحة جانباً. تجرعنا شرابنا ونحن في حالة من التفاهم. ثم ذهبنا إلى الطاولة لتناول الطعام. شرب دافيد شوربة كبيبة سمك الكركي بتلذذ، لكن قبل الوجبة الرئيسة ومن حيث لم أتوقع بدأ بالحديث عن مني.

«قالت بأنك لوطي».

«حقاً؟ كثيرون هم الذين ادعوا هذا. ربما أن من حقي أن أدلو بدلوي في هذا الحديث».

لماذا قال هذا؟ إنه يهم لتدمير عصر رائع، في بداية مساء هادئ. أخذتُ أبحث عن شيء، أخفف به حدة لهجة دافيد العدوانية، وقلت:

«النساء في بعض الأحيان مخلوقات غريبة. أنا لا أفهم الكثير عنهن».

«آه، إذاً أنا لا استغرب أنك لم تلاحظ مدى ولعها بك. لقد جن جنونها، عندما قلت لها، بأننا سنسافر سوياً إلى آلبك».

«أنت حدثتها عن ذلك؟».

ما الذي كان يفعله دافيد في مكتب الشركة أثناء غيابي؟ صدفة؟ لم تكن مني مجاملة كما في الحفلة، حتى أنها لم تعرض عليه أي شيء. ثم خطرت له فجأة فكرة أن يقول لها، إننا سنسافر إلى يوزيدوم. كانت مزحة قاتلة، أن يراها وهي تستشرس إلى هذا الحد، فقد كانت غاضبة بكل معنى الكلمة، وفتحت شباك النافذة على مصراعيه، على الرغم من أن الجو لم يكن حاراً في تلك اللحظة. كل الأوراق طارت وهبطت على الأرض، ولم يقم دافيد بمجاملتها ومساعدتها في جمع الأوراق.

من المفترض أن يكون المطبخ شهيراً بسمك الزاندر. لكنني لم أعد أذكر كيف كان مذاقه، وحدقت النظر، غير مصدق، في دافيد الذي واصل

حديثه بسرور واضح حول غيرة منى، وبسرور أكبر حول ادعائها بأنني لوطي. ما كادت تنتهي من رفع الأوراق بكسل، حتى هبت نسمة هواء أخرى ونثرت وثائق أخرى من على الطاولة، وأخيراً أتتها فكرة أن تغلق النافذة ثانية، ثم خرجت عن طورها عندما رأت دافيد لا يزال واقفاً في حلق الباب، واتضح لها بأنه ينظر إلى هذا المشهد باستغراب. صرخت به. من هو... ماذا يريد من مارتين... ومنها؟ ما هي تلك الرغبة الشاذة التي لديه للتخريب؟ كاد دافيد أن يسقط من شدة الضحك.

«كنت قادراً على أن تسمع دقات قلبها، وأنت واقف إلى جانبها. إنها حامية، لدرجة أنها لا تعرف على من تلقي بنفسها».

حينها انفجرت، وكنت أنا شخصياً أكثر من فوجئ بشدة ردة فعلي.

«أنت فظيع».

«هل لك علاقة خاصة بها؟» استبق دافيد بالسؤال.

أثارت هذه الثرثرة المبتذلة اشمئزازي، فالجنس لم يكن أبداً موضوع حديث بالنسبة لي. ثم جاء النادل إلى طاولتنا، بعد أن لاحظ أن أحداً منا لم يعد يأكل، وسأل فيما إذا كان لنا مأخذ على شيء. وعلى أية حال فقد انتزعني من غضبي، وأجبته:

«انشغلنا في الحديث بموضوع أكثر مما كنا نعتقد، فالسمك كان جيد جداً... لكن يمكنك أخذ الأطباق معك، لو سمحت».

بعد أن ذهب النادل بالأطباق، قلدني دافيد كالقرود.

«*الولد الأمريكي المهذب*. الأم كانت مربية قاسية».

«ماذا تعرف أنت عن أمي؟» قلت ببرود.

في الحقيقة، سألت نفسي في هذه اللحظة، عما كانت ستفعله

روزي في مثل هذا الموقف. فوقفت، وبدون أن انتظر جواباً، خرجت من المطعم، تناولت معطفي، ومشيت مرة أخرى إلى الشاطئ، لأفكر بصفاء.

الثامن عشر

كان صباح أربعاء عندما ردت منى على مكالمة هاتفية، لقد طلبتني النيابة العامة.

«هل يمكنك الحضور؟ عليك أن تثبت شخصيتك. هناك رسالة لك، أودعها السيد ألفرد برلنسامت».

«*ماذا تعني بأودعها*؟».

في تلك اللحظة التي جاء فيها صوت الرجل على الخط، بأنه قد عثر في هذا الصباح على ألفرد برلنسامت ميتاً، كان دافيد يقف في وسط الغرفة شاحب الوجه، لم ينطق بشيء. أما منى فقد نظرت لي، وعلامات الحيرة بادية عليها بسبب هذا المشهد الدرامي.

«لقد عُثِرَ على والده ميتاً في زنزانته».

قدمت منى مقعداً لـ «دافيد». عندما جلس، أسندت ظهره على المقعد برفق، وغابت ثم عادت، ومعها كأس من الماء. وضعت سماعة الهاتف، ثم مسحت على كتفي دافيد برقة، وسألته بصوت هادئ، إن كان بحاجة إلى طبيب، ولكنه لم يرد على السؤال، فناوَلَته الماء، وأَجْبَرَته على شربه. لقد بدا غير مهتم بمظهره إلى درجة كبيرة، حيث كان يرتدي بنطال جينز بدون حزام، وقميصاً نصف أزراره مفتوحة، وفوقه سترة صوف قديمة، ويلبس حذاء بدون جوارب، كما كان يتنفس بصعوبة، وكأنه كان يركض.

«دافيد، هل تستطيع أن تتكلم؟ هل بإمكاننا أن نفعل لك أي شيء؟».

«لقد انتحر. كان يكرهني. كانا كلاهما يكرهانني. كانا يتمنيان، لو

أنني لم أخلق على هذا الكون أبداً، فأنا السبب في موتهما».

عارضته منى. حاولت رفع معنوياته بشكل واضح ومبالغ فيه، كما يتحدث المرء مع إنسان مريض. أخذت يده، تذكرت هنا كلمات إدفيجه، دافيد، الطفل المهمل، طلب سيجارة. لم يكن أحد منا معه سيجارة. ركضت منى إلى الخارج لكي تحضر السجائر، وطلب كأساً من الشراب، فذهبتُ إلى المطبخ، وأحضرتُ له كأساً من الويسكي. ثم عادت منى ومعها السجائر وقدمت له واحدة. هز رأسه، وعندما وقف، كانت حركته تشبه صورة إعادة بطيئة. تصرف وكأنه يريد أن يذهب، فعَرَضَتُ عليه أن أرافقه. هز رأسه رافضاً.

«لا يمكنك أن تدعه يذهب وحيداً»، قالت منى مؤكدة على ذلك. «إذا لم تذهب معه، فسأذهب أنا معه».

كانت متأكدة مما يجب فعله، فتركتها تذهب، وكنت مرتاحاً، لأنه لم يكن علي أن أعتني به.

بقيت في المكتب إلى أن عادت منى. بعدها كان الوقت متأخراً للذهاب إلى النيابة العامة، وفي اليوم التالي كان علي أن أسافر إلى باريس بناءً على طلب من رئيس الشركة في نيويورك.

«سأكون لك من الشاكرين، إذا شاركت في لقاء المحامين، يا ساوندرز. هل يلائم هذا برنامجك الأسبوعي؟ أنا أعرف أن هذا مفاجئ، لكني سأكون مطمئناً، إذا عرفت أنك موجود هناك».

لبيت بالطبع طلب د.د.ميلز. فرغبات نيويورك لها الأولوية. قلت لمنى، إن علي أن أسافر غداً بالطائرة، فقالت بحزن:

«جيد. لقد استدعيت الطبيب، وأعطاه مسكناً خفيفاً، وستتفقده الخادمة.». «الآن ستبدأ أعمال التجسس من جديد. لدى الصحافة

سبب جديد، لافتعال سبق صحفي، على الرغم من القصة المحزنة».

أدهشني ما قالته، ولم أجبها على ذلك، لأنني لم أكن أرغب في الحديث معها عن دافيد، وخاصة بعد أن كنت معه في آلبك. حاولت منى أن تصرف النظر عن الموضوع بالعودة إلى برنامج العمل اليومي.

«ستعرض لوحة كوربيت في مزاد أعياد الميلاد. أود أن أشكرك مجدداً على دعمك لي».

أومأت برأسي. ووَقَفت هي حائرة أمام طاولة مكتبها، وكان الشال الكبير لا يزال ملفوفاً على رقبتها، ومعطفها ملقىً خلفها على الكرسي. لقد أعطت انطباعاً، وكأنها لا تدري ما الذي عليها أن تفعله أولاً.

«و دافيد، الجدران الفارغة، المجموعة الفنية، الحفلة، موت والد دافيد؟».

«هل يشغلك الموضوع الآن؟ وفجأة؟ لم يعد للأمر أهمية الآن. القاتل مات، ولن نعلم السبب مطلقاً».

في الطريق إلى المطار، كنت لا أزال مشغولاً بوجه منى المذعور. من الواضح أن الوضع الجديد الذي طرأ على دافيد، أيقظ فيها الشفقة عليه، ولم تفهم هي سبباً لعدم اكتراثي، وكيف لها أن تفهم الأمر، فأنا لم أحدثها شيئاً عما جرى في آلبك، لم أنبس بكلمة واحدة عن ادعاء دافيد، فأنا لم أنس شيئاً من ذلك، ولكني لا أريد، أن تشغل فكرها بعائلة برلنسامت والمجموعة الفنية، فقد أصبح الأمر الأن ملكاً لي. ومنذ حادثة آلبك تغيرت نظرتي للموضوع.

حجزت غرفة في فندق أنجليتر *d'Angleterre*. حضرت متأخراً خمس دقائق فقط عن الموعد. ما دار الحديث حوله لم يكن جديداً، فالأشياء الجديدة لم تكن هي السبب وراء رغبة د. د. ميلز، لأن أكون

حاضراً هناك، لكن الأمر يتعلق بالعلاقات الشخصية، التي تولد الثقة المتبادلة، فالالتزام بالحضور في الوقت المحدد هو كل شيء.

بعد انتهاء الحديث، ذهبت مع محام فرنسي إلى بار، وسألته عما يعرفه عن أسلوب عمل السفارة في باريس أيام الحقبة النازية، فقال:

«بعض الصور التي كانت في المقر الألماني، لم يتم تسجيلها ضمن قوائم الموجودات، آبتس احتفظ بها مخفية رغم أمر الفوهرر[1]، فالأمور معقدة. بعض هذه الصور سُجلت على أنها ضمن ممتلكات السفارة، كما هو وارد في الملفات اليدوية المتبقية، والبعض الآخر ورد في تلك الملفات على أنها ملك خاص «لآبتس». لكن كن على ثقة، حتى السفير في ذلك الوقت أيضاً، لم يكن قادراً على شراء لوحة لكوربيت، أو لأوتريللو *Utrillo* [2] أو لبونارد *Bonnard* [3] من ماله الخاص. لقد استولى عليها بواسطة قنوات مظلمة».

«هذا ما كنت أخشاه».

نظر لي ساخراً، دون أن يكون قادراً على معرفة ما قصدت. مجموعة آبتس الفنية، مجموعة دافيد الفنية، ناجمة عن عمليات نهب خاصة. لكن كيف تمكن هذا الوضيع من إيصال اللوحات إلى ألمانيا؟

«بعض هذه اللوحات، مثل اللوحة الفرنسية، هي من المجموعة الفنية لرينتروب. وقد تم إرجاع المجموعة كاملة في الفترة الواقعة ما بين 1948 و1951 إلى فرنسا. البعض الآخر لم يظهر قط».

«هل كان من بينها لوحة لكوربيت؟ لوحة البحر؟».

«من المؤكد أنه كان هناك أكثر من لوحة لكوربيت بينها. كوربيت

---

(1) بالعربية القائد والمقصود هو هتلر.

(2) موريس أوتريللو 1883—1955: رسام فرنسي وابن الرسامة الباريسية سوزان فالادون.

(3) بيير بونارد 1867—1947: رسام فرنسي.

رسم كثيراً، وكما تعلم، كان محبوباً جداً عند النازيين. فهو عاطفي، واقعي، وبكل بساطة سهل للفهم وقوي في التعبير، لكن وكما قلت، لم تكن كلها مسجلة في القوائم».

«وماذا عن غنائم العملاء؟».

«لا أعلم شيئاً، منطقة ضبابية. بالتأكيد مساحة ضخمة، وبالدرجة الأولى مضاربات.

نعرف، ما المفقود، فهذه المجموعات الفنية الشخصية لم تكن مسجلة في كتالوجات، بل كانت ممتلكات عادية في بيوت الطبقات الغنية. هل تعرف أنت ماذا كان موجوداً في بيت أجدادك؟».

فكرت بذلك البيت الصغير في لانجنفيلد. كانت روزي تتندر بجدتي، التي كانت تسجل كل المصروفات على الرغم من قلة ما يمكن أن ينفق. وفي الواقع كان هناك فعلاً قائمة ممتلكات للأثاث، وخلف كل قطعة كتب السعر الذي دفع ثمناً لها، وأين تم شراؤها، وأي شخص سيرثها بعد وفاة جدتي.

«قد يعرف المرء في برلين اليوم، ما الذي كان يجري في شارع ويليام. وحسب معرفتي بالألمان، فإن كل حجر في الشوارع المرصوفة له رقم مع إهداء لأحد الذين رحلوا في عام 68. هناك يُفضل المرء أن يستحم في وحله الخاص، وفي هذه الأثناء أصبح هذا النوع من الفلكلور محطة تزورها أفواج السائحين. نحن في باريس لا نستطيع المنافسة في هذا النوع من السلخ الذاتي. أما فيما يخص شارع لاوريستون، شارع جرويز أو بقية الحي السادس عشر: فإن الحي السادس عشر، حي جميل وهادئ، ويسكنه اليوم بالدرجة الأولى الأغنياء، كما كان قبل سبعين سنة. لا يخطر ببال المرء أن غالبيتهم من اليهود. نحن فرنسيون، لسنا

ألماناً يريدون التلذذ بالشعور بالذنب».

«هذا جيد، إننا وعلى الأقل نُغْني اللسان الفرنسي ونعطيه طعماً جديداً للحياة، إذا لم يكن بوسعنا أن نُغْني المطبخ الفرنسي الذي استفدنا منه منذ الحرب وحقبة العملاء».

«نحن؟ أنا اعتقدت أنك أمريكي؟».

«أمي ولدت في ألمانيا. عليَّ أن أودعك الأن يا ميتري، فإن لدي موعداً آخر للطعام».

في أحد الأكشاك تمكنت من شراء كتاب مُجلَّد، به خارطة المدينة، وكان قد نصحني به المحامي الفرنسي دوراس قبل أسابيع. في الفندق نزعت الخرائط التفصيلية من آخر المجلد وتفحصت طبوغرافيا المدينة. عندما بحثت عن العناوين وقارنت كثافة مواقعها في الأحياء المنفردة معها على الخريطة، تأكدت لي النتيجة التي تنبأ بها دوراس: اندست العصابة في الشوارع، الأزقة، الممرات والطرقات، ومن المحتمل أن تكون أيضاً قد تسللت عبر قنوات الصرف الصحي وأنفاق المترو المعطلة أو حتى إلى الدماميس والقبور تحت الأرض. ما تحت باريس، وهذا ما تعلمته أيضاً، كان مليئاً بالثقوب مثل تلال النمل الأبيض، ومن المحتمل أن تكون مجموعة آبتس الفنية قد تم تهريبها عبر إحدى هذه الطرقات إلى خارج المدينة، ولكن كيف عبرت الحدود؟

فجأة أتتني فكرة الاتصال بإدفيجه، لا بد أنها تعرف كل شيء، وتحديداً لأنها تصرفت وكأنه لا صلة لها بالأمر. حاولت أن أجد رقم هاتفها في دليل الهاتف، غير أنني لم أعثر عليه. لم أجد في الدليل اسم إدفيجه آبز. اتصلت بالاستعلامات. فقيل لي بأن المدام لها رقم سري، وبإمكاني أن أترك اسمي ورقم هاتفي، حيث سيتم إبلاغها بهما،

وستتصل هي بي إذا اقتضى الأمر. بعد أن تركت رقم هاتف الفندق، استلقيت على السرير لأَخذِ قسطٍ من الراحة لبضع دقائق. استيقظت لوهلة قصيرة، لكني شعرت بأنني منهك، فبقيت مستلقياً. اعتقدت بأن السرير إلى جانبي غير مرتب، رغم أنه كان خالياً. سألت نفسي عمن كان مستلقياً عليه. رائحة مألوفة حامت في الحجرة، لم يكن عطر منى. فيما بعد انتزعني طرق قوي على الباب من حلمي، وتسرب ضوء خافت من خلال شق في الستائر، وشيئاً فشيئاً تذكرت الحدث الفعلي، المخطط الذي أريد أن أنفذه. زيارة إدفيجه، وحقيقة أن والد دافيد قد قتل نفسه رمياً بالرصاص. ثم سمعت من خارج الغرفة صوتاً يطلب مني إعادة سماعة الهاتف إلى مكانها الصحيح، وبعد أن فعلت ذلك، رن الهاتف، وأبلغني موظف الاستقبال، أن سيدة تدعى آبز، حاولت مرتين أن تتحدث معي، وأنها تركت رقم هاتفها.

للحظة فكرت، فيما إذا كان الوقت متأخراً، لكي اتصل بإدفيجه، ثم قررت أن اتصل بمنى في برلين. صوتها بدا قوياً ورقيقاً عندما ذكرت اسمها، ثم قالت إنها زارت دافيد مرة أخرى، وكان نائماً، والخادمة وكانت تتفقده كل ساعة. وبصوت مليء بالدفء، قالت إن علي ألا أشغل بالي به. وأنها سوف تتصل غداً صباحاً بدافيد وستتحدث مع الخادمة، أما الأمور الأخرى فسوف يُنظر لها لاحقاً. وضعت السماعة منهياً المكالمة. لم أشعر بالارتياح، فعندما انتقدت منى دافيد، كانت سطحية. وهي الآن تعتني بـ دافيد، وهذا الأمر لم يكن ليروق لي، ومن أجل أن أستيقظ تماماً، ذهبت لأخذ حمام. قبل أن أكمل تجفيف نفسي، دق جرس الهاتف. قالت إدفيجه إنه لم يكن لديها وقت قبل التاسعة والنصف، أما الآن فستكون مسرورة، إذا

وافقت على تناول كأس من النبيذ معها.

قبل أن أذهب إليها، عرجت على نقطة مراقبة تروكاديرو *Trocadero* [1]. الأضواء الشتوية لبرج أيفل كانت تلمع مثل فقرات من البرق في مواجهة الليل قاتم الظلمة. رجل قتل زوجته دونما سبب واضح ثم قتل نفسه– بل أعدم نفسه؟ لم يعثر على دافع للجريمة في أي مكان. الابن، الذي لم يكن لديه تفسير لما جرى، عدَّ نفسه مذنباً، أصيب بانهيار بعد أن أثبت لفترة من الزمن قدرته على الصمود. ذلك كان الشيء الطبيعي الوحيد. بدت إدفيجه وكأنها لا تعلم بوفاة أخيها، وكان صوتها هادئاً، ثم تركت منصة المراقبة دون رغبة، وساورني شعور بالطمأنينة، لم أشعر به منذ زمن طويل. انطباع نصف غريب عن مدينة مألوفة لا أقيم فيها. شعرت وكأنني متستر بالمجهول ومبرأ ومحمي من التاريخ الذي كان يتواصل بغيابي. السماء هدّأت خاطري، إضافة إلى أضواء برج إيفل، والأصوات التي كانت تأتي من أطراف المدينة المتناهية، وتضيع كلما ارتفعت. في السابق أحسست بأنني آمن في برلين، وأن أحداً لا يمكن أن يؤثر علي. غير أن الفضول والاهتمام الساذج بالعاصمة الألمانية كانا قد زالا. الآن اعتدت على عطرها، رغم أنها كانت ضخمة الحجم، أكبر من باريس بكثير. هكذا بدت لي واضحة المعالم، وكأنني كنت قادراً على تقدير كل ما يجري فيها ليلاً ونهاراً. ربما كانت رغبتي، أن اَكتَشِف دون أن أُكتَشَف، هو السبب وراء موافقتي على عرض د. د. للذهاب إلى برلين. وهكذا كان علي أن أغادر بأسرع وقت. وعندما رجعت، كانت تفصلني خطوات قليلة عن إدفيجه. شوارع جانبية هادئة. فلم يخرج أحد من البيوت، لم يخرج

(1) تروكاديرو: ساحة في الحي السادس عشر بباريس.

أحد ليتمشى مع كلبه. خطواتي كانت تدوي على الرصيف العاري مثل مشهد ليلي في فيلم، غير واقعي ومبالغ فيه. لم أنجح في أن انزلق في ذلك الزمن الذي كان يعيش فيه جدّا دافيد. ربما كان ينقصني التمرين في أن أعطي للماضي قيمة أكبر من الحاضر.

التاسع عشر

فرحت إدفيجه جداً لرؤيتي. دعتني للدخول، وإلقاء نظرة على المكان، بينما ذهبت هي لتحضر شيئاً للشرب. «ما أجمل هذه الشقة! يا مدام»، علقت في البدء.

لا بد أنه كان لوقع كلماتي صدى، وكأنني لم أكن أتوقع أنها تعيش في مثل هذه الظروف. إدفيجه ضحكت متسامحة. ربما أنها سمعت مثل هذه الكلمات من كل من دخل شقتها لأول مرة. فمن خلال واجهة زجاجية، تقود إلى شرفة على سطح المنزل، كان يرى برج إيفل بأضوائه البراقة. تصورت وكأن شقة أخيها المظلمة تبدو لها وكأنها دهليز قبر. ورغم الظلام في الخارج بدت الغرف مضاءة بالأضواء الكهربائية بشكل جيد. الأثاث كان قليلاً، والمعبر الذي يقود إلى الشرفة الليلية كان محاطاً بالنباتات المورقة. وكان مثيراً للانتباه عدم وجود صور معلقة على الجدران، فعلى ما يبدو أنها لم تطالب بامتلاك أي شيء من مجموعة والدها الفنية.

«عندما أردت أن اتصل بكِ، تبيّن لي أن رقم الهاتف ليس بحوزتي».

جلسنا على الشرفة. أيضاً وحتى هذه اللحظة، لم يكن بادياً عليها، أنها كانت تعلم بموت أخيها.

«من حسن الحظ كان اسمك معي، على الرغم من أنني لم أكن قادراً في البداية على تحديد صاحبه».

«إذاً فقد قال لك دافيد، كيف كان يُسمى والده، قبل أن يشتري اسمه الجديد مع الشركة؟ لقد شطبت حرف «ت» من اسمي. لا بد

أنك تعتقد، أننا مُغْرَمون بالسرية، ولكن الأمر لا يتعدى كون أنني فعلت ذلك، لأن الفرنسيين لا يمكنهم نطق حرف «تست». دعني أكن صادقة معك. إن شكل الاسم الحالي يناسب أسمائي الأولى بصورة أفضل، وأيضاً مناسب لي».

«آها، ألم تغيريه؟».

«ولماذا علي أن أفعل ذلك؟ ليس لي صلة بقواعد السلوك التي ينتهجها أخي. كلانا كان له اسم فرنسي، لأن أمنا الفرنسية أرادت ذلك».

«كنت أظن أن أمك كانت بلجيكية!».

«لا. من الذي أخبرك بذلك؟ هل هو دافيد؟».

«اعتقد أنني قرأت ذلك في مكان ما».

«قرأت ذلك؟ هل تريد أن تقول، إنك قرأت شيئاً عن أمي؟».

لم أجب على ذلك، ونظرت من حولي بنوع من الفضول، إلى أن انتبهت لنفسي في الوقت المناسب، وأنا أقوم بهذا الشيء المنافي للباقة، فحاولت أن أخفي ذلك بواسطة ملاحظة حمقاء.

«يبدو وكأنك، وعلى خلاف عائلتك، أنت لا تهتمين بالفن».

«خلافاً لعائلتي؟» هزت كتفيها. «أنا لست متأكدة جيداً، مما تعنيه. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه باستمرار، أي نوع من الفن يهتم المرء به. وما الذي يقدر المرء مالياً على امتلاكه. في تلك الفترة وجهت جلَّ اهتمامي إلى الحدائق».

تأكد لي، أنني كنت، وعلى العموم، محظوظاً أن التقي بها. إدفيجه كانت تفضل العيش في الريف، فهي مهندسة حدائق. بدأت كمتدربة في مشتل، وارتقت إلى ما وصلت إليه الآن، ومن الواضح أنها كانت ناجحة. فشقة كهذه في هذا المكان لا بد أنها تكلف الكثير من المال.

«إذاً لم يكن لك أي صلة بشركة برلنسامت على الإطلاق؟».

تجنبت الإجابة على هذا السؤال، وحوّلت الموضوع نحو النقطة التي أنهت فيها الحوار قبل عدة أسابيع في برلين: «دافيد». بدا وكأنه ليس لديها موضوع آخر غيره. كانت حالة برلنسامت جيدة عندما ولد ولي العهد، فقد كانا يُمَنيّان نفسيهما بابن يحافظ على اسم العائلة. ورغم ذلك لم تدع إدفيجه مجالا للشك، بأنه لم يكن لـ دافيد أم تحبه، أو أب يفتخر به. برلنسامت كانا يعطيان دائماً الانطباع، وكأنهما عائلة بلا أطفال، وجعلا دافيد ينشأ في الظل. صوت إدفيجه كان مفعماً بالمرارة، كأنها كانت تريد أن تصرف النظر عما يجول بداخلها من أحاسيس. ثم سألتني إن كنت أرغب في شرب شيء، ونهضت بسرعة لتملأ كأسي بنبيذ المقبلات *Hors d'œuvres*، لكن كأسي كانت ممتلئة حتى ثلاثة أرباعها. لم يمد أحد منا يده ليتناول شيئاً من المكسرات والزيتون. وبعد أن عادت للجلوس، بدت وكأنها وضعت اضطرابها السابق جانباً، وتابعت الحديث دونما فواصل. ألفرد برلنسامت كان يخشى أن يُدَلِل الصبي، كان عليه أن يحقق إنجازات، أن يثبت نفسه، وألا يكون دائم الشكوى. كان من المنتظر، وبعد أن ينهي دراسته وحينما يصل سناً مناسباً، أن يتبوأ مكانه لحمل مسؤولية الشركة عن أبيه، وأن يتابع شهرة والده الواسعة في مجال تخصصه، ومن الأفضل أن يتجاوزها.

«اتضح لي في وقت متأخر جداً، بأن أخي كان ضعيفاً، فالناس الضعفاء يمكنهم أن يكونوا قُساة».

بدأت حياة دافيد مع الرعب. آلام المخاض استمرت لدى والدته يوماً وليلة. وقد أنهكها ذلك إلى حد كبير. بقيَت أربعاً وعشرين ساعة، وهي تصرخ من الألم، حتى خرج هذا الصغير، الطفل الغض، إلى هذا

العالم، ثم سُلِّمَ دافيد لممرضة الرضع. لعدة أيام رفض الرضاعة، وهذا ما عرضه لخطر الموت. إدفيجه كانت متأكدة، بأن انفصال دافيد عن أمه، قد أدى لإصابته بصدمة نفسية. ومن غير الممكن أن يكون هناك سبب آخر: لقد افتقد حنين ودفء أمه.

«هل حضرتِ الولادة؟ أنت تصفين ذلك بوضوح مميز، وكأنك عايشته».

كان جوابها مواربأً. بعد الولادة الصعبة، كانت تستفسر أحياناً عن صحة زوجة أخيها، وعن صحة الطفل. وقيل لها بأن ميريام والطفل بحاجة إلى الراحة، وأن عليها ولهذا السبب أن تكفّ عن الاتصالات الهاتفية. وقد كانت قبل ذلك قد ابتعدت عن عائلة أخيها، على الأقل من الناحية الجغرافية. عدا عن ذلك لم يكن بينهم تقارب أو تواصل. كما أن تغيير الاسم كان له وقع سلبي عليها، ولم تكن تهتم بعائلة أخيها، باستثناء دافيد، فقد كانت تشعر بالأسف بسببه، وتتمنى لو أن بإمكانها أن تمد له يد العون.

«كنت آمل بعد وفاة ميريام، أن تتغير بعض الأمور، وحاولت تقوية دافيد، لكي يصبح مستقلاً ويبني حياته الشخصية. لكنه لم يكن يستجيب سوى لوالديه المتجهمين وغير الراضيين عن نفسيهما».

لم تشر إدفيجه وحتى هذه اللحظة إلى وفاة أخيها.

«ألم يتصل بك أحد من برلين؟ لا دافيد ولا النيابة العامة؟».

«ولماذا يتصلون بي؟».

شَرِبَتْ رشفة من النبيذ. أخيراً بدا كأن توترها قد هدأ، أسندت نفسها في الكنبة واسترخت كان الوقت يقترب من منتصف الليل. الهواء الذي كان يدخل من الشرفة عبر الباب المشقوق، كان ما يزال لطيفاً، وبه شيء

من برودة الخريف، وضجيج المدينة الكبيرة كان يؤكد لنا، بأن الناس يقومون بأعمالهم، بينما نحن نتحدث إلى بعضنا في هذا المكان الفاخر الذي يُطِل على المدينة.

«لقد عُثر على أخيك ميتاً».

شرقتْ وبدأت بالسعال، قفزت واقفة، وهي تلهث بأنفاسها، مشت جيئة وذهاباً، وكان من الواضح، أن لديها صعوبة جمَّة في التنفس.

«أين؟» لفظت السؤال بصعوبة. «أين عُثِرَ عليه؟ من الذي قتله؟» تابعت، وهي ما تزال تعاني من صعوبة في التنفس.

«بالطبع وجد في زنزانته، أين يمكن أن يحصل هذا في غير ذلك المكان؟ من الذي قتله؟ هو نفسه. لقد انتحر. ومن غير الممكن أن يكون الأمر قد تم على خلاف ذلك.» خطر ببالي أن أحداً لم يتحدث عن كيفية حصول الوفاة. في الزنزانة لا يوجد إلا إمكانية واحدة، لكي يقتل المرء نفسه بها. «أنا آسف جداً يا سيدة آبز، لا بد أن ذلك مريع بالنسبة لك. في البدء كانت فاجعة زوجة أخيك، والآن أخوك».

ردت علي بغضب: «لقد قلت لك ذلك في برلين، إنّ ذلك لم يكن فاجعة».

«دافيد أصيب بالصدمة. لقد اضطررنا لأن نحضر له الطبيب. لقد فقد صوابه تماماً».

هدأ صوتها. لكنها كانت تتنفس بصعوبة. «هل حقاً ما تقوله؟ أليس كذلك، أنت تمزح مزحة سيئة؟».

عدلت جلستها في الكنبة، وحدقت النظر بي. من خلف ظهرها بدا وكأن برج أيفل يدغدغني.

«بالطبع، لا. لقد مات. لا أعرف بالضبط، لكني أظن، أنه شنق

نفسه».

إدفيجه عبثت بشعرها، نتفت ملابسها، ورشفت نبيذها ثم أسندت جلستها بانسياب في الكنبة من جديد. لم يدم الارتياح طويلاً، فعندما قلت لها، بأن أخاها قد ترك لي رسالة عند النيابة العامة، فزعت من جديد.

«يجب عليك أن تبلغني بمحتوى الرسالة، فإن هذا الأمر مهم جداً بالنسبة لي، ويجب علي أن أعرف ذلك قبل دافيد. يجب أن أعرف، ما الذي كتبه موريس».

موريس. نطقت اسم أخيها الأصلي. موريس؟ لقد نسيت تماماً، أنها تحدثت عن أخيها موريس، خلال حديثنا في برلين. في ذلك الحين لم أُعِر الموضوع أي اهتمام، وكنت أعرف، بأن والد دافيد قد بدل اسمه، غير أنني لم أكن على علم بعد، بأن جد دافيد كان أوتو آبتس. الاسم الأول لابن أوتو آبتس كان برنهارد وليس موريس. وابنته... صوت إدفيجه كان متوسلاً.

«لقد زرت أخاكِ في السجن بناءً على رغبة دافيد، لقد بدا لي مضطرباً، ولا يمكن أن أتصور، بأن هذه الرسالة تحتوي على شيء يمكن أن يؤخذ على محمل الجد».

وعدتها، بأن أبلغها على الفور، وعندما هممت بوداعها، تركتني إدفيجه وحيداً لوهلة، وعادت وهي تحمل طرداً صغيراً مغلقاً.

«لقد جهزت هذا لك. إنها رسائل بعثها دافيد لي. ربما ستفهمه بعد ذلك بصورة أفضل. أرجو أن تقرأها».

بدت وكأنها تريد أن تطلب مني شيئاً آخر. بدأت الكلام غير أنها لم تكمل الجملة حتى نهايتها.

«من الضروري أن تعاود الاتصال بي، عندما تصل إلى المدينة».

أعطتني بطاقتها وتصافحنا مُوَدعين. ضغطت على يدي لفترة أطول مما هو معتاد. فجأة شعرت بالحاجة الماسة لطرح هذا السؤال.

«آه، أتعلمين أن أناساً مثل دافيد مقتلعين من جذورهم إلى هذا الحد، يميلون إلى ربط أمورهم بالأقدار، التحول إلى التقوقع، ويتخذونها كمرساة، ولكني لا أعتقد أنه في حسه الضيق من الميالين للإيمان بالغيب. لا، إنه لا يسلم قدره لعالم الغيب. لا تأخذي هذا على محمل الجد».

رداً على إجابتي حول اعتقاد دافيد، بأن لقاءنا كان قدراً، تصرفت وكأن ذلك مثير للتسلية. ونحن واقفان أمام الباب المفتوح، قصصت عليها أنني وعندما كنت طفلاً، كنت شاهداً على حادث سير بالقرب من لانجنفيلد، تماماً كالحادث الذي كلف جدّي دافيد حياتهما. نظرت إدفيجه لي باستغراب.

«لم يكن لدي أي علم، بأن والدي ميريام قد لقيا حتفهما بحادث سير».

«لا، ليس والدا زوجة أخيك. بل والداك».

«ما هذا الهراء. من أين لك هذا؟».

بعد منتصف الليل بقليل، وقفت من جديد على منصة تروكاديرو، ناظراً إلى ما وراء سهل المريخ، كنت أحمل طرد الرسائل بيدي. لم نتطرق بأي كلمة لموضوع المجموعة الفنية. تحدثت هي فقط عن دافيد، شعرتُ وكأنها تسعى لتحريضي.

قطعت كل المسافة الفاصلة إلى الفندق مشياً على الأقدام. الأضواء المضطربة لبرج إيفل كانت ترافقني إلى ما تحت الأغصان العارية لأشجار الدلب. مشيت بمحاذاة نهر السين، مروراً بمحطة الجنود والمحاربين

القدامى وبمجلس النواب ووزارة الخارجية. بولفارد سانت جرمان كان خالياً من البشر، بدا وكأنه لا وجود للحياة في هذا المكان الذي تجاوزه الزمن الحديث. السياح يعدون المنطقة ما بين كاتدرائية ذوي العاهات ورصيف أورزاي قليلة الأهمية، لم يكونوا على دراية بالحدائق الساحرة في أفنية البيوت، المخفية خلف تلك الواجهات الحجرية. كان حيّاً جديداً، لأن يكون وحيداً في هذه المدينة الكبيرة. مشيت، لأنه كان يجب عليّ أن أسير، ولأنني لم أفهم رد فعل إدفيجه. لماذا يجب عليَّ أن أفهم كل هذا؟ الآن فقط خطر ببالي، أنني لم أتناول الطعام طوال اليوم. رفضت تناول طعام الغداء في الطائرة، ومنيت نفسي بوجبة طعام في مطعمي المفضل، لكن بعد انتهاء اللقاء مع المحامين، كان الوقت مبكراً لتناول طعام العشاء، وبعد أن غرقت في النوم، ذهبت إلى إدفيجه. معدتي كانت فارغة، جدرانها الداخلية كانت تحترق، كنت جائعاً وبدون شهية في الوقت نفسه. تمنيت لو أن دافيد قريب مني، ومع ذلك خشيت لقاءه من جديد: خشيت ازدراءه ونزواته وتصرفاته وضحكته ولغته الدعائية وظرافته وملابسه المختارة ورقته البراقة. جالت بخاطري الطريقة التي كان ينادي بها اسمي. صوت دافيد كان يطن في أذني، وحين وصلت الفندق، غرقت في نوم مضطرب.

العشرون

عندما دخلت منزل أهل دافيد، شعرت وكأنني جاسوس، ولم يتغير هذا الشعور، على الرغم من المهمة التي أُنيطت بي وهي إدارة تركة الفرد برلنسامت طيلة الفترة وحتى افتتاح الوصية. لقد أُدْخل دافيد إلى المستشفى بسبب ارتفاع شديد في درجة حرارته، أدى إلى خرفه وإصابته بالهوس، حتى أنه دخل ولبعض الوقت في غيبوبة، وقد اعتنت مني به، فمن الواضح أنها كانت مشدودة إليه بفعل ارتباكه، لم يكن لدي أي تفسير آخر لتحمسها. أحسست بأنني وحيد في أداء هذه الرسالة.

كان اسمي مكتوباً على المغلف الذي تسلمته من النيابة العامة. وكتب أسفله عبارة (خاص للغاية). لم يكن بداخله سوى قصاصة صغيرة. والأن أرى أمامي ألسنة اللهب. كان الباب المُطِل على الحديقة مفتوحاً كالعادة، وكانت أزهار الزنبق قد بدأت تتفتح، وروائحها تصل إلى الغرف في الطابق الأرضي. مدام أويجين كانت تكوي الملابس في الطابق الأول، ومن وقت لآخر ترد على المكالمات الهاتفية لكي تتخلص من المتصلين. أعدت قراءة الخط المكتوب باليد، وغير الواضح من جديد: *أنا ألفرد برلنسامت، أطلب أن أدفن بجانب زوجتي الحبيبة ميريام. بدون مجلس عزاء، وبدون مراسم دفن. كل أملاكي تنتقل إلى ابني دافيد برلنسامت كما هو مكتوب في وصية خاصة مُودعة عند كاتب العدل السيد د. هانيج شروتر. في طاولة مكتبي يوجد ملف كُتبت عليه أحرف اسمي الأولى. إني أطلب منك، ياحضرة السيد د. ساوندرز، أن تأخذ الملف وأن تحرقه مع جثماني دون فتحه. ألفرد برلنسامت، سجن برلين موآبيت، التاريخ*.... هذه الملاحظة، لا تبدو وكأنها كتبت من

رجل مُختل عقلياً. لقد احترقت الورقة خلال لحظات. أما الملف فموجود في الطابق العلوي، في الدرج الذي توجد فيه ملابسي الداخلية.

تسلمت الملف دون أي تعليق، إضافة إلى مفتاح المنزل، وبعد العودة إلى المكتب، قالت لي منى، إن صحة دافيد قد بدأت بالتحسن، لكنه سيبقى لبضعة أيام في المستشفى. طلبت منها أن تنقل له تحياتي. شعرت بالارتياح داخلياً. فقد كنت أرغب في مسافة فاصلة بيني وبين دافيد، وأعترف بأنني نفذت وصيّة الميت الرئيسة، لأنني كنت ما أزال آمل في التوصل لإيضاح التناقضات في قصة دافيد.

سلسلة المفاتيح الثقيلة أعطت انطباعاً، وكأن لدى برلنسامت الأب ولع خاص بالأقفال، وليس فقط بقفل الباب الرئيسي الذي كان له ثلاثة مفاتيح. لقد احتجت لكثير من الوقت لتجربة كل المفاتيح إلى أن وجدت المفتاح المناسب. القاعة الكبيرة كان بها رائحة عفنة، ففتحت النوافذ لكي يدخل الهواء البارد. الستائر تحركت مع النسيم، وكأنها ملابس يرتديها الراقصون. رائحة الثلج كانت تنتشر في الخارج.

تفقدت الغرف واحدة تلو أخرى، وعلى الرغم من معرفتي الوثيقة والمؤقتة بدافيد، لم أكن أعرف كل المنزل. وفي الجهة الثانية من القاعة، توجد المكتبة، لقد كانت إذاً بمثابة مكتب ألفرد برلنسامت. كان قد أعيد ترتيب كل شيء، واختفت آثار نومي هناك. وإلى يمين ويسار الكنبة المخملية بلون الزجاج الأخضر حيث نمت، كانت توجد مصابيح صينية عتيقة الطراز، مزينة بمظلات الحرير الوردي، مسند القدمين، حاملة الصحف، سلم صغير يمكن أن يستخدم أيضاً ككرسي، مقاعد مخططة لا يمكن تصنيفها ضمن نمط فني معين. عندما نمت هناك في تلك الليلة لم أُعِر كلَّ هذه الأشياء أي انتباه. كذلك الحال بالنسبة لأبواب

النوافذ المطلة على الفناء والتي كنت معجباً بها جداً. نظرت بتفحص إلى صفوف الكتب، التي كان بعضها في رفوف مفتوحة، بينما كان البعض الآخر خلف أبواب زجاجية، بعضها مفتوح لي، مثل: موسوعة انسكلوبيديا ماير معاجم، مجموعات كاملة بغلاف من الجلد لجوته وشكسبير وبينها مجلد ضخم لمونتين *Montaigne* [1]، روايات مختلفة لبلزاك *Balzac* [2]، وزولا *Zola* [3]، وتوماس مان *Thomas Mann* [4]. لم يكن بينها كتب لأدبيات، أو لأدب حديث. تسلقت على الدرجة الخشبية، أزحت بحذر المجلد الضخم، وكدت أفقد توازني؛ لأنني توقعت أن يكون الكتاب ثقيلاً، وكدت أن أسقط، لأن هذا الوحش كان من ورق كرتوني أجوف، والكتب الأخرى أيضاً، كانت بمثابة تمويه للفيديو. أعدت ترتيب الأشكال المصطنعة كما كانت.

عثرت على الملف الذي خطت عليه الأحرف الأولى أ. بـ في درج طاولة المكتب. كان للدرج مفتاحاً في السلسلة أيضاً، أما المجلد فكان بلا قفل، وكان مقفلاً بآلية سهلة. قرار إحراق هذا المجلد ومحتوياته كان يعود لي. كأن برلنسامت أراد مني أن ألعب دور القدر، وسأفعل ذلك مهما كان القرار الذي سأتخذه. شعرت وكأنني سارعت للمجيء من

---

(1) ميشيل دي مونتين 1533–1529 أحد أكثر الكتاب الفرنسيين تأثيراً في عصر النهضة الفرنسي.

(2) أونوريه دي بليزاك Honoré de Blizac 1799–1850 روائي فرنسي، يعد مع فلوبير، مؤسسي الواقعية في الأدب الأوروبي.

(3) إميل زولا Émile Zola ولد عام 1840م وتوفي عام 1902م كان كاتب روائي فرنسي من القرن التاسع عشر.

(4) بول توماس مان هو أديب ألماني ولد في 6 جوان 1875 وتوفي 1955 في زيورخ. حصل على جائزة نوبل في الأدب لسنة 1929. لمان العديد من الروايات الشهيرة، مثل موت في البندقية، التي قام لوتشانو فيسكونتي عام 1971 بتحويلها لفيلم حمل نفس الاسم.

الولايات المتحدة للحصول على تركة من أب مجهول.

تفقدت الغرف الأخرى ابتداءً من مكتب ربة المنزل، ثم ألقيت أولاً نظرة على غرفة نوم دافيد في آخر الممر، الذي لم أسر فيه من قبل. كانت، كما هو حال المكتبة، مرتبة جداً، وعلى الأقل بدت وكأنها ليست غرفة سكن عادية. لم يكن فيها أغراض شخصية، وكانت النوافذ تطل على شارع فازانن شتراسه. تفقدت الغرف الأخرى، وعثرت مرة أخرى على التماثيل الرخيصة التي خبأها دافيد عقب ملاحظاتي، غير أنني لم أعثر على اللوحات الفنية في هذه الغرف. لم يكن على أي من جدرانها أي ظلال نتيجة الغبار، كما أنه لم يبد وكأن واحدة من هذه الغرف قد دُهِنَت حديثاً. غرفة النوم التي حصلت فيها الجريمة كانت مغطاة بقماش من الحرير الرمادي الباهت اللون. أيضاً هنا لم يكن هناك أثر للوحات كانت معلقة على جدرانها، ولم تكن الخزائن الممتدة على طول الجدران مليئة بأطقم المتوفى ألفرد فحسب، بل بثياب ميريام برلنسامت، من فساتين السهرة إلى معاطف الصباح ومعاطف الفرو. رائحة البنفسج والورد التي تتسرب أحياناً من علب المجوهرات القديمة، كانت تنفث من الملابس.

إذا كان إرث الجدين آبتس على هذه الشاكلة، فإنني أتفهم الآن سر ابتعاد إدفيجه عن العائلة. مزيجٌ عفنٌ من الأشياء التي لا قيمة لها. الوحشة والأبهة كانت تنبعث من تلك الغرف التي كانت تسكنها منذ عقود عائلة برلنسامت، التي يُزْعَمُ أنها عالية الشهرة.

خلف المطبخ والحمام اللذين كانا خلف البناية السكنية باتجاه مدخل الخدم، كانت توجد غرف أخرى في نهاية الممر. في إحداها كانت تجلس المُشَعْوِذَة. الغرفة تبدو الآن وكأنها مستودع للأشياء التي لم

يعد لأحد رغبة بها. ولكن ما إن دخلت الغرفة المقابلة، حتى توقفت أنفاسي.

وقفت في المستودع. لم أكن أعرف ما الذي يُعرض أمامي، فعلى الرغم من اللوحات الكثيرة، لم تبد الغرفة وكأنها مستودع لمتحف. على كل الجدران الأربعة كانت اللوحات معلقة دون فواصل فوق وإلى جانب بعضها البعض. لوحات من الصالة الأمامية تتناوب مع أخرى لم أرها في هذا البيت من قبل، وفي الوسط كانت هناك طاولة، عليها ملف لرسومات تخطيطية. كان الأمر يتعلق بخمس وعشرين إلى ثلاثين لوحة مختلفة الأحجام، وليس من ضمنها الرسوم والمخطوطات الأولية. إلى يمين الباب وعلى حامل رسوم كبير، كانت لوحة البحر لكوربيت. قَلَّصْتُ نفسي لكي أرى اللوحة من الخلف. كان مكتوباً عليها KA 19. اتجهت نحو لوحة ماتيس: الأختين. كل مؤرخ فن من جيلي يعرف هذه اللوحة، لكن لم يرَ أحدٌ ما اللوحة الأصلية، ثم أنزلتها عن الحائط وأدرتها. الذي رأيته كان في الحسبان، أيضاً هذه اللوحة كان عليها إمضاء KA مع رقم. كلا اللوحتين يجب أن تكونا من مجموعة ألفونس كان *Alphonse Kann*. لقد صودرت من قبل النازيين ما بين سنة 1940 و1942، ومنذ عام 1944 كانت في عداد المفقود. لم أعد بحاجة لرؤية لوحات أخرى من الخلف، لذا خرجت من المستودع وأقفلت الباب من ورائي. شعرت بالغثيان، أقفلت النوافذ التي كنت قد فتحتها لتهوية الشقة، والجرائد التي كانت موجودة أمام باب الشقة وضعتها في الصالة مع البريد على الطاولة، ثم أقفلت الباب. الآن حصلت على البرهان، الإمضاء الواضح. ماذا ينبغي عليّ أن أفعل بذلك؟ وماذا عن دافيد؟

الحادي والعشرون

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، عندما عدت إلى المنزل. كنت أريد أن أتناول الطعام وحيداً في أحد المطاعم، لكنني اكتشفت أنني فقدت الشهية، شربت أكثر مما يجب من الأكواب. في صندوق البريد، وجدت ورقة تبليغ من البريد، وفي اليوم التالي كان بانتظاري طرد في البريد. وكان عبارة عن ثريتين رائعتي الجمال بخمسة أذرع من الزجاجي الأصفر، أخذتهما ثم قرأت الرسالة المرفقة. *عزيزي السيد ساوندرز، خلافاً لتوقعاتكم، فهذه إشارة إلى أنني أهتم حقيقة بالأشياء الجميلة. أرجو تَقَبُلْ هذه الثريات كشكر. ومن الضروري الانتباه عند إشعال الشمعة لأن الزجاج مشعور قليلاً، إنه منفوخ بالفم من القرن 19. لديَّ شعور بأن عائلتي قد تسببت لكم بالإزعاج، وحتى لو لم يكن باستطاعتي فعل شيء سوى حبي لدافيد، إلا أنه من الواضح لي، مدى الصعوبات التي يواجهها أحياناً. أرجو أن تكون متساهلاً في التعاطي معه، إنه بحاجة ماسة إلى الناس الذين يتعاطفون معه ويمنحونه الشعور بذلك، الشيء، الذي من المفترض أن يكون واجبي. غير أنني تخلفت عن فعله. المخلصة إدفيجه آبز.*

على الرغم من خلافها مع العائلة، إلا أنها تشعر بالمسؤولية بشكل يستحق التقدير. بدا وكأن وسوستها القسرية، هي التي قادتها إلى التفكير بأن دافيد كان يعاني في ظل والديه. فاتصلت بها وشكرتها. وقلت لها أيضاً إن دافيد في طريقه للتحسن، سألتني:

«هل قمت بزيارته في المستشفى؟».

شرحت لها أنني كنت مشغولاً جداً.

«هل قرأت الرسائل؟».

لا. لكنني لم أقل لها ذلك. أجبتها بسوءال مضاد.

«هل عانيتِ من والدك، أو ربما ما زلت تعانين للآن؟».

«لا ، لماذا علي أن أعاني من والدي؟ إنه ميت».

«هل كان موقفه بالنسبة لك سيّان؟».

«لم يكن يربطني به إلا القليل. غير أنني أظن أنه كان مثل جميع آباء ذلك الجيل. عدا عن ذلك، فقد كانت الحرب مندلعة في ذلك الوقت. لقد كان زمناً مرعباً، وبعد انتهاء الحرب لم يكن بمقدورنا أن نعوِّض ذلك الزمن. لا، أنا لم أعانِ منه. لكنني لم أحصل منه كأب، إلا على القليل».

«وماذا عن تورطه مع النظام...؟».

«لا أعرف ما الذي تريد الوصول إليه، يا دكتور ساوندرز، فهو إلى حد ما، كان نازياً، مثله مثل الكثير من الرجال الألمان في تلك السنوات. لم يكن مع المقاومة، هذا صحيح، حقاً لم يكن شخصاً مرموقاً، ولم يكن ضابطاً في القوات الهجومية الخاصة SS، كما أنه لم يكن واحداً من فئران الحقول البنية. وعدا عن ذلك، فإنه لم يكن سوى نصف ما ورثت. فكما تعلم، فإن أُمَّنا كانت فرنسية. ولننهي الحديث عن العائلة وتاريخها، فالشيء الوحيد الذي يهمني اليوم، هو أن ينظم دافيد حياته، أن يجد شخصاً ما يمنحه الحب، وأن يكون سعيداً. أتمنى أن تكون صديقاً له؟!».

حتى منى دفعتني للعناية بدافيد. رجتني أن أقوم بزيارته في المستشفى. شعرت بضغط يطبق علي من كل الجوانب. في هذه الفترة فكرت جدياً ولأول مرة بالاختفاء عن برلين.

غمر دافيد السرور بوضوح عندما دخلت إلى الغرفة. بالنسبة لي

كان من الصعب تحمل هذا المشهد. رأيت رجلاً هزيلاً، بالكاد كان يضع يديه على غطاء السرير. شعره الأسود يلتصق برأسه. لحيته السوداء أيضاً، بدت وكأن أحداً لم يفكر بأن يحلقها له. عيناه بدتا في هذا الإطار الأسود أكثر اتساعاً وأكثر عمقاً داخل الكهوف. تابع كل حركاتي، كان صامتاً. وسرعان ما تولد لدي الانطباع، أنه كان ينتظر الفرصة المناسبة للإمساك بيدي. غير أنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل. ربما كان ضعيفاً جداً، وربما كان يدرك أيضاً أنني قد ابتعدت عنه. ظاهرياً لم يبق شيء من الرجل الذي كنت معجباً به.

أشار بحركة إلى سريره. أراد أن أجلس بجانبه. أخذت كرسياً ووضعته بجانب السرير.

«والدي قتل والدتي من أجل أن يجنبها المزيد من المعاناة، فيتعين في بعض الأحيان علينا أن نتصور قسوة الرحمة. يجب علينا أن نقدم الضحية لبعضنا».

«دافيد، أنت لا تعرف ماذا تقول».

«بلى، أنا أعرف ما أقول. أنت الذي لا تفهم الوضع».

لقد كنت أود أن أهزه، أن أصفعه وأصرخ فيه، لكي يستيقظ من ذهوله، أعتقد أن دافيد كان يعاني من صدمة. ثم دخلت منى جالبة معها جواً من الفُكاهة، احتضنت دافيد، رتبت له وسادته، وتحدثت عن الطقس الجيد في الخارج. لقد بدت أكبر سناً، والبرص الذي في جسدها بدا أكثر شحوباً عن المعتاد. أدهشني أنها كانت تضع ماكياج وأحمر الشفاه، أيضاً هي بدت لي غريبة، وغريبة جداً.

«اليوم سنعلم، متى سيتم فصلنا من العمل.» قالت ذلك، وكأنها تتحدث من خلال المزمار.

«نحن؟» أجبت بغباء كالصدى. «بالمناسبة، من الموجود في المكتب الآن؟».

«آه، أنا اعتقد أنك ستكون في الحال هناك. سأنتظر هنا إلى ما بعد زيارة الطبيب، لأننا سنعرف بعد ذلك، متى سيعود دافيد إلى منزله. وحينها يجب علينا أن نضع برنامجاً لتنظيم الخطة الأسبوعية لمساعدته».

لم يهتم أحد منهما برسالة النيابة العامة. ألقيت نظرة على الساعة. وأدركت أنه إذا لم أقم على وجه السرعة بالاهتمام بشؤون الشركة، فسنكون قريباً بمواجهة مشكلة أخرى، يجب على الملف بكل محتوياته الانتظار. الآن فقط، ولأنه لا يمكنني على الفور أن أذكر أين وضعته، خطر ببالي، أنني نسيته، في خضم انفعالي بما اكتشفته، في مكتب برلنسامت.

النزاع المفتوح الوحيد مع منى وقع بعد ظهر نفس اليوم، حيث عادت بحدود الساعة الخامسة إلى المكتب، وكنت قد قرأت رسائلها الالكترونية وأجبت قدر المستطاع، عليها، لكن الرسائل البريدية كانت هذا الصباح كما هي، لم يمسها أحد، تماماً كما الملف والاستفسارات حول المنشأ على اختلافاته.

«لقد قمت للتو بإعادة دافيد إلى المنزل. كان في غاية السرور، بعودته. علي أن أذهب للتو لشراء بعض الحاجات، وأن أحضر الطعام له، فهو في هذا المنزل المقفر بحاجة إلى من يُجالسه. إنه ما يزال ضعيفاً جداً. الموافقة على إخراجه من المستشفى، تمت بشرط أن يقوم أحد بالاعتناء به».

«حسناً، من الواضح أنه أنتِ.» بدا لي اهتمام منى بأنه ينطوي على

مبالغة كبيرة. «لماذا لا تلغي العقد حالاً؟».

فجأة خطر ببالي أن يكتشف دافيد الملف على مكتب والده، لذا كان من الضروري أن أعود إلى هناك.

«يلاحظ المرء أنك وحيد دون عائلة، ولو كان الأمر على خلاف ذلك، فإنك ستتفهم معنى مساعدة الآخرين عند الحاجة. أنت تفتقد للشعور، بأن شخصاً ما بحاجة لك».

ثم قامت بحركات تنم عن أنها تريد الذهاب في الحال. لكنني منعتها هذه المرة.

«لا توجد مشكلة، تبقين هنا وتحملين عبء الجبال المتراكمة على مكتبك، في مواجهة فصلك من العمل. سأعتني من باب التغيير، بضحية العلاقات المأساوية. وعلى أية حال، لقد نسيت سترتي في المنزل.

«لو أنك تستطيع رؤية نفسك. أنت تعني، أنك تفهم كل شيء. أليس كذلك؟ أنت لا تترك للعواطف أي مجال لكي تؤثر فيك، فالعواطف للنساء، للوطيين وللحمقى الفوضويين. وأنت ترى نفسك بعيداً عن مثل هذه الأحاسيس الدنيئة، ولا يمكن لشيءٍ أن يقودك للارتباك. مارتن ساوندرز ينظم الظروف حسب نظامه الخاص، بدون أخطاء، بوعي وأدب، بثلاث لغات، ودائماً في أناقة تامة. أنت لا تهتز، حتى لو مات أحد أمام ناظريك، وربما ستفكر حينها أيضاً بإكليل الزهور المناسب، وبتنسيق الجوقة الموسيقية. أنت مغتر بنفسك، مستقل، إلى درجة أشعر معها بالاختناق».

«وأعتقد أنك كنت تحسبينني لوطيا، هل ألغت قسوة قلبي الحكم القاتل الذي أعلنته ضدي؟».

«أنت مريض، أنت لا تعرف قطعاً ماذا تقول».

قبل أن أتمكن من الرد على ما قالته، كانت قد خرجت. وقفت هناك، لا حيلة لي، يتملكني الغضب، ورأيت الملف على طاولة المكتب في شارع فازانن شتراسه. إلى متى؟ لم يكن هناك فائدة من أي شيء. اضطررت للبقاء في المكتب، والمرابطة في الموقع.

لم يكن من السهل بالنسبة لي التركيز على عملي. كان علي الذهاب، الابتعاد عن دافيد، التخلص من تعليقات منى. كان لا بد لي أن أكون وحدي، لكي يصفو ذهني. لم تخطر ببالي فكرة أن أتحدث مع روزي بشأن هذه القضايا. أتتني الفكرة في هذا اليوم، الآن. ربما كانت روزي هي الشخص المناسب، ولكني لم أصل بتفكيري إلى ذلك الحد، فقد أردت الهرب من كل هذا. ولكن قبل أن أتمكن من الهرب، كان علي أن أعرج على شارع فازانن شتراسه، وبأسرع وقت.

الثاني والعشرون

وُوُرِيَ ألفرد برلنسامت الثرى بعد حرقه، بغياب ابنه، وبعد انتهاء مراسم الدفن التي شارك فيها وفد من شركة برلنسامت، ومنى، والخادمة السيدة آرنو وعدد قليل من الصحفيين، ذهب كلٌ في طريقه. أما إدفيجه لم تأتِ للمشاركة.

قطعت الطريق من المقبرة إلى المكتب وحيداً. أما منى فقد أرادت الذهاب إلى دافيد. كانت نفس الأسئلة ما تزال تجول في بالي، ولن أتخلص منها، طالما بقيت في هذه المدينة. متى تم تهريب اللوحات إلى ألمانيا؟ هل ساعد السويسريون بحياد في عملية النقل؟ هل كان هناك دعوة جانبية من صديق دبلوماسي من سويسرا؟ إن مثل هذه الأمور حصلت بالفعل. لكن لماذا كنت مهتماً بمعرفة الحقيقة؟ هل كانت منى على صواب في اعتقادها، بأن تحرياتي في المستنقعات الألمانية تتعلق بي شخصياً، وأكثر مما أردت معرفته؟

كنت قد مررت على دافيد في ذلك المساء الذي اختلفت فيه مع منى. شعرت بالغثيان بفعل القلق، وعندما وقفت أمام البوابة الحديدية، نظرت من الأسفل إلى واجهة المبنى وتعرفت على نافذة غرفة نوم دافيد. ثم قرعت الجرس، طبعاً، قرعت الجرس. ستكون وقاحة لو استخدمت المفتاح. هل كان دافيد يعلم أصلاً، بأنني أملك واحداً؟ نزلت منى وفتحت لي الباب. لم تنبس بكلمة واحدة عن المفتاح، فقد كانت ما تزال غاضبة، لكنها حاولت السيطرة على نفسها.

«إنه بانتظارك، وهو سعيد لرؤيتك. ينبغي عليك ألا تطيل الزيارة».

لم أعلق على كلامها.

«دافيد في الأمام، إنه في غرفته، سأسير أمامك».

«لقد عُدت فقط لأخذ ما نسيت.» بدا دافيد وكأنه ما يزال يعاني من الضعف. عيناه أشرقتا، وكأنه قد أخذ دواء بيلادونا[1] *Belladonna*. ابتسم لي. السحب المتراكمة، والمياه الرمادية المائلة إلى الزرقة مع الأمواج التي تتكسر، تلامس الأرض برقة لكي تسحب أقدامها الظاهرية. ارتفاع المد. كوربيت كان يرسم في التو السماء، الآن، حبس أنفاسه فاتحاً عينيه. في أقصر وقت ممكن ستتضخم الموجة، حتى تصبح أمامه بحجم حصان من الزبد سينمحي في هذه اللحظة، ثم رأيت الموجة وهي تنمو، صعدت وصعدت، ثم انفجر الزبَد الأبيض، إن لوحة البحر كانت بداية المجموعة الفنية. هذا هو رأي دافيد. إنها اللوحة الأولى، التي كان جده قد حصل عليها بصورة غير مشروعة، وكان دافيد يعرف أكثر بكثير، مما كان مستعداً لأن يصرح به. كان وما يزال يعدني مجنوناً.

«جميل منك، أنك حضرت».

شعرت وكأن كرة علقت في حلقي.

«هل يمكنك أن تبقى قليلاً؟».

«قالت منى بأن ذلك سيتعبك أكثر من اللازم».

«ماذا فعلت لك يا مارتن؟».

تصرف كما لو أنه قد نسي ذلك المساء في ألبيك. من السخافة، أن يكون دافيد معجباً برعاية منى به. أو هل كان يلعب معها أيضاً؟ كان هناك ملاحظة لاذعة على لساني، لكنني لم أرد أن أخون نفسي، أريد أن أختفي من المدينة، وأنسى كل شيء.

«لا شيء، بالطبع لا شيء، قل لي، إذا كنتَ بحاجة إلى شيءٍ ما».

---

(1) دواء تستخدمه النساء بغية الجمال.

عند الوداع، ذكرت أنني نسيت سترتي في المرة الماضية في المكتبة. لا منى ولا حتى دافيد استمعوا لي، فمنى كانت منشغلة في ترتيب المخدات، والتحدث معه في الوقت نفسه. لذا ذهبت وحيداً عبر الصالة. لوهلة حاولت أن أمشي مرة أخرى في الممر الخلفي، لإلقاء نظرة على المستودع. ستكون فرصة، لكي أريه لمنى، غير أن منى بدت في انسجام تام مع دافيد. لم تعد محايدة. كان من الأفضل، أن احتفظ بذلك لنفسي. كنت مضطرباً، عندما فتحت باب المكتبة، على أمل أن يكون الملف ما يزال في مكانه. لقد كان هناك، في منتصف الطاولة، لم يمسسه أحد، أردت أن آخذه، وعندما سمعت خطوات في الممر، حولت إخفاءه عندما وقفت منى في الباب، تصرفت وكأنني ما زلت هائماً في المشي.

«هل وجدت سترتك؟».

لعبت قليلاً دور صاحبة المنزل.

«منذ متى تحمل معك ملفاً أينما ذهبت؟ لم يكن لديك ملف حتى الآن».

حاولت أن أتظاهر بالابتسام. « اعتقدت، أنني تركته مع السترة هنا. لقد أخطأت، يجب أن تكون السترة في مكان آخر».

«أنت مرتبك إلى حد ما. حسناً، هذا ليس مفاجئاً لأحد، فنحن جميعاً نبذل جهداً هنا. هل لديك مفتاح المنزل، والأشياء الأخرى، التي سلموك إياها من والد دافيد؟».

«سأحضرها معي في المرة القادمة».

«يمكنك أن تحضرها معك إلى المكتب، وسأعطيها بدوري لدافيد. يبدو لي أنك، لا تحب المجيء إلى هنا».

«هل بإمكانك ولو لمرة واحدة، وقف التدخل؟ ما الذي يعنيك في أمر رغبتي في المكان الذي أذهب إليه أو آتي منه؟».

كانت الرسائل وملفات الوثائق ملقاة على سريري، كالعادة وعندما أكون خائفاً من فقدان الصلة بالحاضر، كنت أترك التلفاز في غرفة العمل شاغلاً. فتحت عشوائياً بعض القنوات، دون أن أعطي أهمية للبرنامج. كانت إدفيجه قد رتبت الرسائل حسب التاريخ. وفوق كومة الرسائل كان هناك ظرف مع ختم البريد بشهر ديسمبر 1965. وخط طفولي يعبر عن الشكر للعمة على لعبة دب هي هدية لعيد الميلاد، تلا ذلك بطاقة بريدية من سيلت *Sylt* [1] حيث قضى دافيد عطلته المدرسية مع والدته، وقد أنهتها في النهاية فقط بالتوقيع باسمها وبدون تحية في الختام، ومن ضمنها كان هناك بطاقة من زيرمات *Zermatt* [2]. وبطبيعة الحال كان المرء يرى جبل ماترهورن[3] بألوان باهتة.. وحسب البطاقة من الخلف كان دافيد يقضي عطلته المدرسية في التزلج على الثلوج مع فصله المدرسي في سويسرا. لقد كانت ممتعة له. لذا أهدته إدفيجة حذاء تزلج مع كتاب لدافيد كوبر فيلد هدية بمناسبة أعياد الميلاد، وقد شكرها رسمياً على ذلك.

الآن، وأنا انتزع الرسائل من الطرد، لم تعد الرسائل مرتبة كما كانت. رسائل الأطفال المكتوبة بخط الأطفال اليدوي غير المرتب، التحيات من رحلات الصيف والرياضة الشتوية، فقدت اهتمامي بها بسرعة، ووضعت الرسائل التي بدت لي في غاية الأهمية فوق الكومة. لفتت انتباهي جملة في آخر تلك الرسائل أكثر من غيرها. ربما لم أكن لأتعرف

(1) أكبر جزر ألمانيا في بحر الشمال.

(2) منطقة سياحية في سويسرا.

(3) ماترهورن: أحد أعلى جبال الألب يقع في سويسرا ويبلغ ارتفاعه 4478 متراً.

عليها، لولا وفاة والدي دافيد.. *إنهم لا يريدون أن يفهموا، أنها مذنبة. يعتقدون، أنني مجنون.* الرسالة كانت مؤرخة في أواخر الثمانينات. كان دافيد في الثلاثين من عمره تقريباً. وكانت هناك شكوى أكثر حدة، وجدتها في رسالته الأخيرة. *لقد تحدثت مرة أخرى مع أبي، وقد ادعى بعناد، بأن السبب في تغيير الاسم، كان فقط ليصبح مطابقاً لاسم الشركة، أي لأسباب عملية بحتة. إنه لا يريد أن يقتنع، بأنه اتخذ لنفسه من خلال هذا الاسم هالة لا يستحقها. برلنسامت تُسمع وكأنها اسم يهودي. هذا هو الشيء الإيجابي، الذي حققه من خلال ذلك. لذلك قام بتغير الاسم. وبهذا أصبح اسم آبتس في طي النسيان.* عندما أعدت قراءة الرسائل، تخيلت أمامي المشهد المسرحي في الحمّام مرةً أخرى. جنون دافيد من تاريخ العائلة تلك به شيء مُوحش، وعلى الرغم من ذلك أسفت للحادث الذي وقع في آلبك، وأشعر بالخجل من سلوك عائلتنا، فإذا كان الأب لا يتصرف بصدق، فلا بد لي من القيام بذلك. والذي ينكر ذنب أسلافه، يصبح هو نفسه مذنباً.

وضعت الكومة مع الرسائل جانباً، وذهبت إلى الحديقة. كان العشب مغطى بالندى، وكان الشعور بالعشب الرطب تحت النعال مؤنساً. الوضوح، الواقع، والمعاصرة. الأسابيع والأشهر الماضية، خرجت من رأسي بسرعة فائقة، كتدفق المياه من المصرف. بالكاد يستوقفني حدث أو ذكرى. لقد مرت سنون أو عقود، عندما طرحت على نفسي ذلك السؤال: بماذا تمسكت أمي، عندما ذهبت إلى الولايات المتحدة، وحيدة مع طفل لم يولد بعد، على أمل أن تعثر على أبي. بالنسبة لروزي، حسب اعتقادي، كان المهم هو المستقبل فقط.

عندما بدأت أعي حياتي معها، كانت كما هي اليوم: نحيلة، ترتدي

ملابس أنيقة، نظامية، وكانت تبدو وكأنها تتصنع. ربما أنها لم تكن كذلك دائماً، فالوقت القذر لم يسمح لها بذلك. كان من المفترض أن تكون مثل أي فتاة من فتيات عمرها، نشأت في محيطها، شبيهة بوالديها. ربما كانت مائلة إلى السمنة، مكتنزة الوجه، وردية الخدود. ربما كانت تتمتع بشيء من ذلك السحر المليء بالحياة والحيوية، الذي ينبعث من مني. لا أستطع تذكر تلك الليلة في ألمانيا، إلا كطيف. أعني، أن صوتها كان ناعماً كفتاة يافعة، لكنها لم ترضخ لإرادة غريبة، لم تفعل أبداً، ما يطلبه الآخرون منها. ترى هل ترددت قبل أن تغادر بيت أهلها؟ هل فكرت في لحظة ما أن تجهض جنينها؟ في أحاديثها، وعلى أية حال، لم يكن هناك أي تناقضات، وكان يفهم من كلامها على الدوام، مدى سخافة مطالب والديها. لم تقل إنها لا أخلاقية أو بدون عواطف. فقط سخيفة.

غرد طائر، إنه الأول في ذلك الصباح، في وسط بروكسل. لقد تمكنت من الفرار من هذه المستنقعات. ما الذي تفعله إذاً تلك الأفكار المتضاربة في رأسي؟ روزي كانت تعرف دائماً، ماذا تفعل. كانت تعتني بي. ولم تتخلَ عني أبداً، وبعد زيارة ألمانيا كانت أكثر التزاماً بالنظام من أي وقت مضى، وكأنه كان عليها أن تصلح ضعفاً ما. لم أشاهدها أبداً وهي تشرب الكحول، ولم أشاهدها تأكل بشهية، ناهيك عن أن تأكل أكثر مما يجب. لم أشاهدها أبدا حزينة، وكانت مُمْتَنة للبلد الذي كنا نعيش فيه. لقد أَصْبَحَت إنسانا آخر، رسَّخَتْ جذورها في العالم الأمريكي، طهرت ماضيها، ومن ثم مسحته من الذاكرة، في الشارع الخامس بمانهاتن اكتشفت عالم العطور والصابون، إضافة إلى اكتشاف موهبة تكريس الشغف بالحياة. كصبي صغير كنت أهبط الدرج متسللاً في

الليل، لكي أذهب إلى البَرَّاد. كان كل شيء مغطى بسجاد صوفي أبيض كثيف، وليس بسجاد شرقي، كالذي رأيته في وقت لاحق في المنازل الفسيحة لأسر زملائي من الطلبة، وإنما من الموكيت في كل الغرف والممرات. فقط في الطابق الأرضي عند المدخل، كانت الأرضية من حجر الإردواز الأسود. الضوضاء في شارع هومبولت لم تكن ناتجة عن صخب الناس، وإنما من الآلات فقط. هكذا بدأ حلم روزي الأميركي. كم من الوقت مر عليَّ، دون أن أرى ذلك أمام ناظري!

في تلك الليلة في لانجنفيلد، وعندما أيقظتني، خافت من نفسها للمرة الأخيرة. لأننا كنا في ألمانيا. لقد شعرت بذلك، دون أن أكون قادراً على أن أجد تفسيراً له. أدركت ذلك بالحس الطفولي الفريد. كنت المنقذ لـ روزي في تلك الليلة. كانت قد قرأت لي رواية أسطورية ألمانية باللغة الإنكليزية. كانت تقرأها بسرعة، لدرجة أنني لم أتمكن من فهمها إلا بصعوبة. ولكن الحادث في اليوم التالي، وما عايشته وفَّرا الذريعة لمغادرة البلاد على الفور. ولم أر جدّيَّ بعد ذلك أبداً.

الثالث والعشرون

بينما كان الرصاص يئز فوق رؤوسهم، كان صيادو الأسماك يجلسون على سفح الضفة دون أن تتحرك سماهم. وهم يجلسون اليوم في أوقات السلم بانتظار أن تعض إحدى السمكات السنارة تماماً كما كان عليه الحال في أيام الاحتلال... وكذلك في الأحياء التي بدا فيها إطلاق الرصاص يُنذر بخطرٍ حقيقي، كان الجزء الأكبر من السكان يزاول أعماله بهدوء، والفتيات الصغيرات يقدن الدراجات الهوائية في الشوارع، وكانت تنانيرهن تُرفرف في الهواء فوق الثياب الخفيفة الطائشة دونما اكتراث. على ضفة نهر السين شديدة الانحدار. العالم ما بين جسر ميرابو وبوابة بارسي. فتيات صغيرات يركبن دراجاتهن الهوائية، أسماك تفر من سنانير الصيادين. يوم 19 آب/أغسطس 1944، كما تم تخليده في مذكرات أوتو آبتس، بدا وكأنه حدث في باريس أخرى، غير تلك الوحشية التي وصفها جورج دوراس، ما استخلصته من الملف هو أن الحي لعب، وحتى بعد ستة عشر عاماً، دوراً في حياة أسرة آبتس/برلنسامت. هناك شخص يدعى باتريك ميلتشر يشهد فيها، بأنه تسلم من برلنسامت الأب في آب/أغسطس 1960، مبلغ عشرين ألف مارك. وهو يقول، بأنه كان يسكن بالقرب من بور دي بيرسي، التي لم تكن منطقة جميلة أيام الحرب، ولم يتحسن وضعها أيضاً في الخمسينات، وحتى اليوم لا تستحق الزيارة. على كلا ضفتي نهر السين، خلف محطات القطار من المحطات الواقعة خلف أوسترليتس وليون، يقع هذا الحي من المدينة الممتلئ بالمحلات والمخازن والمستودعات. في هذه المنطقة ما تزال الأشياء غير حقيقية وتُصر على السير حسب نظامها

الخاص. عصابة بوني ولافونت عرفت ذلك تمام المعرفة.

لم يكن مدوناً في الورقة، لماذا أعطي هذا المبلغ المالي لهذا الرجل الذي يسكن في هذه المنطقة. كل ما جاء فيها كان، أن الأمر يتعلق بتعويض فقط. باتريك ميلتشر فقد كل حقوقه لإدفيجه آبز. باتريك ميلتشر:—ب.م. على الفور فكرت بذلك الرجل، الذي كان مع دوراس في المدرسة. ب.م، ابن العميل اليهودي. ولكن كم كان هناك رجال في فرنسا تختصر أسمائهم بـ «ب.م.»؟

ألفرد برلنسامت دفع لشقيقته، عام 1960، أي بعد خمسة عشر عاماً من الحرب العالمية الثانية، وسوَّى كافة الحقوق لأحد الفرنسيين. ولكن لماذا تسوية الحقوق هذه؟ إذاً فقد كانت إدفيجه ضالعة على أية حال في لعبة الأسرة. وبعد بضع سنوات، وفي رسالة مُرَوَّسَة بالآلة الكاتبة من شارع ايشكوير، منطقة مختلفة تماماً، وليست بأفضل من سابقتها، إلى الشمال من وسط باريس، أعلن مُستلم التعويض عن وجوده مرة أخرى. الرسالة كانت تعبيراً عن الحاجة إلى درجة التوسل، وفي نفس الوقت كانت تنم عن ابتزاز. لقد هدَّد باتريك ميلتشر بفضح كل شيء، وطالب بنفس المبلغ مرة أخرى، ولم يترك أي أثر آخر، باستثناء الرسالة الثانية. كنت أفتش في تلك الفوضى من الملاحظات الموجودة في الملف، وفي الأوراق المفردة، في الرسائل والصكوك التي كانت أمامي على السرير، عندما شدّ انتباهي برنامج التلفزيون، الذي كان حتى الآن ليس أكثر من خشخشة في الفضاء، بكلمة سحرية، من باريس إلى برلين.

«سرقة الفنون، سيداتي وسادتي، هو في المقام الأول الشيء الذي يشغل اليوم مؤرخي الفن، غالبيتنا لا تعرف بالضبط، ما الذي يعنيه ذلك. هل فكرتم مرة واحدة، بالمالك الفعلي للوحة الفنية، التي تُمْعِنون النظر

بها في المتحف؟ من المؤكد أنكم تعتقدون مثلي، بأنه من المفترض أنها ملك للمتحف، غير أن الأمر ليس دائماً كذلك. آلاف من اللوحات، ومنذ حقبة النازيين، وجدت لها محطات مؤقتة في المتاحف الأوروبية. وهي تنتظر، أن يقوم مالكوها السابقون، وهم في الغالب من اليهود أو أحفادهم، أن يطالبوا باستردادها، لكن هناك أيضاً وجه آخر للوضع. فهناك مجموعة فنية خاصة لا أحد يعرفها ومجهولة المصدر، ستشاهدون الآن تقريراً حول بعض اللوحات، التي كانت تعد حتى وقت قريب في عداد المفقودات..».

أول اللوحات التي عُرضت، كانت الموجة *La Vague*. تلتها لوحة الجارية *L'Odalisque* لماتيس *Matisse* ولوحة لديغاس *Degas*، كانت تحتل مركزاً مميزاً في جدارية بطرسبرغ عند برلنسامت. لم يأت التقرير على ذكر أسماء. كما لم يُشِر لأي شبهات. أشار فقط إلى أن اللوحات في الوقت الحالي ملكية ألمانية، وأن المالك الحالي يبحث عن ملاكها الأصليين. واصلت التحديق في الشاشة رغم أن بث التقرير قد انتهى منذ فترة طويلة. دافيد الذي لم يتعافَ بعد إلا قليلاً، أدخل بعض الحراك في الموضوع.

لا شيْ في الملف والأوراق يوثق لهذه المجموعة الفنية. لا شهادة ولا أية ورقة عن أي لوحة، ولا دليل يشير إلى منشئِها. تناولت مرة أخرى ملاحظة إدفيجه. أنت تقرأ، *يا عزيزي السيد ساوندرز، بأن مشاعر دافيد في كل تلك السنوات كانت متأرجحة، حاول جاهداً، أن يُحب والديه، وخصوصاً في سنوات عمره الأولى... ويتضح أنه لا يستطيع أن يفهم، لماذا يسعيان إلى إبعاده عنهما. حاولتُ أن أشرح له، أن علاقة أمه به كانت متوترة، وذلك نتيجة للولادة الصعبة وانفعالاتها العصبية*

اللاحقة. لا أعرف، ما الذي أرادت ميريام أن تصوره له. لكنها، وحتى لو كانت نيتها طيبة، إلا أنها كانت شخصية باردة وأنانية. كانت رسائل دافيد لي عندما كان في سن البلوغ، تعبر عن يأسه، وفي مرحلة ما بدأت تترسخ عنده القناعة، بأن والديه مذنبان. دافيد يميل للمبالغة وإلى محاولة أن يفرض نفسه. كان دائما وحيداً إلى حد كبير. ظننت أنك وكصديق له، يمكنك أن تمنع حدوث الأسوأ. لم تكتب، ما الذي كانت تعنيه من ذلك. يجب علي أن أعيد لها رسائلها، الآن بعد أن انتهت علاقتي بدافيد، ولم أعد قادراً على مساعدته.

في اللحظة التي كنت فيها غارقاً في أفكاري، قالت المدام، إنه ينبغي علي أن أرد على مكالمة هاتفية. لسيدةٍ لم أستطيع التخلص منها. أخيراً وبعد أن عدت من ذهولي وأخذت سماعة الهاتف، عرفت أنها منى.

«لا بد لي من التحدث معك، مارتيني. أخشى أن القصة ما تزال تتواصل من خلال الصحف، وهذا الشخص يريد الذهاب بها إلى برامج الحوار في التلفاز».

«عمن تتحدثين؟»

«عن برلنسامت، وهل هناك أحدٌ غيره؟».

«منذ متى عدت إلى تسميته بهذا الشخص؟»

«آه، أنت لا تفهم شيئاً. لقد ارتكبت خطأ، وأود أن أوضح ذلك لك. ولكن ليس على الهاتف. أود أن آتي إليك. أرجوك يا مارتن، تحدث معي».

«مرة واحدة؟ لماذا الآن؟ لماذا ليس قبل ذلك؟»

«لأني كنت غاضبة منك. لقد أغلقت نفسك، وأصبحت متعجرفاً».

«هل ستبدئين من جديد؟»

«لا، مارتيني، أنا لا أفعل ذلك. أود أن أوضح لك شيئاً».

إنها تتوسل، وتناشد، أنا لا أعرفها بهذه الصورة، في السابق كانت مختلفة، كانت تبدو وكأن العوامل الخارجية لا تؤثر سلبياً عليها، إلى أن جاء دافيد.

«مارتيني، قل شيئاً».

لم أقل شيئاً. أقفلت الخط.

في المجلد، وجدت شهادة الميلاد التي تبرز شخصية ألفرد برلنسامت على أنه موريس آبتس. موريس، وليس برنارد! وفي أسفل الوثيقة التصديق الرسمي، بأن موريس غيَّر اسمه، عندما اشترى شركة برلنسامت، وكان ذلك بعد فترة وجيزة من الازدهار الذي حققه نتيجة اختراعه الموثق. وبعد نصف عام، في ربيع عام 1958، تزوج من ميريام هالينغ. وهي أيضاً اتخذت اسم برلنسامت، وصار الاسم منذ تلك اللحظة بمثابة علامة مسجلة. كانا قد تزوجا تحت اسم العائلة القديم آبتس، وفي دفتر العائلة أشير فقط إلى أن ميريام قد وُلِدَت في مقاطعة الراين كابنة للزوج كيت وريتشارد هالينغ. كانت المعلومات حول أوتوآبتس في هذه الوثائق، قليلة، أو بالأحرى تكاد تكون مصدومة. موريس لم يكن ابن سفير هتلر في باريس، بل كان ابن شخص يدعى بول آبتس من فوبرتال[1] وزوجته ليوني، ولقبها قبل الزواج كان جزبارد، وأصلها من أحد ضواحي باريس. الصفحات التالية من دفتر العائلة المخصصة لتدوين أسماء الأطفال، كانت فارغة. واصلت تصفح أوراق الشركة، عقد شراء مبنى للإنتاج، عدة كمبيالات كان قد جرى تسديدها

(1) مدينة في غرب ألمانيا.

منذ أجل بعيد وعقود. وأظهرت الوثائق أن هناك فصل للملكية بين آبتس/ برلنسامت وزوجته، فالأملاك الخاصة كانت مسجلة باسمها، وهذا أمر عادي عند أصحاب المشاريع. الأملاك التي قام برلنسامت بنقل ملكيتها لزوجته كانت بعض العقارات في غرب ألمانيا، والتي من المفترض أن يكون دافيد قد ورثها الآن بوصفه الوريث الوحيد للعائلة، إضافة إلى أثاث المنزل، والأشياء المزيفة والسجاد الشرقي. أما المجموعة الفنية، سواء كمجموعة متكاملة أو كلوحات منفردة، فلم يتم التطرق لها ولو بكلمة واحدة. الورقة الأخيرة في الإضبارة كانت شهادة ميلاد دافيد، وفيها وجدت تفسير سبب عدم تسجيل دافيد في شجرة عائلة برلنسامت. كان دافيد بول فيكتور آبتس قد ولد في 7 شباط / فبراير 1961، ولكن لم تكن ميريام مدونة كأم، بل إدفيجه. الزوجان برلنسامت بقيا دون أطفال. لماذا تخلت إدفيجه عن ابنها لشقيقها غير المحبوب؟ لم يكن ذلك مذكوراً في أيٍّ من تلك الأوراق، لذلك كان بإمكانها أن تكتب الكثير من التفاصيل عن ولادة دافيد، وهذا هو السبب لمعاناتها.

الرابع والعشرون

أنا بحاجة للحركة، لهذا سأنزل راجلاً إلى المدينة. لم أغادر المنزل والحديقة، منذ وصولي إلى بروكسل. كان وجودي هنا وإلى حد بعيد، يكاد يكون خالياً من العلاقات البشرية، وكأنني انتزعت من كل العلاقات. لم أتصل بروزي منذ عدة أسابيع، ولا أعرف، إذا ما كانت تفتقدني. وعلى أي حال، فأنا لا أعرف إلا القليل عن روزي، فقد شَطَبَتْ ماضيها. لقد قامت بعدة محاولات، لزيارة والديها في لانجنفيلد. غير أن هذه المخلوقة النحيلة الصلبة كانت تُصاب في كل مرة بالمرض، فقد كانت تتأثر بالحساسية الناجمة عن غبار أشجار البتولا والسمك المفلطح بالإنجليزية ***halibut*** المطبوخ، وأثناء شربها للحليب الساخن، نجت بصعوبة من الاختناق. لم يكن بمستطاعها ارتداء قمصان بيضاء، وكانت تبدأ فجأة بالسعال، عندما كان القط الفارسي «بيضاء الثلج»، ذو الثلاثة عشر عاماً، يدخل قادماً من الحديقة، الأمر الذي كان يفعله يومياً ومنذ ثلاثة عشر عاماً. عندما تساقطت الثلوج لأول مرة، قبل فترة قصيرة من أعياد الميلاد، أصيبت بنوبة ربو.

تحدثت إليها الطبيبة بلهجة حادة، وسحبت منها الأدوية، ومنعتها من السفر في الأشهر الستة المقبلة إلى ما يتجاوز وسط مانهاتن. الكفاح العنيد من أجل البقاء على قيد الحياة وصل إلى نهايته. لم يكن والدي في ذلك الوقت موضوعاً للحديث.

كنا نسكن في ذلك الوقت في حديقة سلوبي. غير أن روزي كانت تحلم دوماً بمرتفعات بروكلين. كان يبدو أحياناً، وكأن بوب يحقق نجاحاً في حياته العملية، لكن الأمر لم يكن كذلك، فروزي هي التي

حققت نجاحاً كبيراً، ولم يعرف أحد، كيف حققت ذلك. كنا قد انتقلنا من شارع هومبولت الفقير في وليامزبورج إلى حديقة سلوبي، وذلك قبل أن تصبح المنطقة موضعاً للاهتمام بسبب الكاتب الشهير بول أوستر *Paul Auster* (1) بفترة طويلة. في نهاية الستينات لم يكن الحي محط اهتمام، غير أنه كان أفضل من شارع هومبولت، وكان أول بيت لروزي. وتبعاً للطبع الأمريكي المسكون بهاجس التنقل المستمر، كان هذا البيت أول عنوان في قائمة طويلة من المنازل، كانت تنمو باطراد في المناطق الأفضل تطوراً. أنا لست متأكداً، فيما إذا كان شارع الكورنيش سيكون عنوان روزي الأخير. وأنا أتساءل بانفعال، إذا ما كانت أمي ما زالت تمني نفسها بالانتصار في أن تتمكن من الوصول إلى مانهاتن، وربما إلى بيت مدني في الحي الشمالي، الشرقي من مانهاتن. لا أعرف على وجه الدقة، متى بدأت بمزاولة هذا «العمل»، الذي جعل من عمليات التنقل تلك أمراً ممكناً. على العموم، فقد توصلت عن طريق الصدفة، إلى ما كانت تفعله روزي.

لا يوجد هناك الكثير من النساء من جيل المهاجرين الأوائل اللواتي تمكنَّ من تحقيق نجاحات واسعة، بل كان هناك الكثير من اللواتي أشقين أنفسهن وحتى نهاية حياتهن بممارسة أكثر من عمل في آن واحد، ولم يكن العمل في غالب الأحيان حرفة، وعدد غير قليل منهن عُدْنَ إلى بلدانهن الأصلية، مكللات بالخجل بسبب الفشل. وعلى كل حال فالبعض تمكَّن من النجاح، وتمكَّن من شراء بيت خاص في أحد أحياء الضواحي في مدينة ما. روزي كانت مختلفة، وربما كانت والدتي تنتظر فقط الفرصة المناسبة للقفز، والحمل وفر لها الذريعة لذلك.

(1) كاتب أمريكي ولد عام 1947 في نوارك بولاية جرسي.

في ذلك الوقت الذي تمكنت فيه من معرفة سرها، كنت التقي بين الحين والآخر مع زميل لي في نفس السنة الدراسية، حاصل على منحة مثلي، كما أنه كان أيضاً من أصول اجتماعية متواضعة في نيويورك. في مساء يوم سبت كنا قد اتفقنا على اللقاء في أحد الملاهي في حي سوهو *SoHo*. ففي أواخر السبعينات كانت عادة دارجة أن يلتقي الناس بعضهم في مثل تلك البارات، وهذا ما كان عليه الحال حتى قبل أن يتم غزو بيوت المستودعات في المنطقة من قبل الفنانين والمعارض الفنية. كُنتُ قد أتيت مبكراً إلى الموعد، لذلك شرعت بالمشي ما بين شارع الأمير وشارع القناة. هنا رأيت سيدة تمر عند زاوية أحد الشوارع، سارت على شارع ووستر. بسبب هذا الموقف، وأسلوبها في المشي، شعرت وكأنني أتذكر شخصاً ما. تَبِعْتُ المرأة الغريبة ذات الشعر الأشقر المموج التي تضع نظارة شمسية من جاكي كندي، تَوَقَفَتْ أمام المنزل رقم 67، وتحدثت هناك إلى شحاذة كانت تجلس في المدخل.

«كيف حالك يا استل؟».

كان هذا صوت روزي، ولكن وبسبب باروكة الشعر الأشقر لم أتمكن من معرفتها، حتى من الطرف.

«شكراً، شكراً، سيدة برايد، الطقس جاف هذا اليوم، لا يمكنني أن أشكو من شيء، هل لديكِ الكثير من المواعيد؟».

«على ما يبدو، المساء بكامله».

«سوف أراقب الناس بدقة، كوني على ثقة من ذلك».

فتحت روزي الباب واختفت في المصعد في أحد الطوابق، وفي الجهة الداخلية من المدخل عُلِّقَت لافتات الشركات، ومن ضمنها *اديلايد برايد، كرمة، للأبراج. أوقات الدوام حسب الاتفاق المسبق*

فقط. لم أنبس بكلمة عن هذه القصة. بعد عامين تقريباً، وقبل وقت قصير من الامتحان، كان روزي وبوب ما يزالان يعيشان في حي حديقة سلوبي، ولكن في منزل آخر، كنت أجلس مع زميل دراسة في النادي الجامعي في شارع فيفث أفنيو. جون- جون حدثني عن عمته روث الأوروبية المجنونة، التي كانت تأتي بشكل متواصل من باريس. هذه المرة ليس كما كان الحال في الخمسينات، لإجراء تحاليل نفسية، فهناك الآن شيء جديد في السوق، لم يكن هذا قد وصل بعد إلى أوروبا، واسمه كرمة للأبراج.

«العمة حاولت صيد آخر قريب لها، من الذين قتلوا في معسكرات النازيين. إنه عمل مشين: في الخمسينات حقق هؤلاء أرباحاً توزن بالذهب الصافي على حسابنا. أما اليوم فنحن نُطعم نوعاً جديداً من المضاربين لم يكن لهم حتى اسمٌ قبل عام ونصف. كان يجب على هؤلاء الدجالين الدفع لحساب صندوق التعويضات».

«هل هي ثرية؟».

«لا أعرف، لكن عيادتها تقع في الحي الشمالي الشرقي، في مكان ما، إما في الشارع 63 أو 64 ما بين شارع مديسون وفيفث أفنيو. ينبغي أن يكون لها ابن كان معنا في الدراسة، اسمها اديلايد برايد».

«أنا لا أقصد المُنَجِّمة. بل أقصد عمتك».

«آه، إذا قامت اديلايد بعملها بشكل جيد، فإن العمة ستكافئها على أفضل وجه. عليك أن تكون متأكداً من ذلك. لقد قلت لها، إنه ليس هناك شخص يدعى برايد في سنتنا الدراسية».

«وماذا تفعل مع الناس؟».

«ليس لي معرفة بذلك، ولكن العمة روث تأتي الآن للمرة الثالثة.

اعتقد أن السيدة برايد تقوم بحسابات متفرقة عن النجوم في السماء والأمطار الرعدية القادمة، لا أعرف بالضبط. ثم تكشف لك عدد المرات التي وُلِدَتَ فيها من قبل وتوضح لك عمر روحك، وما هي المهمات التي كلفت للقيام بها في حياتك الثالثة أو الرابعة، وما لا يعرفه إلا الغراب عن حياتك. وفي الختام تقول أشياء مثل يا عزيزتي، *لا يمكنك أن تتوقعي من إنسان، أن يعطيكِ أكثر من إمكانياته*، ثم تقبض أجرة مقابل ذلك. ربما يقدسها المرء في الهند كنصف إله، أما في أوروبا فإنها تُحرق مثل الساحرات.» جون- جون ضحك من كل أعماقه.

«تمنيت لو تفتح أبواب العالم لنا، نحن- الشباب- وبهذا سيكون الحصول على المال أسهل مما هو عليه في وول ستريت، فهذه وقبل كل شيء تجارة مضمونة، بدون تقلبات. فالخوف موجود لدى الناس بشكل دائم».

في وقت متأخر من بعد ظهر أحد أيام تشرين الثاني/نوفمبر، بدأت أبحث وفي الحي الشمالي الشرقي عن بيت، عُلقت عليه لوحة مماثلة لسوهو، وعلى الطرف الجنوبي للشارع رقم 65، ما بين شارع ماديسون والفيفث أفنيو، وجدت منزلاً مدنياً ليس عريضاً ومدهوناً بالأبيض. A.B. كارما – للنجوم. كتب على *لوحة نحاسية مقابل البيت أوقات المعاينة حسب مواعيد مسبقة فقط.*

كان هناك مطعم إيطالي، جلست بالقرب من النافذة، طلبت الطعام وصرت أراقب المدخل المواجه لي. إلى وقت مبكر من المساء، لم يحدث أي شيء، فدفعت الحساب وغادرت المطعم خائب الأمل. في الشارع، فكرت لفترة قصيرة، ما إذا كان ينبغي علي أن أدق الجرس. لكنني تخليت على الفور عن هذه الفكرة، فلم أرد أن أحطم سر روزي. في

هذه اللحظة، وأثناء سيري باتجاه سنترال بارك، توقفت سيارة أمامي. نزلت منها امرأة ذات شعر رمادي – أرجواني. كانت تضع نظارة شمسية سوداء كبيرة مثل اديلايد برايد قبل بضع سنوات، وكانت تحمل بيديها بعض الأكياس من محلات ساكس، وبرغدورف وبانديلز. ذهبت إلى المنزل وفتحت الباب.

بعد بضعة أشهر، انتقلت روزي وبوب من سلوبي بارك إلى مرتفعات بروكلين، إلى منزلٍ جميلٍ يقع على شارع الكورنيش ويطل على جنوب مانهاتن. من هنا يمكن رؤية كل ناطحات السحاب بشكل أفضل مما عليه الحال في المدينة، كرايسلر، امبير ستيت، ومن بعيد مبنى إيه تي اند تي AT&T وبرج ترامب، وكلها لا تضاهي في علوها مركز التجارة العالمية. لم أعد أهتم بكل هذه الأشياء منذ زمن بعيد، فأنا نفسي صرت أتصرف تجاه روزي، كما كانت تتصرف هي حيال والديها. ومع كل ذلك فأنا أحب نيويورك. إنها بيتي، ولن تتمكن مدينة أخرى، من أن تصرفني عن حبي لها، كم كنت أرغب في أن أريها لدافيد.

قررت أن أذهب إلى مطعم على ساحة جراند سابلون. في هذه اللحظة، وعندما كنت أهم بالدخول رأيت دافيد يتمشى في الشارع. أهذه هلوسة، هكذا وإلى هذه الدرجة تختلط عليّ الأمور، وتؤثر على مقدرتي على رؤية الأشياء. عبر الرجل الساحة باتجاه شارع الأرد، لم يلتفت إلى الوراء. تبعته، وكأني معلق به بحبل. بدأ قلبي يدق بعنف، لم أكن أدرك، كم أفتقد دافيد. دق الرجل جرس أحد المعارض، سيدة شابة كانت تقف في الداخل أمام مكتبها، فتحت له الباب. ثم حيًّا كل منهما الآخر بحرارة، وضحكا، استدار حول نفسه. إنه دافيد، ليست لدي أي هلوسة. لم يُلقِ ولا حتى نظرة على القطع الفنية، وبدلاً من ذلك

تبع الفتاة إلى داخل المعرض. أخذت السماعة وبدأت مكالمة هاتفية، وحنت رأسها، فابتسم وأحنى رأسه بدوره، قلَّب صفحات إحدى المجلات، ثم قام بحركته المعتادة بوضع يده في شعره. اعتقدت أنه كان بإمكاني أن أشم ماء العطر الذي استخدمه، كما يمكنني وببساطة أن أنتظر هنا لأرى ماذا سيحدث. كان بإمكاني أن أطلب سيارة أجرة إلى المنزل، وأطلب من المدام حرق ما تبقى من أوراق، كما كان باستطاعتي أن اتصل بـ منى وأحدثها عما رأيته في هذه اللحظة. لكنني لم أفعل شيئاً من كل هذا.

الخامس والعشرون

عندما فتحت الباب، وقفت مدام أويجين ثانية أمامي مثل شبح الليل، وهذه المرة على الدرج. تساءلت ما الذي دفعها إلى الصعود؟. وما الذي يدفع إلى رسم الصورة الذاتية؟ ينبغي عليّ أن أؤلف كتاباً عن الصورة الذاتية، وأمنح لصور النساء الذاتية موقعاً خاصاً فيه، من أرطمسيا جنتليشي *Artemisia Gentileschi* [1] إلى سيندي شيرمان *Cindy Sherman* [2]. سيكون هذا مشروعاً معقولاً لي في بروكسل.

«سيدي، السيدة، تلك التي من برلين، اتصلت اليوم خمس مرات، وفي الختام قالت إنه من الضروري أن تتصل بها اليوم، مهما كان الوقت متأخراً في الليل».

«كنت أعتقد، أنكِ لا تفهمين الألمانية».

«السيدة بذلت جهداً لأن تتكلم بالفرنسية. هل هي زوجتك؟ ربما ترغب في العودة إليك، يجب عليك أن تمنحها فرصة أخرى، لقد كانت تتكلم بشكل ظريف جداً. وأظن أن صوتها مليء بالدموع».

«هل تكلمت بالفرنسية؟».

«حاولت وسع جهدها، يحدوني اليوم أمل كبير، ألا تُشعل ثانية النار وأن تقلّل من المكالمات الهاتفية. ليلة سعيدة يا سيدي».

«المعذرة يا سيدتي، هل ما زال في البيت شيء للأكل؟».

«ألم تكن تريد الخروج لتناول الطعام، ألم تقل بأنك...».

«أجل، ولكن..».

---

(1) 1593–1653 رسامة باروك إيطالية ولدت في روما.

(2) فنانة ومصورة أمريكية ولدت عام 1954 في نيويورك.

ربما أبدوا عاجزاً. مُنهكاً. لكن وعلى أية حال نجحت في تحويل لومها إلى شفقة.

«إن عليك ألا تسيء لصحتك، مونسيور»، قالت بصرامة.

صعدت إلى فوق ثم عادت بعد قليل، في ثوب وردي. إنها تبدو كأرنب ملوّن. بينما كنت أحاول الاتصال بـ منى، سمعت مدام أويجين وهي تعمل في المطبخ، إنها تغنّي،وقد شغلت نفسها بإشعال الموقد. منى أجابت بصوت لا يكاد يكون مسموعاً.

«حَسناً، أنّك اتصلت، شكراً».

«دافيد في المدينة، لقد رأيته للتو، إنه يتسكّعُ في حي صابلون، ودخلَ إلى معرض. كيف خطرت بباله بروكسل؟ لقد اتصل بي، لكن خادمة المنزل تخلّصت منه، أود أن أعرف من أين حصل على رقم الهاتف».

«مني أنا».

«ماذا؟ هل جُننْتِ؟» لوهلة من الزمن كنت على وشك إغلاق الخط. لكن عليّ أن أُنهي القصة.

«هل يُمكنكِ أن تُفسّري لي ذلك؟».

ظننت أنني سمعتها وهي تبْلعُ ريقها.

«أنا، أنا آسفة، لقد كنتُ غاضبة منك. لأسباب عدة: فسخ عقد العمل، الانتقال، لقد هربت بكل بساطة، وسمّيت هذا بالإجازة المتبقية. كنت أريد أن أخبرك حول ما اكتشفته في ذلك الأسبوع، عندما كنت أعتني به، لكنك لم تعد تهتم بالأمر. حاولت مرة أخرى عبر الهاتف، قلت إنني أود المجيء بسرور، لكنني وقعت في فخي الخاص. إنني أشعر بالخجل».

شعرت أنا أيضاً بالخجل، لكنني لم أقل ذلك.

«حسناً، تعالي إلى هنا. ربما كان هذا حقاً هو الأفضل».

«في عطلة نهاية الأسبوع، سأخبرك عن الوقت بالضبط».

في ذلك المساء في برلين، وعندما بدأت في إلقاء النظر على الوثائق الموجودة في ملف برلنسامت وعلى رسائل دافيد، قررت أن أسافر مرة أخرى إلى باريس. أردت مناقشة إدفيجه حول هذا الأمر.

أخذت أول طائرة، وقمت بمكالمتها هاتفياً من المقهى الذي تناولت فيه على وجه السرعة طعام الإفطار. حيث كانت في الريف.

«أريد الحديث معك في موضوع هام جداً. الأمر يتعلق بـ دافيد».

«قل لي، ما هو هذا الأمر».

«لا، ليس على الهاتف، ولا بأي شكلٍ من الأشكال».

«لن أتمكن من الوصول إلى المدينة قبل التاسعة، سأتصل بك عندما أخرج من هنا».

مشيت نازلاً باتجاه رصيف الميناء. كان الجو معتماً، الصيادون كانوا قد حزموا أوعيتهم منذ فترة، ولا وجود لأي إنسان يقود دراجة هوائية، ولا في أيّ مكان ترفرف تنانير الفتيات في الريح. وبدلاً من كل هذا كانت باريس تنتظرني بنصيب هائل من زينة أعياد الميلاد. في مثل هذا الوقت من العام أفتقد نيويورك أكثر من أي وقت آخر. ففي كافة المدن الأوروبية كنت أشعر ببرد قارس، ليس بسبب الحرارة الخارجية، ففي نيويورك كانت الحرارة أقل من ذلك. في أوروبا لا يفهم المرء أي شيء عن راحة المخلوق. يبدو أنها من العادات الحميدة لديهم، ألا يدفئ الإنسان نفسه التدفئة الكافية. إنه التقشف الذي يرونه صفة حميدة. أخذت أسال نفسي: لماذا تخلّت إدفيجه عن طفلها لأخيها غير المحبوب؟ من أين أتت المجموعة الفنية إذا لم يكن أوتو آبتس جَدّ دافيد؟

كنت على عجلة من أمري ثم قفلت عائداً مروراً بالمعارض الفنية في شارع نهر السين، ودخلت أول مقهى لأحصل على قسط من الدفء، وعندما طلبت فنجاناً من القهوة ونظرت إلى الساعة، لم يكن قد مضى ساعة واحدة من الوقت. انتظرت حلول المساء بعصبية، وبعد عودتي إلى الفندق استحممتُ وأخذت كتاباً بيدي واستلقيت. كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما رن جرس الهاتف أخيراً.

«ما زلت على الطريق السريع.» اقترحت أن نلتقي في شارع الإسطبلات الصغيرة في الحي العاشر.

«ثمة مطعم صغير هناك، مقهى فلو *Flo*، لنقل بحدود العاشرة. هل تعرف المنطقة؟ اركب المترو حتى قصر الماء *Chateau d`Eau*، إذا كنت تسير باتجاه المدخل الخلفي، فامشِ باتجاه اليسار».

لم أكن في هذه المنطقة من قبل، ومع ذلك، فإنني قد سمعت بالحي العاشر. من هنا، ما يسمى بحي الجمهورية، بعث باتريك ميلشر برسالته الثانية لألفرد برلنسامت. ألقيت نظرة على خريطة المدينة، عنوان المرسل كان في الشارع الموازي للمطعم، تقريباً في أقصى الطرف الشمالي الشرقي حيث يلتقي هذا الحي مع حي بلفيل *Belleville*، ثم وضعت الكتاب الصغير في جيبي، وذهبت في طريقي.

تبعت التعليمات، وصعدت المترو، استغربت أن إدفيجه اقترحت مكاناً بعيداً جداً عن منطقتها. لقد ثبت لي حتى الآن أن سلوك سكان باريس هو نفسه الذي أعرفه عن سكان مسقط رأسي، ولا يختلف عنه، في برلين: الكلّ يتعامل مع جواره وكأنها قرية، ولا يتركها إلا على مضض، وعندما لا يكون هناك مفرّ من ذلك. فإذا كان المرء يعيش في تشلسي *Chelsea*، فإنّ الجانب الغربي يعد منطقة محرمة. أمّا في برلين

فإنّ القرية ليست محدودة بعامل المكان، وإنما بعامل الزمن أيضاً. لقد تعرفت على أناس من حي شونيبرغ، يصرون بكبرياء على أن توحيد المدينة المقسّمة يُعد خسارة لا يمكن تحملها، فالتوسّع الحدودي الذي لا يتوقف، لا يمكن التعويض عنه، إلا عندما يتصرف المرء، وكأنّ الجدار ما يزال قائماً، لهؤلاء الناس ما يزال الكودام *Ku'damm* [1] هو مركز المدينة، بينما وسط المدينة وبرنسلاوربيرغ[2] هما بدون جدال مناطق قريبة من بولندا.

عندما خرجت من نفق المترو، أصبت بحالة من الذهول، لم أكن على علم، أن هذه المنطقة من باريس موجودة. لقد سمعت وقرأت من قبل عن المهاجرين في الضواحي التي صارت بؤرة اجتماعية، كأنهم أرادوا ملء المجاز بالحقيقة، وأشعلوا النار في كلّ ما كان قابلاً للاحتراق. وعلى أطراف المدينة أناس مغلوبون على أمرهم، يحاولون توجيه الأنظار لهم، ولظروفهم القاسية. أما هنا فكان الوضع مختلفاً كلياً، هنا أيضاً، مهاجرون، غالبيتهم من السود، لكن أحداً منهم لم يحاول أن يثير اهتمام الآخرين به، والشباب القادمون من شمال أفريقيا استغلوا الضوضاء والازدحام في الشوارع والحانات كأدغال يحتمون بها. كلّ واحد منهم تابع أعماله وخططه الخفية، التي كانت تتطلب من المرء الاختفاء بنفس السرعة التي يظهر فيها. غريب أن إدفيجه اختارت مطعماً هنا بالتحديد.

وصلت إلى هناك قبل الموعد، لذا قررت أن ألقي نظرة على المنزل الذي كتب منه باتريك ميلشر الرسائل لألفرد برلنسامت. لقد كان المبنى

(1) شارع في وسط برلين الغربية وكان يعد مركزها قبل إعادة توحيد المدينة.

(2) أحد أحياء برلين ويقع في الشرق منها.

شبه خراب، البلاط يتفتت عن الواجهة، أمام مدخل البيت تكدست أكياس القمامة، التي لَرُبَّمَا قام حيوان أو إنسانٍ بنبشها بحثاً عن شيء يمكن الاستفادة منه، ومن وراء الباب الأمامي المفتوح بان بيت الدرج المظلم مع ممر إلى فناء الدار، الجدران لم ترَ دهاناً جديداً منذ سنوات طويلة، ولربّما منذ عدّة قرون. سرت بضع خطوات داخل البيت، رائحة كريهة، مزيج نتن من رائحة الإنسان والحيوان والتفسخ والعفونة، كافة أنواع الأوساخ تكدست فوق بعضها البعض. فاحت من الزبالة رائحة الأبخرة من مواد غذائية رخيصة ودهون وأمعاء، كنت أعرف تلك الروائح من أيّام طفولتي، فلقد كان لي صديق في كوينز، والداه كانا روسيين من لينينغراد، وعلى الرغم من أنّ شارع شاطئ برايتون لا يقع في لينينغراد، إلاّ أن رائحة الفقر والاستسلام النتنة كانت تشتم هناك، تماماً كما هو الحال في شارع اشِكوير *Echiquier* 'l. لقد ذهبت هناك مرة واحدة أو مرتين فقط، غير أن تلك الرائحة كانت عالقة في ملابس ديميتري، وكان المرء يعرف من رائحته أنه قادم. سألت رجلاً مسناً كان يقف بجانب صناديق البريد، فيما إذا كان شخص يدعى باتريك ميلشر يسكن هنا، لم يكن سؤالي إلا بدافع النزوة، دون أن أتوقع، ولو من بعيد، الحصول على إجابة مفيدة، فموضوع الرسائل يعود لأكثر من أربعين عاماً. استدار الرجلُ ببطء، كان يرتدي افرهولاً أزرق وتحته جرز رمادي مصنوع من الصوف الخشن، ومن خلال عنق الجرز المهترئ برز قميص داخلي، كان ذات مرة أبيض اللون. أما الآن فقد أخذ لون الجرز. الرجل كان أصغر عمراً مما افترضْته أنا طبقاً لجسمه المنحني والنحيل، وعندما وقف أمامي، ابتسم ابتسامة عريضة، دون أن يتغيّر وضع عقب السيجارة البارد في زاوية فمه.

سأل «ألماني؟».

هززت رأسي، «أمريكي».

حك عنقه بنفس البطء الذي أدار فيه نفسه. نظرت خلسةً إلى الساعة، في هذه الأثناء، كان لا بُدّ أن أستعجّل، إذا أردت دخول المطعم قبل أن تأتي إدفيجه، كما تتطلب اللباقة. الرجل تفحصني بدقّة، وبدا أنه لا يريد مني إطلاقاً، أن أذهب بسهولة.

«باتريك ميلشر كان له في ذلك الوقت العديد من الأصدقاء الألمان».

«هل كان عميلاً؟».

«لم لا؟ عميل! عميل من نوعٍ خاص، أمريكي».

«اسمع، لدي موعد، أنا آسفٌ، أردت فقط أن أسأل، فيما إذا كان يسكن هنا، ربما كان من الممكن أن تكون صدفة. إلى اللقاء».

«أيها الأمريكي، ما اسمك؟» ناداني وأنا ابتعد.

«لا شيء مهم»، أجبته وتابعت طريقي.

بالكاد كنت قد وصلت الشارع التالي، حتى لحق بي، لاهثاً. وعقب السيجارة ما يزال عالقاً على شفاه الرجل، نقر بطرف أصبعه على كتفي. بقيت واقفاً في مكاني، ينتابني شعور بعدم الارتياح من اللمس، لا أحب أن يلمسني الغرباء. أخيراً انتزع الرجل عقب السيجارة من فمه ورماه بعيداً.

«ماذا لو اصطحبتك إليه، أيها الأمريكي؟

أصبحت عصبياً، من المحتمل أنّ تكون إدفيجه في هذه الأثناء قد وصلت فعلاً إلى المطعم.

«لقد غيرت رأيي، أريد أن أحتفظ به في ذاكرتي، كما كان.

شكراً جزيلاً».

عندما تخلصت منه وابتعدت، سمعت قهقهة تنبعث من ورائي، لكنني واصلتُ سيري، حتى وصلت مقهى فلو،وأنا ألهث، في نفس اللحظة التي دخلت فيها إدفيجه. فلحقت بها على عجل.

«المعذرة، لأنني لم أنجح في الوصول قبلك إلى هنا. لقد استوقفني شخصٌ ما في الطريق».

ارتعشت زاوية فمها بشكل مسلٍّ، وكأنها خَمَّنَت، مع من كنت شعرت وكأن اعتذاري كان مسلياً لها. المجاملة القصيرة انسابت بسلاسة مع حضور لجنة الاستقبال التي قدمت نفسها لنا. رئيس الاستعلامات كان يعرفها، النادل كان يعرفها، المرأة في المقصف كانت تعرفها. لقد رُحِبَ بالسيدة من جميع الأطراف بابتهاج عارم، واصطحبنا أحدهم إلى الطاولة الأفضل، كما أخبرنا النادل بكل فخر. المطعم الصغير كان غارقاً في ضباب الدخان إلى أقصى الحدود، سُمِعَت قرقعة الأطباق المعدنية، الندل يصرخون منادين على الطلبات عبر جميع أنحاء الصالة، يتنقلون مسرعين من المطبخ إلى البار، ومن البار ثانية إلى الطاولات ومن ثم إلى المطبخ. ما كدنا نجلس، حتى قُدم لنا على الطاولة دورق الماء مع مبرّدة بها زجاجة نبيذ أبيض إضافة إلى لائحتي طعام، وكلّ هذا على عجلٍ، كما لو أنه ليس لدينا سوى نصف ساعة من الوقت لتناول الطعام. عندما فتحت لائحة الطعام، فوجئت بالأسعار، لقد كانت أعلى بكثير مما يوحي به الضجيج وحركة الشغل، فقط الطاولات المغطاة بالأبيض ومناديل القماش كانت الشيء الوحيد الذي كان يشير إلى ذلك. بدا وكأنه من الطبيعي أن يكون المحار، والحلزون البحري، وسرطان البحر وطبق مشكل من المأكولات البحرية، ومختلف شرائح اللحم، والمقبلات

الكلاسيكية والحلويات على لائحة طعام مثل هذه المطاعم. إدفيجه لم تلقِ ولا حتى نظرة على اللائحة. وبعد دقائق قليلة، بالكاد كنت قد قرأت المقبلات، حتى وقف النادل ثانية أمام الطاولة.

«هل اخترتم ما ستأكلون؟».

بدا أيضاً وكأن إدفيجه غير قادرة على الصبر، كان لدي الانطباع، بأنها ما تزال تسخر منّي. طلبت ما ستأكله، ثم طلبت بعدها وبنوع من الارتباك، أول ما وقع نظري عليه.

«لماذا اخترتِ هذا المكان وفي هذه المنطقة؟».

«أنا ضيف دائم في هذا المطعم، منذ ما يقارب الأربعين عاماً. لقد سكنت في هذا الحي في السابق، على بعد شارعين من هنا. فلو هو أحد أفضل مطاعم السمك في المدينة. إلى هنا لا يأتي أيّ غريب طواعية، فالسياح لا يشعرون هنا بالأمان، لا يستسيغون المنطقة ولا الأجواء، إنها ليست عصرية، وهذا ما تراه بالطبع، هو ليس بالمكان الذي يمكن أن يكون بارزاً، الطعام ليس مغرياً، لكن الأشياء التي تأتي على الطاولة، هي من النوعية الممتازة. أحياناً، وعندما أكون في باسى البيضاء، يمتلكني حنين لهذه الأزقة. فهنا كانت بدايتي، أشم ذلك بين الحين والآخر. شيء ما يقول لي، إن هذا منشئي، وليس بعيداً من هنا، ولكن بعيداً عن برلين. على أيّة حال فقد أصبح الوضع خطراً نوعا ما. فالناس فقراء، وفي المرة الأخيرة كاد أحدهم أن يسرق مني حقيبة اليد.» ضَحِكَت. «لقد تعاركت مع ثلاثة شُبان مغاربة، هنا بالقرب من الزاوية، إلى أن جاء صديق قديم وساعدني».

«لديك أيضاً معارف قدماء هنا».

كانت تدرك أنني لم آت إلى هنا للدردشة، أيضاً روزي كان بإمكانها

أن تظهر مشاركتها على هذا النحو. إنها ترصد بدقة كبيرة رغبات نظيرها، ولكنها في الوقت نفسه تتصرّف وكأنها لم تدرك شيئاً من هذا القبيل.

«أنت تريد أن تتحدث معي حول موضوع ما»، قالت ذلك ونحن نرفع الأقداح.

«هل شاهدت التلفاز في الآونة الأخيرة؟».

«أنا لا أفعل هذا إطلاقاً».

«هل تحدثت مع دافيد؟».

رفعت حاجبيها. «ما هذه الأسئلة؟».

«إنه على وشك أن يتسبب بفضيحة».

«ليست هي المرة الأولى، إنه يحب هذا، هذا الشيء هو حاجة ضرورية لطفل لم يحظ بالاهتمام، والوحيد الذي كان ينزعج من هذا الأمر كان أخي، وهو الآن ميت. هل هذا هو كلّ ما تود أن تقوله لي؟ في هذا نوع من الإلحاح، أليس كذلك؟ أنا في العادة لا أعود بهذه السهولة من الريف، إذ يجب العناية بجميع غرسات الكاميليا من العام الماضي، ومن ثم – حسناً، أنت لا تفهم شيئاً من هذا. إن هذا الفصل من السنة مهم جداً بالنسبة لي».

نظرت إلي نظرة متفحصة.

«لقد وعدتني أن تقول لي، ماذا كان في الظرف، الذي بعثته لك النيابة العامة».

بدا هذا وكأنه عتاب، لكني لم أُعر الأمر أي اهتمام. هذه المرة سأحدد أنا مجرى الحديث.

«الفضيحة التي يخطط لها ليست خاصة تماماً، فمن الممكن أن يبث

ذلك في غضون الأسابيع القليلة القادمة على جميع القنوات، وحتى هنا، الأمر يتعلق بالمجموعة الفنية».

«المجموعة، أجل، المجموعة. سبق وأن ذكرتَ ذلك، دافيد كان عنده دائماً اهتمام بالغ بالفنون، الفن هو أهم شيء في حياته، ولربما سيموت بسببه، أعني على سبيل المبالغة، أنا لا أعرف ما حدث، ولكن إذا كنت تقول بأنه على وشك أن يتسبب في فضيحة... وتقول عبر كل القنوات؟ فما الذي يجري؟ وما هي هذه المجموعة أساساً؟».

«أنا أودّ أن أعرف منكِ هذا، لذلك أتيت إلى هنا».

نظرت إلي بلا مبالاة.

«أفترض أنه فن مسروق، ووفاة أخيك كانت هي السبب في حيرة دافيد».

«فن مسروق، وفاة والده، ما الذي تقوله!».

ضَحِكتْ بمرارة، شربتْ رشفة من النبيذ ووضعت المنديل جانباً. وضع النادل الأطباق أمام إدفيجه على حاملٍ من النحاس، عدّة أطباق صغيرة مع الليمون والبصل في صلصة حمراء إضافة إلى الزبد والخبز. ثم جيء بصينية المأكولات البحرية. الحيوانات القشرية على الثلج. عندما وضع أمامي طبق من سجق من الدم المقلي، أدركت أنني وبسبب التعجل أخطأت في الطلب.

«بحق السماء، لا تنظر إليّ الآن وكأنك صُعِقت. هل هذا بسبب تعليقي أم بسبب ما هو أمامك؟».

كان كلاهُما، فأنا كنت ما أزال أمريكياً بحتاً، كما أنني أود رؤية ومعرفة ما آكله، بحثت عن مخرج. لقد كنت أرى أن إدفيجه تعتقد أنني شديد الحساسية.

«لماذا أنت بالذات قلقٌ عليه؟»

«أنتِ لا تعنين هذا بالطبع. انظري إلى دافيد. أنتِ التي قلتِ لي ذلك بنفسك من قبل، بأن لدي سبباً كافياً للقيام بذلك».

«لماذا أنت؟»

ترددت وعجنت قطعة من الخبز، وكأنّ النتيجة كانت بمثابة إعلان واضح للإجابة على سؤالي. فجأة تركت هذا الأمر، وأَخذت محارة من الثلج وفكتها من القشرة. بدون أن تذرّ بعض التوابل على الجسم الخالي من العيون، قامت برشفها وأعادت وضع القشرة على الصفيحة. ببطء، وكأنه كان عليها أن تقدّر بالضبط آنية المخاطرة، بدأت مجدداً الحديث عن دافيد. فهي في البداية كرّرت ما كنت أعرفه، كررت القصة كاملة. ما بين الجملة والأخرى كانت ترشف المحار. لم تحتج لأكثر من ربع ساعة، حتى كانت كل أصداف المحار فارغة، قبل أن تبدأ بجرف المأكولات البحرية، طلبتْ دزينة أخرى، ثم أدركت بأنها طلبت إبعاد سجق الدم الذي طلبته بالخطأ، وذلك عندما أصبحت أعشاب الفويس أمامي.

«إن طعمه لذيذ، بإمكانك أن تكون على ثقة وكما ترى الآن حقاً، فإن شكله الحالي لا يمت بصله لشكله لما كان عليه من قبل. فكّر ببساطة، بأنّ ذلك ينمو في العلبة على الأشجار.» نبرة صوتها كان فيها قليل من الظنّ.

«هل تحب شرائح اللحم؟».

أومأت برأسي، فطلبت لي كوجبة رئيسية شريحة من لحم البقر المقلي. عندما رأيتها تتصرف هكذا، صرت أبحث عن أوجه التشابه بين دافيد وبينها. وتبعاً لنظريتي غير المؤكدة، فإنّ الأبناء الأوائل يأتون

لأمهاتهم، أما البنات الأكبر سناً فإلى آبائهن. أنا لم أعثر على دافيد فيها، لا في حركاتها ولا في طريقة حديثها، ولا حتى في نظرتها. ففمها له شفاه ممتلئة ناعمة، دقة معالمها أقل بكثير، عيناها تشعّان بقوة بزرقتها الداكنة، بتجاعيد صغيرة حيّة في زوايا الأجفان، كانت في هذا المساء مقارنة بظروفها ترتدي ملابس بسيطة ومريحة. امرأة ثرية قدمت للتو من الريف، نفحة من النسيم النورماندي الشمالي تحيط ببشرتها وشعرها. الحلى التي تلبسها بشكل هامشي، يدلّ على أنها متواضعة. لذا لم يكن هناك تشابه بين دافيد وإدفيجه، لأنّ كل شيء كان بالنسبة لها هامشياً. أبعدت شعرها المرسل، الذي يصل إلى الكتفين عن وجهها، ثم قالت إن دافيد شخص له صفات فنية. ألفرد العملي، الذي جاء بالمناسبة على أبيه، قد حرمه بالطبع من هذا الشيء. ألفرد برلنسامت كان يريد أن يستلم دافيد الشركة، وكان هناك خلافٌ، بل أكثر من خلاف. دافيد أجبر على دراسة إدارة الأعمال، وكأن ذلك لم يكن كافياً، فقد أرسل ابنه إلى الولايات المتحدة. كلامها بدا وكأن البلد الذي قدمتُ منه، ليس إلا سجناً للإصلاح!

«ألم يَعِشْ في برلين؟».

«بالكاد، فأخي أنفق ثروة هائلة على المدارس الداخلية، ولاحقاً لجامعة كولومبيا في نيويورك. غير أن ذلك لم يحقق أي فائدة. وبالكاد ذهب دافيد إلى هناك، وبعد فصلين دراسيين قطع دراسته، وبدأ سراً بدراسة التمثيل، لم يكن غير موهوب، لكنه طرد منها. لم يستسلم، ثم فكر فيما بعد بأشياء أخرى، لم يربطه شيء بهذا، حسب رأيي فقد كان عليه أن يفعل شيئاً ذا صلة بالفن، أن يصبح رساماً، مقدرته التعبيرية كانت مدهشة، ولفترة قصيرة وعندما كان شاباً، كان يستمتع بالرسم،

حقاً كانا موهوباً للغاية وبشكل ملحوظ، وكان بإمكانه كسب الكثير المال من خلال ذلك. لكن المال لم يثر اهتمامه إطلاقاً. للأسف، وإلا لكان قد أصبح مستقلاً عن أخي منذ فترة طويلة. دافيد كان دائما مهووساً بسبب هذا الجنون العائلي. أراد أن يستثير الإعجاب عند أخي. يا إلهي، إنه أحمق لدرجة لا توصف. إنه حقاً يصب كل تركيزه على هذه الأسرة المحدودة الأفق بشكل تام».

«الآن، إذا عاد ألماني بعمره إلى ما قبل جيلين، فإنه يمتلك أوراقاً جيدة للعثور على ما هو أكثر من شخص محدود الأفق. أو وبالأحرى أود القول: المسرحية الدرامية الكبرى، الجناة والضحايا وكلّ ما نشأ عن ذلك، صناعة فلكلورية حقيقية، اعتمدت على الدعم من جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة، إلى الحد الذي يمكنني فيه تقييم ذلك. يبدو لي، أنه يمكن للمرء أن يعيش طيلة حياته كحفيدٍ ألماني».

كانت ما تزال ترشف إحدى المحارات التي طلبتها لاحقاً، توقفت مفكرة، ونسيت أن تبلع وبدأت بالسعال.

«هذه النظرية مثيرة للاشمئزاز».

«إنها ليست نظرية، بل حركة».

«إنني على علم بما يثير اهتمام ألمانيا».

«الأرستقراطية الحائرة، هل سمعت بذلك؟».

هزت رأسها، وكانت قد توقفت عن السعال، وأخذت رشفة أخرى من النبيذ.

«الأرستقراطية الحائرة؟ ما المقصود بذلك؟».

«بكل استهتار فإنّ ذلك معناه: المشاركة هي كل شيء، حتى إذا كانت المشاركة ناجمة عن الحيرة فقط، من الغريب فعلاً أن الناس في

ألمانيا ما يزالون يريدون أن يكونوا مشاركين، بغض النظر عن الشيء وماهيته، المهم المشاركة وليس البقاء وحيداً».

«هذا ضرب من العبث. أنا لم أستلطف عائلة آبتس بالتأكيد، ولكن لا يوجد في هذه العائلة ضحايا أو جناة، إنهم بكل بساطة لا شيء، فقط متخلفين، خائبين، كَمٌّ تراكمي من الذين يودون أن يصبحوا شيئاً ما».

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. ومع ذلك، فإعادة تجهيز الطاولات ما يزال متواصلاً، وما زال الضيوف يأتون. كلّ كرسي كان محجوزاً. إدفيجه صمتت، وأثناء صمتها شرحت لها ماذا فعل دافيد.

«لقد كان في إجازة في برلين، عندما قتلت والدته» قالت ذلك بصوت لا يكاد أن يسمع.

«تقصدين، عندما قتلت ميريام برلنسامت بالرصاص».

نظرت إليّ. لم أستطع أن استخلص بالضبط، فيما إذا كانت قد فهمت على الفور ما أعرفه.

«المسافة الفاصلة لخلق عائلة مختلفة تماماً، بواسطة كذبة عائلية ليست كبيرة جداً. يجب ألا يفاجئك هذا».

«و لكنني كنت قد قلت، لا أشعر بالمفاجأة. ولا بأي شكل من الأشكال».

«ألا يؤلمك هذا أيضاً؟».

«أنت تطرح حقاً أسئلة خاصّة أيها الشاب. ولكنك فعلت ذلك منذ البداية، وأنا لم أطردك من الجلسة».

كان لها قدرة على التحمل. تخيلت سنواتها الأولى، وحيدة في باريس. شاهدت روزي وهي في طريق الهجرة، أرخص درجة، في غرفة لعشر رؤوس بسفينة. حتى لو كان بمقدورها أن تفعل أكثر من

ذلك، ما كانت لتفعله. كانت قادرة على إخفاء ما لا تريد أن تدركه، بسيادة تامة في كلّ أشكال التجاهل. إدفيجه وروزي كانتا متشابهتين، غير أن إدفيجه كانت تمتلك إحساساً أكبر للأصول، شعرت أنها أكثر أوروبية، بغض النظر عما يعنيه ذلك، وعندما طرحت السؤال الذي لطالما وقف على لساني، لاحظت أنها لا تمانع من سؤال آخر، سؤال لا يتعلق بـ دافيد على الإطلاق.

«من كان باتريك ميلتشر؟».

نظرت إليّ كما كان نظر شقيقها إليّ خلال زيارتي له بالسجن. نظرتها جاءت من بعيد، نظرة حيوان بري قبض عليه بعد صيد طويل. ثم كررت مثل شقيقها كلماتي مراراً وتكراراً.

«باتريك ميلتشر».

«هل كان عميلاً؟».

«عميل»، ردّدت. مسّدت شعرها، بشرود وتردّد. «في أزمان أخرى كان يمكن أن يسميه المرء عميلاً».

النادل صب لنا ما تبقى من الزجاجة وسأل عمّا إذا كانت المدام ترغب بزجاجة جديدة، فأومأت برأسها، ثم نظرت في أرجاء الغرفة، وكأنها تريد التأكد فيما إذا كان الطلاء الزيتي البني ما زال لاصقاً على الجدران، والمصابيح السقفية ما زالت في مكانها، ومقاعد القبعات على الجدار.

«باتريك ميلتشر» كرّرت مرّة أخرى.

«هل هو والد دافيد؟».

السادس والعشرون

لم يسبق لي أن سألت روزي عن أبي، وروزي ذاتها لم تأت على ذكره في أحاديثها. ولماذا تتحدث؟ فالماضي كان مطابقاً للحاضر، فقط هو أقدم سناً. وأنا لم يكن باستطاعتي أن أعثر على الكلمة الحاسمة لفك حاجز الصمت. من الممكن أن تكون منى قد فقدت صوابها أمامي مرة واحدة في حياتها بسبب.... ربما كنت قادراً على جعل الماضي يهتز، لو لفظت اسم والدي فقط. لكنني لم أكن أعرف حتى اسمه.

إدفيجه توقفت عن تناول الطعام. بقيت ثلاث محارات. واحدة منها كانت قد وضعتها على طبقي أثناء طرحي للسؤال، ولم تقم باسترجاعها، واثنتا كانتا ما تزالان على الصينية، القمم الجبلية المتجمدة الموجودة فوقها ذابت وتحولت إلى بحر قارس البرودة، فاكهة البحر الميتة والنصف مفتوحة، سبحت فوقها دون أن يمسها أحد، سرطان ضخم بملاقط كبيرة بحجم اليد، دزينة من حلزون البحر، حلقة راقصة من الروبيان الوردي اللون تصلّبت إلى وردة زينة، وعاء سرطانات بحر الشمال والمحاط ببلح البحر وأعشاب التانغ البحرية. إدفيجه تنفست بهدوء، وشربت رشفة من النبيذ. ثم – وهذا ما كنت أعرفه – فجأة تمالكت نفسها. لم يكن من السهل إحباط هذه المرأة، وخاصة من خلال الأشياء التي لا يمكن منع حدوثها.

«باتريك ميلتشر كان محتالاً صغيراً»، قالت ذلك ببساطة، «لا أعتقد أنه من باريس، هو على الأغلب من ألزاس، مثل العديد من الناس بهذه الأسماء نصف الفرنسية. لقد عشت في ذلك الوقت قريباً من هنا في منطقة *chambre de bonne*. حصلت على وظيفة في المشاتل في

فرساي. المتدربون كان يتم ركلهم بشكلٍ أكبر من تشجيعهم، إلا أن الشركة حصلت على عقود من أشخاص أثرياء من المنطقة المحيطة، وإذا فتح المرء عينيه، فإنه يستطيع أن يتعلم الكثير. كان لديهم معرفة بالتربة والمواد الكيماوية، وكانوا يزرعون أفضل النباتات في مختلف أنحاء إيل دو فرانس[1]».

ابتسمت. «اليوم أفعل ما ترى. لقد كان عملاً جسدياً مرهقاً، ولكني أردت أن أنجح، كنت مجبرة! كان علي ألا أسمح لنفسي بالعودة إلى ألمانيا، كنت سأختنق هناك في أعوام الخمسينات. كل ما كنت أبتغيه كان الجمال فقط، ولا شيء غير ذلك، لا أخلاق، ولا مركز اجتماعي، فقط الجمال عديم الجدوى. إلى أين كان علي أن أذهب إن لم يكن إلى باريس؟ الشرق لم يخطر ببال المرء في ذلك الوقت، ولم أفكر في مرتفعات أفغانستان، وأضواء طنجة، وشواطئ فيتنام. كانت الحرب ما تزال مستعرة هناك. النابالم والموت والإبادة. فكّر أنت، الصين في تلك الأوقات! أنت لا تستطيع أن تجد لنفسك مصطلحاً حول الأمر، أنت أيها الرجل الشاب المسافر كثيراً الذي يعيش على قارتين، كيف كان العالم محدداً في ذلك الزمان، لامرأة شابة. كيف يجب على المرء أن يشرح هذا الأمر في يومنا هذا؟ لقد وُضِعت الأصفاد ثانية على البنات. في ألمانيا جاء هوس النظام وهذه الأخلاق التي لا تطاق بعد الأنقاض. هنا ساد الجمال، دخل في فرنسا حتى إلى الطبقات الفقيرة. تعلمت بسرعة أنه لكي يدوم الجمال يجب أن يكون محكوماً بالانضباط. ليس من النادر أنّه ثمرة البرودة، أو على الأقل ثمرة العقل الراجح. نوترِ

(1) ضواحي باريس.

Notre [1] كان مثلي الأعلى وليس بوكلر *Pückler* [2] ولا لينه *Lenne* [3].
اشتغلت بجدّ لأيام عديدة، ولكن في بعض الأحيان كان علي الخروج مساءً. في مثل تلك الأمسيات كنت أريد ترك نفسي تنساق وحدها، فالانضباط بدون رحمة متعب بشكل غير محدود. احتجت لليلةٍ مليئةٍ بالحياة المفرطة، بلا بداية ولا نهاية ولا مفر ولا هدف. كنت أبحث عن نظير لهذه الحسابات، لكي أتمكن معها أن أبقى على قيد الحياة».

كانت تخرج أيام السبت فقط، وفي سائر الأيام الأخرى، باستثناء الأحد، كان عليها أن تستيقظ في الساعة الخامسة تقريباً، وفي فصل الصيف الساعة الرابعة. في هذه المنطقة من باريس كان المرء يخرج يوم السبت لتناول العشاء وبعد ذلك يذهب إلى مقهى رخيص. أَخَذَت رشفة من النبيذ وأدارت الكأس في يدها، وكأنها تقرأ فيه ما الذي يجب عليها أن تقوله.

«إذا لم يكن الإنسان يوم السبت قادراً على دفع ثمن الطعام، كان يكتفي فقط بالشرب. هذا ممكن أيضاً. هكذا كان الأمر في السابق. أمّا اليوم فالأمر تقريباً شبيهٌ بالماضي، فالناس هنا فقراء».

استراحت قليلاً. لهجتها كانت تعبر عن المرارة، ثم أضافت:

«قريباً سيصبح الكثيرون من سكان باريس فقراء مثل هؤلاء الناس في هذا الحي. وجود مُتلفْ، أشخاص يبيعون أخواتهم من أجل بضعة يوروات، صائدو الكلاب، فتيات أصبحن مومسات قبل أن ينضجن جنسياً. أمهات بيض أفريقيات، حملن بعد أول دورة شهرية لهن، كُنَّ يَبعْن أبناءهن المولودين حديثاً لأكثر من يدفع من الأمريكيات الثريات.

(1) أندريه نوتر André Le Nôtre ولد عام 1613 وحتى عام 1700: مصمم حدائق.
(2) سلالة من النبلاء في شلسفيج بألمانيا.
(3) Lenne 1789–1866: مهندس حدائق ولد في بون بألمانيا.

أنا لم أكن مغربية، وعمري ليس أربعة عشر. وعلى الرغم من ذلك، فقد أصبت بالعدوى. في إحدى ليالي نهار السبت، نسيت نفسي، وعندما علمت أنني حامل، فكرت أولاً في الإجهاض غير القانوني».

صبّت ثانية لنفسها، ولوّحت للنادل ترجوه أن يُحضر لها علبة سجائر. فجأة، شممت رائحة الحيوانات البحرية الميتة في كل مكان. لقد أصبحت باهتة اللون، مثل النفايات التي يلفظها البحر الهائج بعد العاصفة إلى الشاطئ. لكنه لم يكن البحر. البحر بأمواجه الهائجة كان بعيداً جداً، لقد كان الشارع، الذي دخل علينا واختلط بقمامة هذا الفيض من الطاولات. أحسست باشمئزاز في حنجرتي. جلب النادل السجائر وزجاجة أخرى. شربت إدفيجه الكأس جرعة واحدة وملأته ثانيةً. أنا تسمّرت أمام جبل النفايات، وفكّرت بالشخص القذر الذي كنت قد سألته عن باتريك ميلتشر. ماضي إدفيجه كان يتبعها. وبين حين وآخر كانت تتوقف، تشرب، تشعل سيجارة جديدة. حركاتها كانت ثقيلة وصعبة، وفي إحدى المرّات قلبت كأس نبيذها، حينها قدم النادل وبدّل غطاء الطاولة. نظرته كانت محايدة، لا تنم عن سرور، ولا عن انزعاج، لم يبدُ عليه القلق. إدفيجه كانت هنا في مكانها، ولأنها لم تنسَ فلوه ولا رواده إطلاقاً، فقد أكسبها ذلك الاحترام، ولربما المودّة. مناسبات جميلة، لربّما عاطفية بشكل قليل، وبالنسبة لإدفيجه كان هذا بنداً إضافياً في صك التأمين على حياتها.

«كان الإجهاض بالنسبة لي هو الحل الأفضل. لم يكن لديّ أيّ علاقة بهذا الحمل المزعج في بطني. لقد كان وحشاً، وكان ينمو ويجبرني على إطعامه. لم أكن أريد حتى أن أتخيّل منظره، ولا كيف يتنفس أو يتحرك. كنت أرغب في التخلص منه، لأنه أفسد مستقبلي، والأسوأ من ذلك

كلّه كانت فكرة أن أضطر للعودة إلى ألمانيا بسببه، العودة إلى المحيط العفن بالقرب من عائلتي. باول وليوني آبتس. لم يخطر ببالهم، كيف يزدهر التخلّف وعزيمة الصعود تحت الغطاء المشمّع والمَرْيَلة. لقد بدأوا في شتجلتس[1] ، ونجحوا بسرعة حتى في الوصول إلى شارع فازانن شتراسه في حي شارلوتينبورغ. لقد كانوا على وشك أن يجنّوا من الفرح لأنهم وجدوا أخيراً سكناً في تلك المنطقة الراقية. «كمتخلفين كان لديهم ذوق خاص..».

«... بالطبع لا يمكن أن يؤخذ على الناس فرحهم، بسبب حصولهم على الطعام مرة أخرى، لكن عند الناس الأغبياء فإن الشيء المهم هو الطعام والمال فقط. كلّما كان عندهم مال أكثر، كلّما أكلوا أفضل. كلّما أكلوا بشكلٍ أفضل، طعام الكونسروة من فرنسا وأمريكا، كلّما صعدوا أعلى وأعلى. والدنا تصرّف كما لو أنه الآن حصل على شهادة أكاديمية أيضاً، وذلك فقط بسبب وجود شخصين في المبنى كانا حائزين على درجة الدكتوراه. هو كان متوسطاً إلى الحد الذي مكنه من أن ينمو أكثر من نفسه، دون أن يلاحظ بأنّ الشكل المناسب لهذا الغرض ينقصه.

«لكن وبشكلٍ ما كان ناجحاً فعلاً، وإلا لما كان باستطاعتهم الانتقال إلى هذه المنطقة».

ابتسمت إدفيجه بمرارة.

«لم أسأل إطلاقاً كيف حصل هذا، فالماضي لم يكن يعنيني».

«ربما كانت أمك، هي التي جعلت من هذا أمراً ممكناً؟».

«أُمنا؟ هذا اللا أحد الفقير أحضر معه فتاة شوارع، دجاجة ألمانية. هذه الفتاة تحملت الكثير من أجله. لقد كان فخوراً بفرنسيته الصغيرة،

---

(1) أحد أحياء برلين الراقية.

حتى وعلى الرغم من أنها لم تكن أنيقة، عندما أنقذها من مخالب أبناء جلدتها، كان يريد أن يعطيها شيئاً ما، ويعوضها عن الوحشية الفظيعة».

«الوحشية».

«الختان، لا، تقديم الهدايا، لا، لا يسمّى هكذا. عليك أن تعذرني، أحياناً تفلت مني الكلمات الألمانية، لقد نسيت الكثير منها، نادراً ما أتكلم الألمانية. لقد حلق المرء رأسها حتى الصلع- كيف يسمى هذا...؟».

«لقد حلقوا لها شعر الرأس حتى أصبح أصلع؟».

«نعم، هذا ما قصدته، صلعوها. هذا الشيء فعلوه في فرنسا مع العديد من النساء، اللواتي كان لهن علاقةٌ مع الألمان. قبل وبعد ذلك تعرضن للاغتصاب، علناً، وبعد ذلك سقن في الشوارع مثل الماشية».

مسّدت يدها من خلال شعرها العسلي الأشقر الكثيف.

« نحن اليوم نشتم حركة الطالبان، ونتصرّف وكأننا كمسيحيين لسنا قادرين على القيام بمثل هذه الجرائم».

«إذاً لا ترتبط عائلتك ولا بأي قرابة مهما كانت بعيدة بـ أوتو أبتس وسوزان دي بريكر»، علّقت بشكلٍ بلاغي.

«أوتو آبتس وسوزان دي بريكر؟ لماذا؟ ما الذي تقصده؟ أوه نعم، سفير هتلر في باريس! أنت تعني شجرة عائلة دافيد التي نشرها بيديه. بالطبع لا، فهذه فكرة دافيد المجنونة. الآن أفهم ما الذي تريد الوصول إليه طوال الوقت! لماذا تلف وتدور حول الموضوع؟ دافيد مختل عقلياً، من النوع المبالغ به بعض الشيء. على أية حال كنت قد أخبرتك: حاجة إثبات الوجود لطفل مُهْمَلٍ. لا، لا، أجداده كانوا ناساً بسطاء».

«... وهكذا كان آبتس أيضاً..».

«غير مهم، أنت لا تعرف إطلاقاً كم هناك من النساء الفرنسيات اللواتي كنَّ مُغرمات بالألمان. العائلات كانت تغض الطرف عن هذا، في القبو أو في المخزن أو في المرآب وراء الكراكيب، كانوا يتصرفون وكأنهم لا يعرفون شيئاً. لهذا كانت هناك جوارب الحرير، سجائر *جلواز* أو *نيل*، شوكولاته، تأشيرة وشمبانيا. في بعض الأوقات كانوا فرحين بالقليل من المواد الغذائية الأساسية أو حصة إضافية من الورق. الفتيات من منطقة بارك مانسو، إذا كان هذا يذكرك بشيء، أعني البنات الأعلى مستوى، اللواتي كانت لوحات ريمبراندت معلقة في بيوتهن فوق المواقد، .... – عفواً – مع الصبيان النازيين».

في حرارة حديثها، تعرّفت أخيراً على دافيد من جديد. على ما يبدو كان لهما نفس المزاج، الذي كان قادراً على الاحتقار، كما هو قادر أيضاً على الحماس اللامحدود.

«... من أجل منع الأسوأ. بعد الحرب قام الحلفاء بفعل ذلك مع الفتيات الألمانيات. لا تنظر لي هكذا وكأنك غير مصدّق، الأمريكيون أيضاً! البعض منهم كان أكثر لطفاً، البعض أقل لطفاً. في هذه الأثناء كانت الجوارب والألبسة الداخلية من النايلون. السجائر كان اسمها *Lucky Strike*، والشوكولاته كانت مملوءة بالكراميل، لكن...، أنت تعرف ماذا أقصد، تمّ مقابل هذه الأشياء أيضاً. أمّة من البدو، هؤلاء المهربون، بلا حدود وبمرونة دائمة. ليسوا بحاجة إلى أرض ثابتة. شعب بدون مكان».

ضحكت بمرارة. أما أنا فقد استلقيت على الكرسي بعصبية بانتظار لحظة مناسبة للعودة إلى الحديث حول المجموعة الفنية مرّة أخرى. في

هذه الأثناء كانت في حالة كافية من الثمالة، لكي تقول لي ما تعرفه، لكن هذه المرحلة المليئة بالفرص بين الأقداح التي تم إفراغها، والأقداح التي يجب تفريغها لم تستغرق طويلاً.

«والدي قدّم لدجاجته الفرنسية الصغيرة ما كان بوسعه أن يقدمه. لقد رتّبوا أوضاعهم. كل شيءٍ كان ثقيلاً قليلاً ومظلماً، كانوا يعدون هذا جميلاً. كان بإمكان المرء أن يظن، بأن والدي قد تعلم شيئاً جديداً في فرنسا، لكن هذا لم يحصل، والدجاجة لم تفقد شعرها فقط، بل إن ذاكرتها مُسحت بالكامل. لا شيء إطلاقاً من الأناقة السلسة، الظرافة، التي كان يفترض أن تكون ميزة فرنسية. ما بقي كان شهادة الميلاد فقط، تدوين في دفتر العائلة، يشير إلى فرنسا».

كانت طريقتها وهي تتحدث عن أمها تحرجني، بازدراء، وكأنها تريد نتف ريش الدجاجة مرّة أخرى.

«أنا لم أفهم أبي، ولا دجاجاته الفرنسيات ولا أخي موريس، الذي حصل على اسمه الفرنسي، لأنه ولد في فرنسا، سافر مرة واحدة إلى باريس، بسبب الميراث، كان يريد التفاوض معي، وهي بنفسها عندما توفي والدي بعد عشر سنوات من العودة المشتركة، كان للتو قد أوصلها إلى شارع فاسانن شتراسه، بقيت حيث هي، ولم تعد إطلاقاً إلى بلدها. ما هذا الحقد! يا للسماء، بالطبع لم تنسَ شيئاً، لقد تصرفت فقط هكذا. فمها كان مغلقاً باللجام. تمنيت لو أنها حدثتني شيئاً ما، ولو مرة واحدة فقط. كلّ امرئٍ يريد فقط أن يعرف، كيف كانت الحقيقة. ففي مثل هذا الأمر لا تكفي عبارات مثل: *أنا آسف على ذلك أو ما فعلناه كان فظيعاً أو كان مخيفاً الذي عشناه*».

تماماً مثل دافيد، هكذا بدت إدفيجه، مليئة بالتناقضات. لقد ادعت

أنها لم تهتمّ بالماضي، في الوقت نفسه اعترضت على صمت أبويها حول ذلك.

«لكن من أين عرفتِ بأنّ هذا كلّه قد حصل، إذا لم يتكلم أحد حول ذلك؟ أنا أقصد الإساءة، التي تعرضت لها أمك والنساء الأخريات».

هزّت إدفيجه كتفيها.

«بالصدفة. بابا ودجاجته، كانا منزعجين عندما ذهبت إلى بلاد ملك الشمس[1]. ذهبت، لأنني وجدت فرنسا رائعة جداً، وكنت مغرمة بالأناقة التي لم أجدها في ألمانيا. هذه الأداة الماوية، التي بدأت في ذلك الوقت تصبح حديثة، توجهات السوربون، والوجودية كانتا بالنسبة لي هراء. لم أكن أرغب في قراءة كتب سارتر، ولكن رغبتي انصبت على دراسة حدائق نوتر *Notre*. عندما قرّرت ذلك وأخبرت والديّ بهذا، زلّت من لسان والدي: «كيف يُمكنك أن تفعلي ذلك بأمّك، بعد كلّ ما فعلوه بها هناك! ظنوا أنني ذاهبة إلى العدو اللدود».

«يبدو كما لو أنك تمقتين والديك».

«هذا هراء، هذه عواطف زائدة عن اللازم. كانوا غرباء بالنسبة لي. أنا لمْ أفهمهم، لقد ركّزوا أساساً على ابنهم فقط، ابنهم النموذجي موريس، الذي نشأ عنه ألفرد المبهج. لقد فعل ذلك بشكل جيد، مع زوجةٍ، واختراع، واسم جديد ألفرد برلنسامت: يبدو وكأنّه مادة متفجرة يهودية. التحق بالنادي الثقافي اليهودي البرليني الجديد، أو كما يُسمى هذا الاتحاد، هل ذهبت مرة إلى هناك؟ حسناً، لماذا ينبغي عليك ذلك؟ كل شيء كان على ما يرام، كوخ عفن في شارع فاسانن شتراسه،

---

(1) المقصود فرنسا، أما ملك الشمس فهو الملك لويس الرابع عشر الذي حكم فرنسا وهو في الخامسة من عمره من عام 1643 وحتى وفاته في عام 1715.

سيدة شاكية أعجبت بالملل، حساب مصرفي وافر، والشقيقة صامدة في باريس البعيدة. لم ينقص إلاّ الوريث. ميريام الطيبة، لم تكن قادرة على الحمل. إنها وببساطة لم تسعَ لذلك، وبعد ذلك، وقعت في المأزق. أنا لم يكن لديّ المال لدفع تكاليف الإجهاض، كما لم أكن أعرف، من أين كان علي اقتراضه. لذا كان عليّ أن أتابع المشوار. لقد قرّرت قدر الإمكان تجاهل حالتي هذه، إرسال الطفل للتبني. كنت آمل سراً أن أفقده نتيجة العمل الشاق، سحبت الأثقال وحفرت أحواضاً كاملة، بعمق مترين، بالفأس والمجرفة، خلطت الأرض بالخثّ، سكرت، لكن طفلي كان مثل حيوان قاس. ربما كنت في الشهر السادس أو السابع، لا أعلم ذلك بالضبط، على أية حال صار الحمل واضحاً عليّ، عندما وقف أخي فجأة أمامي، كان هذا في المشتل، أنا أتذكر أنني كنت حينها منهمكة في زرع غرسات مهماز الفرسان، موريس كان قد وصل مقتنعاً بأنه سيفاجئني. المفاجأة كانت جزءاً من استراتيجيته، لكن بعد ذلك كان مندهشاً، لم يعد بإمكانه إغلاق فمه، في عينيه كان نوع من الهذربة، وكأنه أراد أن يقول عاهرة. لكنه لم يقلها، فقد كان في أحشائي الشيء الذي كان يريده. كان ذلك يبدو واضحاً عليه، وشعر بأنه كان مظلوماً من القدر. ثم سأل، لقد نسي على ما يبدو مطلبه الخاص بشكلٍ كامل، من هو والد الطفل».

جاء النادل وسأل عمّا إذا كنا قد انتهينا من الأكل. لقد أخذ المَرَق العكر الذي كانت تغوص فيه كل الأشياء بدون نظام، وجلب من جديد لائحة الطعام، منتصف الليل كان قد مضى. في الواقع أنا لا آكل في مثل هذا الوقت، لأنني لا أستطيع النوم بعد ذلك. لكنني كنت أخشى أن تتوقف إدفيجه عن الحديث قبل نهاية القصة. لذلك طلبت *crème*

brulee [1] وفنجاناً من القهوة، كما طلبت هي أيضاً شيئاً ما. كنت صدقاً شاكراً للعرف الفرنسي، المتمثل في عدم الإسراف في الأكل.

«وهذا كان باتريك ميلتشر».

«لا أعرف، ما الذي حلّ في بي في تلك اللحظة، ربما كان الشيطان، ولكن إذا كان الشيطان، فقد دفعت ثمن هذا التحالف. أنا كذبت، بأنّ أوراق الشتلات قد ذبلت. ولعلمي بأن أخي معجب بالمجتمع الراقي، فقد حدثته قصة جريئة عن أرستقراطي فرنسي متزوّج. حبي الكبير كاد أن يجعلني حبلى، مع ذلك، نادراً ما تأتي الارستقراطية وحدها، عائلته الكاثوليكية الصارمة ما كانت لتوافق على طلاق زوجته إطلاقاً. أنا كنت أعرف فعلاً شخصاً كان نموذجياً بالنسبة لي. بالقرب من فونتانبلو *Fontainebleau* [2] قمنا بترميم حدائق إحدى العزب الضخمة. المالك وقع في غرامي قليلاً، ثم دعاني بعد انتهاء العمل إلى كأس من الشيري وسألني عما أطمح لتحقيقه في حياتي. في وقت لاحق، وبعد أن عدت من انكلترا، حصلت من خلال هذا التعارف على أوّل عرض عمل كبير، ومنذ ذلك الحين لم يعد الأمر يمثل هذه الصعوبة. المهم في الأمر أنه كان، على أية حال، شخصاً مثالياً. أنا تشبثت بهذا، لكي أحافظ على وجهتي في كذبتي. استمتعت قليلاً بهذا، كون أنّ حالتي المزرية أمّنت لي شعوراً بالاستقلالية. فجأة فُتِحَت لأخي آفاق جديدة. هذا الريفي اكتشف البحر لنفسه، على أية حال بدا الأمر وكأن موريس، الذي يسمى نفسه الآن ألفرد، أراد تعلم السباحة. وبدلاً من وحوش البحر رأى فجأة الدلافين وهي تلعب بمرح. في الواقع جاء بسبب الميراث. الدجاجة

---

(1) وجبة تشبه المهلبية منتشرة في فرنسا وإسبانيا والبرتغال.

(2) مدينة بالقرب من باريس.

ماتت دون أن تكتب أيّة وصية، وأيضاً لم يكن هناك الكثير، فقط البيت في شارع فاسانن شتراسه، ولم يكن يريد بيع هذا البيت المُظلم. كان عليه أن يفعل هذا في ذلك الوقت، لو أصررت على أن يدفع لي ما أستحقه. مسألة برلنسامت سارت بشكل جيد جيداً، لكنها ما زالت عالقة في مهدها، كانت براءة الاختراع قد سجّلت للتو، والشركة والاسم تمّ شراؤهما مؤخراً. لم يكن باستطاعته أن يدفع لي حصتي من الميراث، تماماً مثل عدم مقدرتي على دفع تكاليف الإجهاض قبل بضعة أشهر. لكن الآن، لم نتحدّث عن الماضي ولا عن الحاضر، تحدثنا عن المستقبل: عن الجنين في بطني، لقد طلب مني الطفل. قال بأنه يود أخذه، ومنحه اسمه. لن يكون غير شرعي، وسيحصل على تعليم جيد، وسيكون له مستقبل مشرق، وسيرثه في نهاية المطاف. وسأكون أنا حرة. أنا متأكدة من أنه لم يكن ليرغب في أخذ الطفل، لو كان والده محتالاً صغيراً. أخي كان وصولياً وجباناً إلى أبعد ما يمكن، إنها الصدفة التي مكنته من الوصول إلى ما هو عليه. مرّة واحدة في حياته فكّر وسجّل المعادلة الصحيحة. كان، كالكثيرين في ألمانيا في أعوام الخمسينات، في الوقت المناسب في المكان المناسب.

موريس ذهب إلى أبعد من ذلك، لقد طلب مني أن أذهب إلى منتجع على البحر للاسترخاء، والعودة إلى برلين عند الولادة، وسيتكفّل هو بكل شيء. مراراً وتكراراً، كان عليّ أن أسحبه إلى الطريق لأنّه داس ثانية على غرسة، كان لحذائه نعل كرب، ولا أعرف ما إذا كان مثل هذه الأحذية ما يزال موجوداً حتى يومنا هذا في ألمانيا، كنا نسميها في ذلك الوقت *البراز الألماني الرخيص*. لقد بدا في ذلك الوقت مثل كارلشن مولر القروي. هذه الأناقة الريفية النبيلة حصل عليها في وقت

لاحق. قلت له، إنّني أود التفكير في الأمر، فأنا سعيدة جداً بالطفل، واقترحت عليه أن نلتقي في اليوم التالي في المدينة لتناول الطعام. لم يكن يعرف أين أسكن، ولا يعرف باريس كثيراً، فدائماً كنت أعطي عنوان ورقم هاتف المشتل فقط. لقد وافق على كل ما أردته، واجتمعنا نحن في الحي الخامس عند *Lipp*. في ذلك الوقت، كان ذلك مكلفاً جداً. ولكن كنت مستمتعة باستغلاله. وعلاوة على ذلك كنت دائماً جائعة، فمنذ بداية الحمل لم يعد الخبز والشيكولاته الرخيصة تكفيني. فقد كنت أحب تناول اللحوم يومياً وفي قصر شاتوبرياند. ثم وافقت بعد أن تركته يتكلم ويتلوى قليلاً. حيث أخبرته بأنني على استعداد لترك الطفل له ولميريام. أما الشروط فيجب عليّ أن أفكر فيها لاحقاً. بالطبع، لم يثق بي، وكان يفضل أن يكون كلّ شيء خطياً، وأن يحتجزني حتى الولادة. ولكن لم يكن لهذه المساومة أي أرضية قانونية. لذا كان لا بدّ عليه أن ينتظر حتى يحصل على غنيمته. لقد أصبحت حياتي أسهل كثيراً في هذا الوقت، واستمتعت في بعض الأيام حتى بالحمل. ففي بعض الأحيان كنت أذهب وحيدة إلى الحي الخامس، وأتناول الطعام عند ليب، ثم أنظر بعد ذلك إلى واجهات المتاجر الفاخرة، وتصرفت كما لو أنني واحدة من تلك الزوجات الثريات اللواتي ينتظرهن الشاي في الصالون، بعد تناول طعام الغداء خارج المنزل. ثم وأخيراً وُلِد الطفل، كان صبياً».

«دافيد».

لم تُومئْ برأسها، لم تؤكد أياً من اعتراضاتي البليغة، كما لو أنها كانت شيئاً منزلاً، أو وثائق إثبات.

«بدا نصف مجنون من الفرح، ورتب كل شيء بشكل مثالي. أما ميريام

فكانت منذ أسابيع عند أصدقائها في الولايات المتحدة، حيث كان على الجيران في شارع فازانن شتراسه أن يظنوا أن الطفل منها، وموريس، الذي صار يدعى منذ فترة طويلة بألفرد، كان قد رتب كل شيء، شقة أخرى، قابلة، لم تذكر اسمها كما أنها لم تعرف اسمي، ممرضة أطفال ذات خبرة طويلة، تولّت العناية بالطفل. وبهذا استطعت الذهاب. لقد كنت حرّة، ثم عدت إلى باريس. لكّني لم أحسب حساباً لشيء واحد: لم أكن وحيدة بعدها، فالطفل الذي لم أعرف حتى اسمه، كان دائم الحضور. إنه الجحيم. لقد افتقدت ما كنت أحسب أنه الوحش، قلقتُ، عانيت، سألت نفسي عمّا إذا كانت ميريام، التي كانت دائمة الشكوى، ستعتدي على طفلي. باختصار، كنت مشتاقة إليه».

رأيت كيف نزلت دموعها. لم تكن رخيصة لكي تعد تمثيلاً، ولأجل من عليها أن تمثل؟ إنها ما تزال قلقة على دافيد، وتشعر بالذنب. هذا هو السبب الوحيد، الذي جعلها تجلس معي هنا، ولهذا السبب كانت قد أعطتني الرسائل.

«كنت أريد أن استرد طفلي. ربما كان عليّ اختطافه لكي أستعيده، والدخول في قضية طويلة لكي أبرهن أنه ابني. في ذلك الوقت لم يكن أحد يعرف بكل هذه التحاليل، كان المرء بحاجة لأكثر من شعرة واحدة.... كنت أعلم أيضاً أنني لن أستطيع الوصول إلى ما كنت أريده مع دافيد. وبالنسبة له فقد كان من الممكن أن تكون طفولته أكثر من كونها مليئة بالحرمان، فلديه عند أخي كلّ ما هو بحاجة إليه، هكذا اعتقدت، لذا وضعت يدي في جيبي ولم افتحها إلا لزرع النباتات وتناول المجرفة. ولم يمض وقت طويل حتى نجحت بعدها بالاختبار، وحصلت على منحة دراسية لهندسة الحدائق المعمارية أخذتني إلى

إنكلترا، وعندما عدت واشتغلت بالأعمال الحرّة، كانت هذه المسألة قد حصلت. لقد قلّلت من تقدير خطورة ميلتشر. بالنسبة له كان الأمر واضحاً بأنني كنت فقيرة وليس لديّ المال، ولكنه كان يعرف أيضاً بأنني لم أكن جرذاً مثله. علاوة على ذلك، فقد كان يتمتع بحاسة شم هائلة. لقد رأى فيّ وفي الأمر الذي بدأه، نوعاً من التأمين على الحياة، فراقبني وكلف آخرين لمراقبتي. الحي كله عبارة عن لبّاده. إذا تحرك أحد الألياف، فإن النسيج كلّه ينحرف، وطالما كنت أعيش هنا، فكنت أنتمي إلى هذا المستنقع، سواء أردت ذلك أم لا. ميلتشر اكتشف أن أحداً ما قد أخذ طفلي، فقام بتعقب الأثر، حتى وصل إلى برلين. بالطبع لم يكن ألفرد يرغب بالفضيحة. وكان حريصاً على ألا تعلم ميريام شيئاً عن الابتزاز. أعتقد أنّه قد دفع. لكني لست متأكدة. لقد اتصل بي، في البداية واتهمني، بأنني أنا شخصياً أقف وراء ذلك. وكما ترى، نحن لم نكن حقاً نحب بعضنا، ولا أعرف كم دفع ولا عدد المرات التي دفع فيها، كما أنني لا أعرف أيضاً إلى أي مدى ذهب ميلتشر في مطالبه. لم أتدخل في الأمر مطلقاً. لربما وجدت في سلوك ميلتشر عقوبة عادلة لأن أخي استغل محنتي. لربّما كنت مسرورة ضمنياً لأنّ ميلتشر ابتز أخي. وعندما كان دافيد في العاشرة أو الثانية عشرة من العمر، قُتل ميلتشر في إحدى المشاجرات. كان أحدهم قد سحب سكيناً وطعنه بها، وهذا ليس بالأمر النادر في هذه المنطقة. فيما بعد لم يكن هناك أحد. الشرطة ترتشي وبالأحرى تفضل أن تغض الطرف بدلاً من إزالة هذا المستنقع. لقد عرفت ذلك بالصدفة، عندما أتيت إلى هنا لتناول الطعام، وهذا ما أفعله بين الحين والآخر. أعتقد أنّ أحداً لم يذرف دمعة واحدة حزناً عليه، وعلاوة على ذلك فإنّ الحي مليء بأمثاله».

إدفيجه توقفت عن الكلام وسحبت سيجارة أخرى من العلبة، والتعب بادياً عليها.

«لم أكن أنوي» انقطعت عن الكلام ونظرت إلى فتحة التبغ، ثم أدارت السيجارة وحدّقت بالمرشح. «لم أدخن من قبل سجائر مع مرشح، فأنا أجد هذا مثيراً للاشمئزاز، خاصة عندما يرى المرء كيف يتجمع المرق البنّي في المرشح الذي كان أبيض من قبل».

وضعت السيجارة في الزاوية اليمنى لشفتيها، إنه أمر غير لائق، وكأنّها عادت إلى ذلك الزمن الذي كانت تدعى فيه أيام السبت إلى فلو، ثم أخذت السيجارة ثانية من فمها.

«أنت أمريكي، هل يبعث هذا على الارتياح، كما يقال؟ هل هناك من فارق؟ هل تعلم، أنا أتخيل أحياناً، أوه، لا داعي لذلك. دافيد نما ببساطة في ألمانيا، بقية العالم لا تشكل أيضاً أيّ فارقٍ.» نظرت إلى الأعلى ومباشرة إلى وجهي. «ولا يهمّ، إلى أي مكان يذهب الإنسان، الجينات تبقى، أليس كذلك؟ لا يستطيع المرء الهروب من جيناته».

«ولكن لماذا أطلق أخوك النار على زوجته وبعد ذلك وجه البندقية نحوه هو؟».

«أخي أطلق النار على زوجته؟».

صوتها بدا وكأنّه ينزلق ثانية إلى ذلك الذهول الذي انتابها عندما بدأت حديثها. للحظةٍ خشيت بأنّ قواها لا تكفي لكي تحلّ الاضطرابات الأخيرة المتبقية. بدأت بشكلٍ بطيءٍ وبجهد كبير بالخروج من الماضي، وكأنها ساحرٌ يجهد نفسه للخروج من المناطق الباطنية إلى الواقع.

«أخي لم يطلق النار على زوجته».

أخذت نفساً عميقاً، ووضعت السيجارة ثانية في زاوية فمها

وأشعلتها. نفخت أول سحابة من الدخان بصورة مسموعة، ونادت النادل، ثم بدت وكأنها تجْمعُ اللحظة وراء الأخرى، لكي تصل اللحظات الزمنية ببعضها البعض، فقد كان واضحاً أنه لم يسبق لها أبداً أن وصلت كلّ هذه التفاصيل لتصبح قصّة كاملة.

«دافيد لم يكن بكامل عقله، وليس لديه أيّ صلة بالواقع، أنا أعني، أنّه يختلق حقيقته الخاصة به. أعتقد أن هذه كانت الإمكانية الوحيدة له لكي يتجاوز هذه الطفولة بسلام».

نظرتها أصبحت ضبابية، وأفكارها تضاربت مع بعضها. كل لحظة كان من الممكن أن تكون النهاية.

«إنه اليوم يحتقر بشكل كامل الناس الذين ربّوه، الأمر الذي، والله اعلم، لم يكن دوماً هكذا، فأحياناً أعتقد أنه لا يدرك التناقضات في مواقفه. في ذلك الوقت بدأ الأمر في المدرسة الداخلية، عندما صبّ أحد المعلمين جام غضبه على أحد زملائه في المدرسة، كان جدُّه ذا مرتبة عالية عند النازيين. دافيد شغل نفسه بهذه القضية، أصبحت رؤيته المستقبلية، وكذلك سبباً للموقف البارد جداً والكئيب الذي واجهه أخي به يومياً. كتمان الهوية الحقيقية للأسرة كان له جذورٌ درامية مقبولة. إضافة لذلك كان الاسم المتغيّر، الذي كان له أسباب عادية جداً، ملائماً، فأخي كان يريد حقاً أن يحافظ خلفٌ له على سلالة شركة برلنسامت، وذلك لأسباب تجارية محضة. شركة عائلية، تقليد، سلالة، تخيلات جنون العظمة لأحد البورجوازيين، هل تفهم؟ كان يعد ذلك أمراً نبيلاً، أراد أن يكون شيئاً مثل روتشيلد، لذا اشترى لنفسه أيضاً شعاراً. أعتقد أنّ «لغز العائلة» هذا قد ساعد دافيد على تحمّل الرفض المتواصل، والسلوك المحرج لهذا الزوج. ربما يكمن في كتمان جيل

ألماني معين، السبب لأساطير الجيل القادم، وهذا ما يُدْعى التغلّب على الماضي. لكن قد يكون من الشجاعة، فعل شيءٍ ما. أيّ شيءٍ. على الأقل فإن هذا يجلب طاقة إبداعية نوعاً ما».

نظرت إلي نظرة غريبة. على ما يبدو لم يعد يهمها من ذا الذي يجلس أمامها.

«دافيد كان في عيونهما استثماراً خاسراً، موريس جعله يحس بذلك. في ذلك الوقت كان دافيد لا يريد أن يكون الطفل، ولا بأي شكل من الأشكال، لهذين الأبوين. كان يتصرف وكأنه قرادة. لقد حاولوا إخراج جسده من الأسرة، لكن رأسه كان عالقاً بشكل عميق جداً. لم يكن يعلم ما الذي يريدونه منه، حاول أن يفهم كيف يمكن أن يعجبهم وفشل حتى في كل عملية ما تطلبت منه جهوداً كبيرة. وبعد كل فشلٍ توصل إلى استنتاجات خاطئة، اعتقد أنّ ما فعله لم يكن كافياً، وبحث عن أشياء جديدة، تمكنه من الحصول على اعترافهم. ففي أحد فصول الشتاء، كان يومها في مدرسة داخلية بالقرب من زيورخ، نظّم حملة لجمع التبرعات لأسر أحد حوادث الانهيار الجليدي. موريس كان مشمئزاً لأن صورة ابنه قد عرضت في الصحيفة. بعدها أصبح من نشطاء حماية الحيوان المسلحين، ونظّم الحملات التي تشهّر بالنساء اللواتي يرتدين أزياء الفرو. كان يجول في زيورخ، وبحوزته علبة لرش اللون الأحمر وكسّر زجاج محلات بيع السجائر. ومرة أخرى كانت صورته بارزة بشكل كبير في الصحيفة. موريس فقد صوابه تقريباً. طيلة الوقت كان دافيد يقدم امتحانات جيدة، يخطّط ويرسم كالمهووس، موهوب ومخترع، وكأنّ البؤس في المنزل كان الحافز له. وأخيراً أوحت له زلّة هذا المعلم مع زميله في الصف بتلك الفكرة الجوهرية، كان قد وجد

الحل، قبل التخرج من الثانوية العامة بفترة قصيرة. لقد تشبّث بصلابة بالوهم، على أنّه ينتمي إلى عائلة مهمّة ومحتقرة في الحقبة النازية كانت متميزة بالخلافات والأسرار ونكران الذات. ومثل وحش فرنكنشاتين، اعترض هذا المخلوق المصطنع على خالقه. فكّرت أكثر من مرة فيما إذا كان عليّ أن أخبره بكّل شيءٍ. كان باستطاعتي فعل ذلك، وأيضاً من الناحية المالية، ولكنني خفت أن أجعل من خلال ذلك كل شيءٍ أسوأ مما هو عليه. كنت خائفة من أن يكرهني، فمجرد التفكير بأنه لن يصدقني، كان لا يطاق! لقد كان على علم بأنني لا أحبُّ أخي، ولكنه كان أيضاً يعاني الكثير من ألفرد، وأيضاً من ميريام، إلا أنه كان يمتدحهما في العلن. لقد كانا الوالدين اللذين يقدسهما، لم يكن لديه غيرهما، وكان يكن الاحترام حتى لميريام وتصرّف وكأنه يحبها. لم أعرف ماذا كنت سأفعل، لو أنّه شتمني ووصفني بأنني كاذبة. دافيد مهووسٌ بلفت الانتباه له، أكثر بكثير من أخي وبطريقة مختلفة تماماً، بطريقة جذابة، بخيال واسع، ولكن أكثر يأساً. إنه يقرع الباب باستمرار، وعندما يفتح له المرء، يقتحم اقتحاماً، وإذا أغلق الباب في وجهه، فإنه يأتي عبر النافذة، وإذا لم يأتِ عبر النافذة فإنه يضغط أنفه على زجاجة النافذة. موريس وميريام كانا غبيَّين جداً، فلم يعيا كيفية تحويل هذه الطاقة الهائلة، بالشكل الذي يجب القيام به في أغلب الأحيان مع الأطفال الأذكياء جداً».

نبرة صوتها تنم عن تحدٍ، كأنّها تطلب إدانة ألفرد وميريام، ولكنها في الحقيقة كانت تقصد نفسها.

«ماذا عن المجموعة الفنية؟ إذا لم يكن هناك جدّ، أمر بنهبها من مجموعات فنية فرنسية خاصة، ثمّ من أين أتت هذه الصور؟ على الجهة الخلفية أرقام الجرد المسجلة من النازيين. ماذا يعني ذلك؟».

نظرت إلي بعجز.

«أنا لا أعرف ذلك حقاً، ربّما اشتراها أخي بناءً على نصيحة دافيد. إنه مطّلع على الأمور، ولديه إحساس كثير بهذا، وخلال فترة سكنه في المدرسة الداخلية السويسرية سافر كثيراً إلى زيورخ وتسوج وبرن، وحتى عندما كان صبياً، كان يتفرج على المعروضات في المتاحف، وعندما أصبح كبيراً سافر إلى وينترتور وبال. أنا أعتقد أنّ هذا الشغف قد واساه. في صباه رسم لوحات رائعة، وقد أرسلت له الألوان الزيتية وفراشي الرسم وحامل اللوحات، وتمنّيت أن يفتح له ذلك مجالاً للاستقرار الذاتي، مغزى الحياة، لكنه توقّف بعد ذلك ثانية».

«إنّه لمن المستحيل أن يكون أخوك قد اشترى كل هذه الصور بعد الحرب. لم يكن بمستطاع أحد في ذلك الوقت شراء لوحات كثيرة وبهذه الجودة بشكل قانوني، إلا إذا كان المشتري يدعى ديوك أو جيتي أو تايسن. نحن نتحدث عن مبالغ سداسية وحتى سباعية الأرقام للوحة واحدة!

«لماذا لا تسأل دافيد نفسه؟ أنا أعد هذه المجموعة اللعينة كأصغر المشاكل».

لسانها أصبح ثقيلاً، الكلمات بدت غير واضحة، واصلت التكرار. كانت لا تريد أن تصدق، ما الذي حدث منذ عهد بعيد.

«من غير المعقول أنّ أخي كان قد قلّل من شأن دافيد بهذا الشكل، فقد كان يعده ضعيفاً، وذلك فقط لأنه لم يطابق مكانته المتوسطة».

وأنت وضعتيه في ذراعيكِ، هذا ما فكرت به، لكنني لم أقل ذلك. كان هناك سؤال مفتوح آخر.

«من أطلق النار على ميريام– هل هو ألفرد برلنسامت؟».

ضحكت وكأنها أصبحت مجنونة.

«أنت مدهش في عنادك».

بعدها لانت ملامحها، لقد رأيت حقيقة عمرها، فالدخان والهواء السيئ في المطعم هاجما مكياجها، ودمّرا تلك النضارة الريفية. هذه الهالة من الهواء النورماندي، البحر والأمواج المتصاعدة، كلها أفِلتْ.

«أنت على حق»، وحتى صوتها بدا ضعيفاً. «أنت على حق تماماً، أيها السيد الدكتور ساوندرز، إذا كنت تتوقع أنني أعرف أكثر مما أقوله لك. أنا أعرف أكثر من ذلك، وأنا تحمّلت مخاوف جهنمية خشية أن يتوصل أحد إلى ذلك. سأعطيك مثالاً: إنك تعرف بالطبع ما الذي فعله الكثير من النازيين، إذا ما توفرت لهم الفرصة والوسيلة. صفّوا أنفسهم وعائلاتهم. هذا يدل على الإحساس العائلي، أليس كذلك؟ فكرة العشيرة تقول، بأن العائلة ليس بإمكانها أن تهب الحياة فقط وإنما أيضاً أن تقدم الموت. هذا أصبح اليوم نادراً جداً، ألا ترى ذلك أيضاً؟».

رأيت بأنها تعاني ثانية من العذاب الجهنمي. كانت تخشى، ومن خلال الضجيج الإعلامي الذي تمكن دافيد من ترتيبه، أن يظهر للعيان ما كانت تخفيه عني، وبسكين غير مستخدمة رسمت شيئاً ما لم أستطع التعرف عليه على غطاء الطاولة.

«موريس أحَبّ ميريام، أحَبّها حقاً، ومن المؤكد أن وفاتها كان أمراً لا يطاق بالنسبة له، لقد اتضح له بالتأكيد، أن هذا كان عقاب القدر. وقد تقبل ذلك».

فسألتني وقد بدأ الناس يغادرون المطعم.

«من الذي أخبرك عن باتريك ميلتشر؟».

قلت لها إنّ هذه المعلومات اشتقّتْ من ملف أخيها. ألفرد برلنسامت

وصّى أن أهتم أنا شخصياً بالإيعاز بحرق الأوراق مع جثته، فأومأت برأسها فقط.

«لقد اتخذت قراراً ضد هذا. هل ترغبين بالحصول على الوثائق؟».

«لتختنق بها».

وقفت وغادرت الحانة، من دون أن تلتفت إلى الوراء، فلوّحت إلى النادل وطلبتُ الحساب، لكن كان كل شيءٍ مدفوعاً، ولم يكن بإمكاني حتى أن أشكرها على الطعام. وعندما خرجت من المطعم، كان هناك من ينتظرني، إنه ذلك الرجل الذي كنت قد سألته في بداية المساء عن ميلتشر كان يتسكع أمام المخرج. لقد استفسر عن الأمر وقال: ميلتشر ينتظرني، بإمكانه أن يأخذني إليه. فتّشت في جيبي، وأخذت ثلاثة يوروات في يدي وأعطيتها له. الماضي كان قريباً جداً، قريبٌ من هنا، الآن، بالطبع. والكل كان مستعداً للركوب من جديد.

السابع والعشرون

هطلت الأمطار بغزارة في هذه الليلة، فأخذت سيارة أجرة عائداً إلى الفندق.كانت حبات المطر الضخمة تصفق بكثافة زجاج نوافذ السيارة، والمسَّاحات كانت تتحرك بهستيرية على الزجاج الأمامي، من اليسار إلى اليمين إلى اليسار، دائمة الإزعاج، سرعتها تتزايد باضطراد. ذكرت العنوان للسائق، فهز رأسه دون أن يحاول أن يبدأ حديثاً معي. انصب تركيزه على الشارع اللامع. لا موسيقى تسمع من الوراء، فقط هذه الأمطار الغزيرة... في الفندق تسللت فوراً إلى فراشي، فهوسي المغامر لا يكفي لأخذ حمّام ساخن. شعرت بالخوف من العودة إلى برلين، الحيرة المبهرة عن المجموعة الفنية التي تشغل تفكيري، وما أعرفه عن أصل دافيد، وهاجس منى الجديد.

حفلة عيد الميلاد، نشكركم، أيها السيدات والسادة، لوفائكم لنا، هذه الجملة المعتادة بقيت معلقة في الهواء. ضحك كثير، كلمات ودية معطرة بالقرفة، رائحة شجر التنوب السرو، نبيذ مسخن. وبطبيعة الحال دافيد شخصياً، برلنسامت بين المجوهرات وزينة أشجار عيد الميلاد، وفي تلك اللحظة، التي غلب علي النعاس فيها، دارت مرة أخرى في رأسي فكرة ماذا لو اتصل بروزي وأحدّثُها عن كل شيء، أن أسألها عن وسيلة للخروج من هذا المأزق، ولكنني لم أفعل ذلك بتاتاً.

في صباح اليوم التالي، وبعد أن دفعت الحساب، تناولت طعام الإفطار بمقهى في شارع دي بوسي، فهنا يوجد أفضل كروسانت[1] في المدينة. مررت على بعض المعارض الفنية في شارع نهر السين بشكل

(1) نوع من المعجنات الرقيقة المحشوة بالشكولاتة تشتهر بها فرنسا.

عابر. شمس شتوية كانت تقف في سماء المدينة عندما شربت في ساحة سنت جرمان آخر قهوة، قبل أن آخذ سيارة أجرة متوجهاً إلى مطار شارل ديغول.

في برلين، استقبلتني شوارع تكسوها الثلوج، وكنت قد قررت الذهاب إلى المكتب في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، لكي ألتقي منى في أسرع وقت ممكن. وأثناء سفري في سيارة الأجرة من مطار تيجيل ببرلين إلى حي شارلوتنبورغ[1]، فكرت بالاحتمالات المتعددة الممكنة، لكيفية لقائي بها. فيما بعد تبين أن كل هذه الأفكار كانت زائدة عن الحاجة. فمنى لم تكن موجودة هناك. وهنرييتا كانت تجلس في مقعدها.

«آه، ها أنت قد عدت. أتفقد الآن رسائل منى الإلكترونية، إنها مريضة. أخيراً وقعت فريسة للمرض، بعد أن قاومته ببسالة لفترة طويلة».

«قاومته ببسالة؟».

«نعم، ضد الأنفلونزا. لم تصب بها في هذا العام بعد».

«ماذا عن مدينة الملاهي؟».

«عيد الميلاد؟ أجل، لقد رتبنا للاستقبال بصورة جيدة، ليوم الأربعاء في الأسبوع القادم، ربما سيكون البعض في إجازة، وهذا أفضل، فليس لدينا الكثير من الأماكن».

«ألا يوجد مدينة ملاهٍ أخرى؟».

ألقيت نظرة سريعة على الرسائل التي وصلتني، فتحت الرسائل الإلكترونية، لا شيء مهم فيها، لا شيء لا يمكن تأجيله ليوم غد.

---

(1) من أحياء برلين.

«وماذا سوى ذلك؟ نعم، اللعنة، هذه أل «إيفلين». عذراً، ولكن هذه هي الحقيقة. لقد فشلت معي، والآن تحاول ذلك مع منى. سوف... هل ستذهب مجدداً؟»غادرت عائداً. كان بإمكان المرء، ترك الشركة لهنريتا بارتياح. في هذه اللحظة لم أكن قادراً على تحمل ثرثرتها الفارغة ولا عطرها، ولا حتى ألوانها.

بدت لي الشركة دون منى غريبة، هنا تأكدت، أنني أفتقدها، لم أعرف لماذا شعرت بذلك، هل كنت مغرماً بها؟ بالطبع لا. أنا لم أعشق البتة في حياتي، وعلى الأقل ليس بإنسان. لكنني كنت قلقاً عليها، وأشعر بالقلق إزاء الوضع برمته، الحيرة بشأن دافيد، وكون أنه هو الذي تسبب في تعكير الأجواء الطيبة التي كانت سائدة في الشركة. في وقت متأخر من بعد الظهر، اتصلت بمنى، فرفعت السماعة، بعد أن كنت قد قلت بضع كلمات على جهاز تسجيل المكالمات، وردت دون ذكر اسمها، فقط بكلمة «هالو».

«لقد عدت للتو من باريس. ذهبت خصيصاً إلى الشركة لكي أتحدث معك. قالت هنرييتا، إنكِ مريضة ».

لم ترد.

«كنت عند عمة دافيد، وقبل ذلك شاهدت في التلفاز شيئاً حول مجموعة دافيد الفنية».

بعد أن سعلت، لاحظت أن الأنفلونزا لم تكن سبب بقائها في البيت. سألتها، إذا كان بإمكاني أن أقدم لها أي خدمة، لم تجب. تابعت كلامي، وحدثتها عن زرقة السماء وعن باريس، عن ولعي بسهل المريخ وبرج إيفل، وتحدث حول سعة الأفق والأوهام المظلمة، عن تصرفات برلنسامت الغريبة التي أحس بها. أخفيت عنها أنني أفتقد دافيد، كما

أخفيت عنها أنني افتقدتها، وأنه لم يخطر ببالي، أن الوضع المتأزم قد حل. رجوتها، أن تقول أي شيء، لكن لم يكن هناك أي رد فعل، لقد انقطع الخط.

كان الظلام قد حل، عندما قرعت جرس بيت منى محملاً بأكياس مثل شخص يحتاط تحسباً لوقوع كارثة. عبثاً حاولت عدة مرات، لكي أجعلها ترد على الهاتف، لذلك تركت لها رسالة على الجهاز، قلت فيها، إنني سأكون عندها في حوالي الساعة الثامنة.

عندما فتحت لي الباب، تراجعت خطوة إلى الوراء. بدت في حالة يرثى لها. عيناها الخضراوان اختفتا خلف أجفانها الحمراء المتورمة، وفتحتا الأنف كبيرتان مجرحتان. ملفوفة بمعطف حمّام رجالي مخطط قديم، جوارب سميكة في القدمين، حدَّقت بي كإنسان هش، وكأن رؤيا ظهرت أمامها. وقفت لبضع ثوان أمام الباب، شعرها المجعد على رأسها غير ممشط، وكأن أسلاك الربط مع الحقيقة قد خرجت من معاقلها. ثم استدارت عائدة إلى سريرها محنية الرأس وبذراعين معلقين.

في الطرف الآخر من الصالة، وعلى طاولة المطبخ، وضعت الأغراض التي أحضرتها معي، وأثناء ذلك تحدثتُ بأشياء سخيفة مثل التي تحدثت بها على الهاتف. وضعت لها بعض الرسائل الإلكترونية المطبوعة على السرير، وألقيت بعض التوضيحات ذات العلاقة وطمأنتها عن عدم وجود أمور ضرورية. كنت أريد العودة إلى المطبخ لطهي شيء لنا للأكل، عندما سمعت طرقاً على باب الشرفة، عدة مرات. بدت مرتبكة، في البداية كانت حذرة، ثم تعالت بإيقاع سريع. عندما فتحت الباب، كانت الحمامتان تقفان أمامه. طارتا إلى داخل الصالة، بدأتا بالهديل والمشي في أنحاء الصالة، متسختين يعلوهما الجرب. كانت رائحتهما

نتنة، ذكرتني ببغاء صديق من أيام المدرسة، نتف ريشه في حالة تشويه ذاتي. الرعاش الذي أصيب به وهو يقاوم الموت، أثر بي، إلى الحد الذي قادني إلى قطع كافة علاقاتي مع صديقي، وعندما رأيت الطيور الآن، جاءتني نفس حالة الارتباك التي مستني في ذلك الوقت. كيف كان ممكناً، أن تمسنا الأحداث التي وقعت لعائلة برلنسامت وحولها بهذه الكثافة، إلى درجة أن تؤثر في مشاعرنا الخاصة؟

«هل مسموح لها أن تدخل؟».

طيور النورس الصينية طارت في سماء المطبخ. هجمت حمامة على الخضار، والأخرى سبحت في المجلى، الذي كنت قد ملأته بالماء لغسل السلطة.

«منى، إنهم لا يتحدثون معي».

أعطيتهما بعض أوراق الخس وبعض الخبز، وطردتهما إلى الشرفة التي كانت مغطاة بروث الحمام وأوعية طعامهما كانت فارغة.

«منى، إنهما جائعتان. ماذا تأكلان؟».

منى حدقت في الحمامتين اللتين كانتا تهدلان، دون نظرة معينة، ربما مملة وطفولية جداً.

«منى هل تسمعينني؟ عليّ أن أطعم هذه الحيوانات، أم تريدين لها أن تموت جوعاً، ماذا علي أن أفعل لها؟ أن أقطع رؤوسها وألقيها في المقلى؟».

الجواب الوحيد الذي تلقيته كان دموعاً غزيرة. ذرفت منى الدموع من زوايا عينيها وسالت ببطء على وجنتيها إلى الأسفل، كان علي أن أفكر في خرافة ألمانية، لم أتمكن من تذكر اسمها. أميرة باكية تذرف الدموع حبات من اللؤلؤ، كانت تَعلَقُ في حجر ثوبها. لا شيء

يمكن أن يعزي تلك الفتاة النبيلة، لدرجة أن جبلاً خافت الوميض تكوّن في حجرها، وأخيراً أنقذ والدها بها مملكته من الديون. ليست لدي فكرة، عما تعنيه هذه القصة، فلم أكن أرى في الحزن والدموع شيئاً صالحاً. ركضت باحثاً عن عزاء، عن نكتة سخيفة، عن كتاب حول تربية الحمام، عن غذاء الطيور، وعن صدى بداخلي، ثم تخليت عن ذلك. كنت قد ارتديت المعطف، عندما رن الهاتف، أدارت منى رأسها ببطء نحو الجهاز. بعد الإشارة تردد صدى صوت برلنسامت في الصالة:

«يا مدام، أردت أن أطمئن على صحتك، هل ترغبين أن نشرب سوية كوكتيلاً في مكان ما؟ اتصلي بي على الجوال، عندما تستمعين لهذه المكالمة».

قفزت منى من السرير وركضت إلى الحمام وأغلقت الباب خلفها. تمكنت من سماعها وهي تتقيأ، وتمنيت لو أفعل نفس الشيء، فأنا لا أحب دافيد عندما يكون مبتذلاً، فقد كانت فيه هذا الصفة، التي لم أتمكن من تصنيفها، وبطريقة لا يمكن تفسيرها كنت أغضب، عندما ينسى دافيد نفسه، فخلعت المعطف من جديد وفتحت زجاجة النبيذ الأحمر. سمعت كيف كانت منى تملأ حوض الحمام بالماء. سكبت النبيذ وشربت جرعة كبيرة. على الخزانة كانت هناك قطعة من الخبز الجاف، وإلى جانب المجلى تكومت أطباق وأوعية الطبخ الوسخة، وعلى طاولة المطبخ، التي تفصل المطبخ عن بقية الصالة، كانت زهرية بزهور ذابلة، وإلى جانبها كان الإزميل الصغير، الذي كانت منى فخورة به. كانت المياه ما زالت تخر في حوض الحمّام، عندما أفرغت كوب النبيذ جرعة واحدة، وتناولت الإزميل وهويت بجهته الخلفية على الخبز، كان صلباً، لدرجة أنه تكسر إلى أجزاء، واصلت الضرب على

القطع، وعندما تفتت واصلت طحن الفتات. فجأة فتح باب الحمّام، ووقفت منى مبللة تماماً أمامي، ملفوفة بمنشفة لم يكن هناك بديل لها.

«هل فقدتَ صوابك؟».

كانت مستيقظة تماماً، وجنتاها متوهجتان، وكانت رغوة على شعرها، وعيناها تلمعان بخضرة غامقة، كما كانتا في السابق، عندما كانت ما تزال تظن، أن كوربيت لم يرسم سوى صورة واحدة فقط عن البحر.

«يا إلهي! مارتيني، لقد فقدت حقّاً صوابك، أجل أنت تبكي».

«إنها الأعصاب فقط. لقد كنت فعلاً خائفاً عليك».

صبت نبيذاً أحمر في كأسي وشربته. ثم جاءت إلي ومسحت وجهي، وقفت على رؤوس أصابعها، الأمر الذي لم يكن له أي ضرورة، فلا أنا طويل جداً، ولا هي قصيرة، وقبلتني على الأنف. شعرت بدغدغة طفيفة، فسقطت المنشفة، عندها أصبت بالحرج. فجأة كانت منى قد تعافت، إلى الحد الذي استطاعت فيه الضحك. نظفت الأوساخ جانباً، وبدأت بإعداد الطعام، في نفس الوقت الذي بدأت فيه منى بلبس ثيابها وراء الحاجز وبدأت بالثرثرة.

«لم أستطع أن أحدثك شيئاً عن شكي، فقد كنت في حالة يصعب تقديرها، ولم أكن أعرف، ما إذا كنت إلى جانب دافيد أو أنك تشك به. عندما انهار دافيد، ظننت، أنه إذا اعتنيت أنا به، ستكون الفرصة سانحة لي لدخول الشقة، وإلقاء النظر على محتوياتها. الوحيدة التي أزعجتني كانت خادمة المنزل، لم تحبني. كانت تتعقبني باستمرار في كل غرفة أدخلها. اعتقد أنها كانت طوال الوقت، تظن أنني سأسرق شيئاً، إنه نوع من البديهة. أليس كذلك؟».

«خادمة المنزل؟».

«لا، فكرتي حول رعاية دافيد».

«كان هذا هو السبب إذاً؟ لم أكن أظن أنكِ ماهرة في التمثيل. ولماذا قمتِ بتلك المسرحية الأخلاقية؟».

«أنت تستفزني أحياناً للقيام بذلك، فأنت عاطفي جداً، في استقلاليتك، وتحديداً لأنك لا تتأثر بشيء. تبدو وكأنك لا تحب أحداً، لا تكره أحداً، ولست بحاجة إلى أحد. بكل بساطة، أنت تفعل ما تريد».

لم أعرف، ما الذي بدأ يزعجني فجأة، كنت حقاً قلقاً على منى. ولكن ماذا لو كانت الحالة التي وجدتها فيها قبل قليل، ليست سوى مسرحية تكتيكية؟ في تلك الثانية عندما قالت *مارتيني*، *هل فقدت صوابك*؟ أحببت لو أتمكن من إيقاف الزمن. كان علي أن اتجه إلى الساعة التي تتحكم بزمن العالم، كما يفعل هارولد لويد في *الأمن الأخير*، وأن أتعلق بالمؤشر والبقاء هناك، أو أن نسقط سوياً مع الزمن. كان علي أن أضحي بنفسي من أجل هذه اللحظة الواحدة، التي وَلَّدَتْ عندي أثراً من الإدراك شبيهاً بذلك الذي تولَّد عندما رأيت دافيد للمرة الأولى. كانتا لحظتين لا صلة بينهما، انْتُزعتا مني، وكما بدا، دون روابط، لا يمكن توحيدهما وغير قابلتين للتفسير بالنسبة لي، لكنهما سببتا لدي شعوراً مشابهاً: ارتياحاً، دهشة، سعادة.

غير أن هذه اللحظات تبعها إدراك حقيقة، أن زمن منى قد مضى بدوني. وأيضاً زمن دافيد مضى بدوني، تماماً مثل زمن روزي. تضخم غضبي، وللمرة الثانية في ذلك المساء أفقد شهيتي. لم تلاحظ منى شيئاً من كل هذا، وواصلت الثرثرة.

«نسيت تماماً، أن لدي موعداً مع شخص آخر. أنتِ الآن بحالة جيدة. النبيذ موجود هنا، والسلطة جاهزة، ليس عليك إلا وضع شرائح اللحم في المقلى. كما قلت، لا يوجد شيء يستدعي العجلة، والرسائل الالكترونية المطبوعة موضوعة على سريرك».

ما كدت أنهي كلامي، حتى كنت في الخارج. مرة أخرى وفي هذا الرقص الغريب، حيث يتراكم سوء فهم على آخر مخلفاً طعماً مراً ومعروفاً لي منذ القدم على لساني. وعندما وصلت شارع كوبنيك، تنفست الصعداء. الغضب لم يكن قد اختفى تماماً، لكنه أصبح أقل حدة بشكل واضح. لقد شعرت أني قد نجوت، رغم أنني ظننت، أنني لم أكن كذلك. وقبل كل شيء لم يكن علي أن أخشى الإصابة بنزوة غضب وأنا تحت المراقبة.

الثامن والعشرون

فتحت باب الحديقة وخرجت، الليلة كانت رائعة الهدوء. ينبغي دائما أن تظل كذلك، وعندما عدت إلى الغرفة شغَّلت التلفزيون وسحبت فتحة مدخنة الموقد مثلما علمتني مدام أويجين، وأشعلت الموقد. كان ما يزال هناك بعض الأوراق في الكرتونة، لكنها قلَّتْ بشكل ملحوظ. لفترة من الوقت تابعت النظر إلى ألسنة اللهب الضعيفة، الحمراء، التي يغلب اللون الأصفر على أطرافها، كانت تنطلق إلى الأعلى، ثم تخبو بعض الشيء، قبل أن تعود لتعلو من جديد، وأخيراً تتوسع جذورها إلى عمق الجذوع. حركتها أصبحت ذات وتيرة ثابتة، وعندما بدأت بإلقاء ورقة تلو الأخرى إلى النار بدأ الهيكل الملكي في الاشتعال من جديد. بدا وكأن ألسنة اللهب الشرهة تقفز وتتلقف فريستها. صعدت إلى غرفة النوم وأحضرت الوثائق من ملف برلنسامت، وقلت لنفسي عندما أنتهي من حرقها، لن يعلم أحد غيري عن الملابسات، ثم سمعت وأنا أنزل الدرج، صوت مقدم برامج.

«أرحب الآن هنا في الأستوديو بـ دافيد برلنسامت، الذي لا يحتاج مني أن أقدمه مجدداً إلى غالبية المشاهدين. وصل للتو إلى الأستوديو للبرنامج في الوقت المناسب، عائداً من رحله ذات طابع خاص، وهذه المرة من بروكسل. السيد برلنسامت، أنت شخصياً وكحفيد لشخص رفيع المستوى من النخبة النازية، إذا جاز لي استخدام هذا التعبير، متأثر سلباً بهذا الوضع، كما يظهر الفيلم الذي عرض قبل قليل. فأنت وبعد وفاة والدك، تدير شؤون، ما تسميه أنت، تركة تدور حولها الشكوك: مجموعة قيِّمة من القطع الفنية المسروقة. أنت تشعر، أن من واجبك،

أن تعيد هذه القطع الفنية إلى أصحابها السابقين. هذه القطع التي أمر جدك، الذي كان سفيراً لهتلر في باريس، بنهبها، وهذا موقف غير أناني، يا سيد برلنسامت، لا يشاركك إياه الكثير من الورثة».

دافيد جلس واضعا ساقيه فوق بعضهما، مقابل مقدمة البرنامج ذات الفستان الوردي التي بدت واضحة السعادة، وكأنها تمكنت من اصطياد سمكة كبيرة.

هز دافيد رأسه قائلاً: «تماماً، فمعظم أحفاد المجرمين لا يشاركونني موقفي».

«أحفاد المجرمين»، كَررتُ بصوت عال، «أنت مخبول. يا ممثل، جدك لم يكن شيئاً».

«ولننظر الآن إلى بعض القطع من المجموعة الفنية الخاصة بك».

عرضت الصور التي كنت أعرفها. تبع ذلك مشهد من الأستوديو. وبينما كان برلنسامت يفسر، أن من واجبه أن يواجه الذنب الذي اقترفته عائلته، طلبت رقم هاتف إدفيجه. مدبرة المنزل ردت: «إدفيجة موجود في سهرة». عند منى في برلين يرد جهاز تسجيل المكالمات الهاتفية فقط.

«شغلي التلفاز، القناة الثقافية، تبث برنامجاً لمناسبة طارئة، مقابلة مع دافيد».

التاسع والعشرون

بعد ذلك المساء المحرج في منزل منى، لم أكن قادراً على الانتظار أكثر من ذلك لحزم أمتعتي. فكرت في الانتقال إلى لندن أو أمستردام، وحتى تقديم طلب للعمل عند منافسين. فكرت بباريس، لكنني رفضت الفكرة فوراً. بنيويورك، مدينتي، بسبب روزي، لم أفكر أبداً. كما أنني لم أفكر بالاستقالة في الوقت القريب. عندما كنت أعود من المكتب في وقت متأخر من المساء، كنت أخرج لتناول كأس من الشراب فقط، تماماً كما في ذلك الوقت، عندما كنت صديقاً لدافيد. برلين بدت مزعجة لي لعلو أصواتها، أضواؤها بدائية ومتوهجة. عيد الشكر كان قد مرّ، دون أن أتصل بروزي، وأعياد الميلاد كانت على الأبواب.

في يوم السبت التالي، التقيت بخادمة منزل برلنسامت في السوق في ساحة فينترفيلد. توقفت السيدة آرنو ووجهت لي بضع كلمات. كان من غير اللائق أن أتركها وأتابع طريقي، أعربت عن أسفها، لأنني لم أعد أمرّ للزيارة.

«بدونك، هناك شيء مفقود في المنزل. دائماً كان لدي انطباع بأنك تُقَدِّر ما كنت أقدمه لك ولدافيد. منذ غياب السيدة برلنسامت، يبدو كل شيء في غاية الهدوء. لا أعرف، لماذا ما أزال هنا؟ بإمكان أي عاملة تنظيف أخرى أن تمسح البيت».

بدت غير راضية عن هذه الظروف على الرغم من أن دافيد بدأ يستعيد عافيته. بإلهام مفاجئ، دعوتها لتناول القهوة، فظهرت عليها علامات الارتياح، الجو العام في شارع فازانن شتراسه غيَّرها بشكل واضح. وكان مزاج دافيد أحياناً جيداً للغاية، وأحياناً كان يستفيض في

رغبة القيام بمغامرات وفي التأمل. ثم يعود إلى النكد وإطالة التفكير ولم يتناول الطعام لأيام طويلة.

«لم يكن متزناً كما في تلك الأيام، عندما أتيت إلينا يا سيدي الدكتور»، تكلمت السيدة آرنو ذلك بقليل من الحرج. «اعتقد أنها الفترة الوحيدة في حياته، التي كان فيها سعيداً حقاً».

تجرأت على طرح الفكرة التي أتتني، كان لا بد من ذلك.

«ألم يكن سعيداً عندما اعتنت به منى هاربرت؟».

«تقصد السيدة الشابة التي كانت هنا، عندما خرج من المستشفى؟»

السيدة آرنو لم تترك أي مجال للشك، بأن السيدة الشابة لم تتوافق مع ذوقها. فمن خلال كلماتها المبطنة، يتضح أن منى كانت وقحة، ولم تكن ذات تربية حسنة.

«المرأة الشابة لم تُعر العائلة أي احترام. تصرفت في الشقة بتعال».

منى ضحكت ساخرة من القطائف العفنة، حينها ابتَسَمْتُ بشماتة في داخلي، وتخيلت كيف اكتشفت بنظرتها الثاقبة بسرعة، التي تشبه صورة الأشعة، أن غالبية الأغراض الموجودة في الشقة مزيفة.

«تقصدين، أنهما لم يكونا سعيدين في الوقت الذي قضياه معاً؟».

قطبت السيدة آرنو وجهها.

«أرى ذلك من نقطة المراقبة. على أية حال دافيد لم يكن متزناً، كما في الأوقات التي كنت تزورنا بها. حتى ولو أنه قدَّم لي الآنسة على أنها خطيبته».

«ما الذي فعله؟».

«قدمها لي، على أنها خطيبته».

«وهل كان هذه صحيحاً؟ هل كانا خطيبين؟».

«كيف لي أن أعرف ذلك؟ لفترة من الوقت، كانت الشابة تأتي بشكل منتظم، ثم فجأة وبعد خلاف، لملمت أغراضها، وذهبت ولم تعد البتة. لم ترق لي الطبخة من البداية، إذا سألتني، فلم يكن النزاع سوى ذريعة، وإذا تابعت سؤالي، أيها السيد الدكتور: دافيد لم يكن هكذا ببساطة. أمثالي لا يجوز أن يتحدثوا بمثل هذه الأمور، لكن دافيد لم يكن له علاقات مع نساء. وبطبيعة الحال لم تتكلم العائلة حول هذا الموضوع. على أية حال، لقد ذهبت. وحصل ما فيه الكفاية من تغيرات، منذ أصبح دافيد وحيداً دون والديه. في البدء قام بتعليق هذه اللوحات الكثيرة، ثم..».

«علق هو اللوحات؟».

«... ثم أنه كان يزيلها ويعيد تجديد كل شيء. لا أحب التفكير بتاتاً بالحفلة الغريبة والخرافات والمشي في النوم».

«تقصدين الساحرة؟».

«نعم، على وجه الدقة. ثم جاءت هذه المرأة الشابة إلى المنزل، وكانت تحشر أنفها في كل مكان، تجس كل شيء، حتى أنها كانت تشتم اللوحات، وفي إحدى المرات اكتشفتها، وهي تفرك بلعابها لوحة في إحدى الزوايا، أعتقدت أن هذه المرأة ليست بكامل عقلها. الآن أصبح دافيد وحيداً من جديد، لا ينبس بكلمة في غالب الأحيان، ويبدو متوتراً، مراراً وتكراراً ينسحب إلى الريف، ويجب علي إيصال الرسائل الإلكترونية له... كيف لهذه الحالة أن تنتهي؟».

«سيدة آرنو، هل علق دافيد اللوحات بعد أن دخل والده السجن؟ هو الذي علقها؟».

«نعم ، بالتأكيد. لم يكن هنا أي شيء معلق، باستثناء سجاد الحائط الفني، الذي هزأت منه الآنسة. كان معلقاً في السابق في الصالة. دافيد لفه على بعضه ووضعه في الغرفة حيث توجد الآن اللوحات أيضاً. ذلك السجاد الجميل والكبير، الذي يرى المرء مثله في القصور، كما تعرف. أنا أظن، أنه كان بحاجة إلى بيئة مختلفة. لم يعد يرغب في الجلوس في القاعة بتاتاً، بعد أن ذهبوا دون رجعة. هذه المرأة دققت النظر في كل شيء، وأيضاً في الغرفة التي توجد فيها اللوحات. وقد فككت لفائف السجاد عن بعضها، هكذا وبكل بساطة، وكأنها تملك كل شيء. بعد أن ذهبت، انسحب دافيد إلى الريف».

«من أين جاءت كل هذه اللوحات دفعة فجأة؟».

هزت كتفيها ونظرت إلى الساعة، وأرادت أن تذهب، ربما تولد لديها الانطباع، بأنها تخضع للتحقيق.

«في أحد الأيام وصلت على شكل شحنة في شاحنة. أنا لا أفهم شيئاً من ذلك. لقد كنت أعد السجاد الفني أكثر جمالاً، فاخراً إن كنت تفهمني. المرأة الشابة لا تعرف بالتأكيد ما قيمته، فمنظرها لا يوحي في الواقع، وكأنها نشأت مع مثل هذه الأشياء، ثم أخذت أيضاً واحدة من اللوحات معها. لقد ظننت بالتأكيد، أنني لن ألاحظ ذلك. إذا سألتني، يا سيدي الدكتور: فكل ذلك أمور تثير الريبة بالتأكيد».

عند الوداع دعتني لزيارتهم، عندما يعود دافيد. وعدتها بذلك. بدا لي ذلك أنه أفضل الوسائل.

«آه، سيدة آرنو» ركضت خلفها مرة أخرى، «هل تعرفين، أين دافيد؟».

«قال إنه يريد زيارة عمته في باريس، ولكن ربما يكون قد عاد في

هذه الأثناء إلى الريف».

تناسيت شراء الأغراض، وأسرعت في العودة إلى المنزل. كنت أفكر في لقائنا الأول. دافيد وراء البوابة الحديدية، وأنا أمامه، دعوته لي، صورة البحر، لاحظتها على الفور لأنها كانت بارزة في منتصف الجدار. دافيد علقها في هذا المكان، حيث لا بد أن يقع نظري عليها. من ماذا كانت صورة البداية، لو لم توجد البتة مجموعة آبيتس- برلنسامت؟ كان لا بد لي، أن أتحدث مع منى. بدلت ملابسي على وجه السرعة لحفل الاستقبال بمناسبة أعياد الميلاد. وصلت إلى المكتب في وقت مبكر جداً ولم يكن خدمات الطعام قد وصلت بعد، فأخذت بعض القنب الهندي لتمضية الوقت ثم اتصلت بفرعنا في باريس، حيث ستعرض لوحة كوربيت في مزاد أعياد الميلاد، ولأن أحداً لم يرفع سماعة الهاتف، حاولت الاتصال على الهاتف الجوال لشتفاني، إحدى الزميلات.

«على المرء ألا يظن، أنه وفي هذا الزمن الإلكتروني، لا وجود للخطوط الطويلة. البائع من برلين، سحب اللوحة من المزاد. وقد أرسلت رسالة إلكترونية لـ منى حول ذلك. قال، إنه قال لك، بأنه لا يفهم السبب الذي يضطر العائلة لعرض اللوحة في المزاد، إنهم ليسوا بحاجة لبيعها. على أية حال، فهي ليست عندنا، إنها في برلين، ولم يعد لنا أي علاقة بها».

لم أنجح في الحديث مع منى قبل حفل الاستقبال، فقد جاءت هنرييتا قبلها، وكانت كسيمفونية من الأسود والأحمر والذهبي، من بطنها صعوداً إلى الأعلى. في أيام كهذه تبدو وكأنها ليست مديرة المكتب فحسب، وإنما مالكة الشركة.

«مارتيني، من فضلك أن تفعل لي..».

ثم جاءت خدمات الطعام، وبعد فترة قصيرة كان الضيوف يقفون في صالة الاستقبال، وبينما كنت أرحب بالضيوف باسم هنرييتا، تصورت مجموعة من الأفكار، كيف أقنع منى لأن تذهب معي لتناول كأس من الشراب بعد الحفلة. ثم ظهر دافيد، دخل إلى هنا بصورة مكشوفة. وحدها النظارات الشمسية الداكنة في عصرية يوم من أيام كانون أول/ ديسمبر أثارت انتباه الحضور. حيّاني ونحى النظارات الشمسية، ثم ابتسم. لم يلاحظ أحد سواي، أن الابتسامة كانت مصطنعة.

«لم تتصل بي منذ فترة طويلة. هل أنهيت علاقتك بي».

صراحته كانت ذات قدرة على تجريد المرء من أي سلاح للرد، إلى الحد الذي خارت فيه ركبتاي. بدا كما كان بعد فترة وجيزة من وفاة والدته: متماسكاً لقواه بصعوبة. لم أكن متأكداً، فيما إذا كان يلعب دوراً جديداً، أو إذا كان هذا هو شعوره فعلاً. أخذت على نفسي، أن لا أدع لذلك مجالاً للتأثير عليّ.

فقلت له «سآتي إليك في الحال. علي أن أرحب ببعض الضيوف».

رجل عجوز لم أكن أعرفه، ذهب إلى دافيد ودخل معه في حوار. لا شيء من حركات دافيد أظهرت تلك العجرفة التي كنت أكرهها فيه. حركاته كانت رقيقة، فتية إلى حد كبير، وعندما مرت منى بجانبهما وهي تحمل ثلاثاً من كتالوجات المزاد، سقط واحد منها على الأرض. هب دافيد لمساعدتها، رفع الكتاب، ونظر إليها نظرة خجولة بها نوع من الحزن. هذا الكلب اللعين كان فعلاً ممثلاً موهوباً! شكرته على ذلك وتسمرت في مكانها للحظة طويلة نوعاً ما، ثم جالت بنظرها باحثة في أنحاء الغرفة، إلى أن التقت نظراتنا. بدا وكأنها كانت تريد أن تقول شيئاً، ثم ما لبثت أن تراجعت عن رغبتها بحزم. زبونة قديمة جاءت لي،

وقالت:

«المعذرة، دكتور ساوندرز، لقد شاهدت مؤخراً شيئاً في التلفاز، أعني هذا الرجل... أليس هو السيد الذي ورث مجموعة هائلة من الفن المسروق، حفيد...، ما اسمه، سفير هتلر في باريس؟ بشكل ما فإن المرء لم يكن يعرف هذا الرجل جيداً قبل هذه القصة».

«أوتو آبتس».

«نعم، بالضبط، أوتو آبتس. لم أكن أتوقع، أن يكون موجوداً هنا».

«وهو بالفعل ليس هنا».

«بلى، إنه يقف هناك، أنا أتذكر وجهه، هل تعرفه عن قرب؟ هذا مثير للاهتمام».

«يمكنني أن أتفهم، أن الأمر يعنيك، يا سيدتي. إنها تبدو درامية إلى حد كبير. غير أن المرء لا يعرف، ما إذا كان هذا مفيداً للفن أو ضاراً له. سأعرفك عليه بكل سرور، ثم تستطيعين أن تتحدثي مباشرة مع دافيد برلنسامت».

قلت لدافيد، إن السيدة إبْلَر تريد أن تطرح عليه بعض الأسئلة. توقعت أن يثور دافيد تعالياً، ويرى في ضوء المصباح شمساً يستحم بها. غير أن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث، وأحنى رأسه متقبلاً ثم توجه إلى المرأة بجدية، تماماً كما فعل مع الرجل الغريب. كانت الهالة الحزينة ما تزال تخيم على ملامحه. بعد نصف ساعة غادرت السيدة إبْلر بعد أن ودعتني شخصياً.

«يا له من شاب لطيف! مهذب إلى درجة عالية، أنا أجد أن موقفه هذا لافت للنظر. يجب تعميم ذلك على العلن بشكل موسع! تلك الإشارة الصغيرة ليست كافية. للأسف، فليس لدي وقت كافٍ للبقاء

لمدة أطول».

بعد الظهر الوقت مرّ ببطء، كانت الثواني تزحف على الباركيه ذي الطراز الذي يشبه حسك السمك، وتنعكس عليه أشكال الضيوف ككاريكاتيرات مضحكة. لم يتحرك دافيد من مكانه. لقد كان شخصية محيرة بالنسبة لي. فدائماً وعندما أظن أنني توصلت لمعرفة سجاياه الحقيقية، كان يظهر لي بلون جديد. عندما ودع السيد المجهول، وكان بادي التأثر بدافيد، اغتنمت الفرصة وذهبت إلى دافيد، وقبل أن أنبس بكلمة، تكلم هو:

«أعرف أنك لا تريد أن يكون لك علاقة معي. لست الوحيد الذي يبتعد عني بعد انتحار والدي، فالوضع كان صعباً جداً بالنسبة لك».

للحظة من الزمن لم أعرف، كيف أرد على هذه الصيغة الجديدة. نظرت إلى ما حولي وأنا في حيرة.

«منى ذهبت، هذا إذا كانت هي من تبحث عنه. إنها تتجنبني، وكأنني أحمل مرضاً معدياً».

«أنت لم تكن عادلاً تجاهها، ببساطة، هي لم تسمع، كيف كنت تتحدث عنها، لكن لو تصرفت وفقاً لذلك، لكان لديها سبب كافٍ، لكي تحبسك في قلبها».

«هل قالت أي شيء؟».

«بالطبع لا».

«موضوع منى يؤسفني للغاية، لقد اعتنت بي حقيقة على أتم وجه. تمنيت، أن تكون الشخص الذي يشاركني متاعبي، لكنك ذهبت فجأة أدراج الرياح».

«كيف خطرت لك فكرة أن تذهب باللوحات إلى البرامج

المتلفزة؟».

«أنا بحاجة للإعلام، لكي أعثر على المالكين».

هل يصدق دافيد ما يقول؟

«دافيد، جدك لم يكن أوتو آبتس».

«آه، الآن تنشر أنت هذه الخرافة على نطاق واسع. أنتم جميعاً تريدون أن تبرئوا أنفسكم».

أحد مساعدي خدمات المطاعم الخارجية عرض علينا مزيداً من الشمبانيا.

«شكراً جزيلاً»، قال دافيد، «من فضلك، هل يمكنك أن، تحضر لي كأساً من الماء؟».

«منذ متى لا تشرب الخمر؟».

«منذ آلبك، أفعل هذا مرة في السنة. أصوم عن شرب الكحول لبضعة أسابيع، حتى ليلة رأس السنة. الزهد فيها مفيد لي».

سألته بعفوية، إذا كان ينبغي لنا الذهاب لنأكل شيئاً.

«بكل سرور، ولكن هل أنت متأكد، بأنك ترغب في ذلك؟».

في المكتب وعندما أخذت معطفي، اكتشفت ملاحظة من منى، تطلب أن تلتقي بي. قلّبت الورقة في المعطف، ومددت يدي لسماعة الهاتف، لكي أتصل بها، غير أني تخليت عن الفكرة، وقرأت الملاحظة مرة أخرى وسرت باتجاه دافيد، الذي كان واقفاً في الباب.

«اتصل بها واذهب معها لتناول الطعام، هذا ما تفكر به، أليس كذلك؟ أنت تأسف، لأنك طلبت مني أن أذهب معك لتناول الطعام. أنت لم تفعل ذلك، إلا لأن منى طارت من بين يديك. بالمناسبة، هل قالت لك، إنها كانت حاملاً مني؟».

للحظات توقفت عن التنفس، وقلت في حدة: «قلت لك مراراً، بأنها لم تقل لي أي شيء على الإطلاق.».

«حسناً، هذا ما يسمى مرضها. الإجهاض، ربما لا تعرف ذلك، بالنسبة للمرأة ليس أمراً مريحاً، حتى لو كانت لا تحب والد الطفل».

قال ذلك ثم ذهب أما أنا فقد ألقيت بنفسي على مقعدي على طاولة المكتب. دافيد كان قادراً على الدوام، على خلق وضع يصعب عليّ الخروج منه، وفي اللحظة الحاسمة، يضع عقبة، وقفت وغادرت المكتب. كان الثلج قد بدأ في التساقط، ودرجة حرارة الهواء كانت بالضبط كافية لحماية ندائف الثلج الصغيرة من الذوبان الفوري. مشيت على سجادة بيضاء، حيث غطت الثلوج آثار أقدامي، ولم أترك أيّ أثر.

الثلاثون

أحضرت كأساً من النبيذ، وقمت بما لم أفعله منذ شهور: أشعلت سيجارة. لا أستطيع أن أذهب إلى السرير. لا يمكنني أن أغلق عيوني. قامت منى بإبلاغ السيدة أويجين، أن طائرتها ستهبط ظهراً في بروكسل. كنت أفضل، لو أنها لن تأتيَ. إنه شعور مرعب، أن تنظر لشروق الشمس في الصباح وهي تزداد توهجاً، وأن تتمنى في نفس الوقت، أن يستمر الليل. أريد أن أبتعد عن الضوء، أيضاً ملجأ بروكسل لم يف بما وعدت نفسي به، الأدغال، السرية، الاختفاء. ربما ستكون مدام أويجين في خلال نصف ساعة قد ارتدت ملابسها وتقف أمامي، وستستغرب استيقاظي المبكر، ثم تهز رأسها بعد أن تعرف، أنني لم أكن في السرير أبداً. لقد هربت إلى الحديقة.

في 24 كانون الأول/ديسمبر هربت إلى نيويورك. إذ لم يخطر ببالي مكان آخر، يمكن أن يوفر لي بعداً أكبر عن أحداث الأشهر الأخيرة. الصدفة هي التي حتمت، أن يكون بوب وحيداً هناك، بينما روزي مع صديقة لها في هاواي، ربما كان بينهما اتفاق ضمني. فروزي كانت تقدم له غذاءً جيداً، وكان عليه الاهتمام بشؤون البيت والحديقة. ولهذا تركها بحالها. أقمتُ في حي الجانب الغربي من مانهاتن، عند صديقي جبرائيل واعتنيت بكلبه هانك. استمتعت بسنترال بارك المكسوة بالثلوج، التي كنت أتمشى فيها كل صباح، التقيت عددا قليلاً من الناس، زرت بوب، حدثني، عما كان يسميه بالأشياء التافهة، بالنسبة لي كانت جميعها في غاية الأهمية، لأنها كانت كلها تعني روزي. روزي ذهبت الآن للتسوق إلى بيرج دورف غودمان، وإلى بنديل،

تلك كانت أرقى المتاجر في شارع فيفث أفنيو. لقد أنهت عقد رعاية قبر والديها في لانجنفيلد، ما جعلها تشعر بالارتياح. عيد الشكر كان جميلاً، غير أنها افتقدتني وشعرت بالقلق، لأنني كنت أعيش في ألمانيا. كما أنها أصبحت شديدة العصبية، وفي الآونة الأخيرة كانت تختفي أكثر من السابق في مانهاتن وعندما عرض عليّ بوب صورة، كانت قد التقطت في نادي 21، في يوم من الأيام التي سبقت أعياد الميلاد، في الوقت الذي يغني فيه جيش الخلاص هناك، كما في كل عام خلال فترة الغداء. بالكاد استطعت التعرف على روزي، وجهها كان يشبه دراقاً وردياً مبالغاً فيه بعض الشيء، وبدت شابة إلى حد مخيف.

«بوب، كم عمر روزي؟».

بوب كان مشغولاً في المطبخ. حيث وضع فخذ خروف في الفرن، وكان يستمتع عندما يطهو طعاماً لأحد. إنه لا يعرف أنني كنت أذهب بكل سرور إلى المطعم، للاستمتاع فقط بالجو وتنشيط الجسم، فلم يكن الطعام بحد ذاته يهمني كثيراً. كنت أتفهم جيداً شعور روزي بالقرف من اللحم، ولكن بالطبع سوف آكل ما يقدمه بوب. ها هو جاء من المطبخ حاملاً علبتي بيرة، وقدم لي واحدة منها.

«الطعام بحاجة لبعض الوقت، مع طعام العشاء سنشرب طبعاً النبيذ. شاتونوف دو باب».

تسربت البيرة من الفتحة عندما فتحت العلبة، فضحك بوب. تأججت النيران في الموقد، بينما الثلوج تتساقط في الخارج، وهانك غرق في النوم أمام النار وكان يشخر قليلاً. قطعنا الطريق من وسط المدينة عبر الجسر مشياً على الأقدام، فمنذ زمن بعيد لم أستمتع بالثلج في نيويورك. ناطحات السحاب، ذات الارتفاعات الشاهقة، كانت تبدو

وكأنها تضيع في اللانهاية، هوّة الشوارع، الجسور، الأنهار العريضة: كنت قد افتقدت كل ذلك. نظرت إلى الصورة، وكررت سؤالي. كنت أعرف أن السن في جواز سفر روزي ليس صحيحاً، فقد صَغّرتْ سنها عندما تم تجنيسها، لكنني لم أعرف كم عدد السنين.

«اعتقد أنها تقارب الستين»، قال بوب بطيبة قلب. إنه حقاً لرجل طيب. لو أن عمرها الآن ستون عاماً، فقد كانت في الخامسة عشرة عندما أنجبتني، لا بد أنها في السابعة أو الثامنة والستين، على الأقل! في الصورة الملونة، بدت وكأنها تتصنع الخمسين. كان وجهها مساحة مطلية بالماكياج. شعرها أحمر مائل إلى الأشقر الحليبي. من المؤكد أن الحلاّقة في الجانب الشرقي الأعلى نصحتها بذلك لأن *اللون يصغِّر العمر*، لم أعد أذكر لون شعرها الأصلي. شفتاها كانتا مطليتين بالأحمر، وعيناها مظللتين بالرمادي، وكانت ترتدي سترةً بلون وردي وأبيض مع العديد من السلاسل الذهبية، وتنورة قصيرة تصل إلى ما فوق الركبتين بقليل. أما حذاء الكعب العالي المدبب فقد كان بحاجة للتوازن على الأرض، لكن تصرف روزي كان وكأنها تجازف بحياتها حيث وقفت على كرسي. في الواقع، فقد نجحت هذه الفتاة من لانجنفيلد في ذلك. أن تقف روزي هنا في هذه السنة، وفي هذا الوقت من النهار على كرسي، لتقود الجوقة الموسيقية لجيش الخلاص بمحرمة طعام تبين أن روزي كانت واحدة منهم.

روزي لوحت بالمحرمة بظرافة وحيوية، بفعل ذلك تحركت قلائدها، والمستمعون مثلهم مثل الموسيقيين، تركوا أكلهم ليبرد، تخيلت كيف أن روزي تحدد الإيقاع والصوت، وكيف كانت الجوقة تتبعها، اعتقدت أنني أسمع، ما أشاهده في الصورة. واتضح لي، أن تلك الصورة، كانت

الصورة الأولى والوحيدة التي أرى فيها روزي. رأيتها في ذاكرتي المبهمة امرأة شابة في مطبخ شقتنا في حي كوين، على العشب في بارك سلوبي، ورأيتها أمامي عندما تتبعتها في سوهو، وفيما بعد في الجانب الشرقي الأعلى. لم أستطع أن ألاحظ عليها أي شيء شخصي في لانجنفيلد، ولم أعرف شيئاً عن روزي، سوى ما قمت بسرقته.

سألت بوب، إذا كان لدي بعض الوقت للنظر إلى غرفة روزي قبل تناول طعام العشاء. ابتسم بوب، وربت على كتفي قائلاً، إنه ما يزال هناك نصف ساعة، ولكن ينبغي علي ألا أعبث في أغراضها. فروزي تلاحظ ذلك على الفور.

عندما صعدت لغرفتها، تسربت أيام الطفولة ببطء إلى ذاكرتي، وتذكرت بأن روزي لم تترك البارحة شؤون البيت والحديقة لبوب، وإنما قبل ذلك. بوب لم يلعب دور الأب، لكنه كان دائم الحضور، أشعر بالثقة تجاهه، الأمر الذي لا يمكن أن أدعيه لروزي. ربما وافق على القيام بالدور الذي تقوم به المربيات أو الحاضنات في الأسر الراقية. في الطابق الثاني، فتحت باب صالون صغير، كانت نوافذه تطل على شرفة مطلة على طريق الشاطئ. من هنا يشاهد المرء النهر الكسول، وناطحات السحاب من خلفه. منظر يبدو في الأفلام أكثر واقعية. كانت الغرفة أنيقة، لكن لم يكن هناك أي شيء يدل على أن روزي تسكن هنا وبدون أدنى شك. سجادة بيضاء تغطي الأرض، وفوقها كان هناك قطع أثاث مختارة بعناية، تحف من شارع ماديسون، آرائك وستائر من قماش القطن الإنجليزي، مقدمته بيضاء طُبِعَت عليها أزهار ملونة، باب مزدوج يقود إلى غرفة النوم، التي تطل شرفتها على الحديقة.

الآن فقط، وأنا أتذكر المنزل في مرتفعات بروكلين، ألاحظ مدى

التشابه الكبير بين هذا المكان وبيتي في بروكسل. حتى الحديقة الطويلة الضيقة، المحاطة بسور من الآجر، تشبه حديقة بيت روزي. جلست على سريرها، أنيق بمقاس أسرة الملكات بزخارف نحاسية في أعلاه ووسائد مختلفة الأحجام. على يمينه ويساره كانت هناك خزائن صغيرة بأدراج وفي جهته السفلى كان الموقد، فوقه علقت لوحة ذاتية لامرأة غير معروفة لي، ببرواز مذهب. من السرير كان بإمكان المرء رؤية الثلج الكثيف الذي يغطي الحديقة. أخبرني بوب، أن بِركة الماء تكون في الصيف مغطاة بأزهار اللوتس. الآن فقط بان التمثال الحجري، تمثال لأسطورة الصبي والدلفين.

سحبت المزلاج بصورة ميكانيكية، لفتح الخزائن الصغيرة. كان بها أسطوانات، بعض المجوهرات وبعض بطاقات العمل. لم يحدث من قبل أن عبثت في الأغراض الخاصة بأمي. لم أقصد البحث عن شيء، ولا العثور على أي شيء، أردت فقط أن ألمس هذه الأشياء. كنت على يقين، أن سرية مهنتها، كانت سرها الوحيد، فكافة أسرارها الأخرى كانت قد تخلصت منها بنسيانها. فتحت الدُرج تماماً، كانت الأغراض الموجودة بداخله، مرتبة جيداً، فوق وإلى جانب بعضها، وفي الجزء الخلفي اكتشفت حزمة من الأوراق المربوطة ببعضها. ترددت بعض الشيء، وعندما قلَّبْتها، وفرزتها، كنت متأثراً جداً، فقد كانت عبارة عن شهاداتي من المدرسة الثانوية، كلا المنحتين الدراسيتين، ونسخة عن شهادة الدكتوراه، إضافة إلى صورة لي في الشتاء مع الزلاجة. أعدت وضعها معاً ووضعتها في مكانها من جديد. ناداني بوب: الطعام جاهز، جاهز. وضع قطعة من القماش الأبيض على الأرض، وعلى يمين ويسار الموقد وضع اثنتين من الوسائد، وفي الوسط النبيذ. ثم وزع لحم

الخروف، والبطاطس الحلوة والفاصوليا في الأطباق، وسكب النبيذ الأحمر وجلس. لم أسأله عن وضعه بتاتاً، وما إذا كان سعيداً مع روزي، ما موقفه من أسرارها، وعن أنها كانت تبدو دائماً أصغر من عمرها، عن تصنعها وعن الاعتقاد أنه لم يضاجعها منذ سنوات، ومع ذلك لم يرتسم على وجه بوب أي أثر للاستياء.

«بوب، هل حدثتك روزي عن والدي؟ هل ذكرت اسماً ما؟ كيف كانت تريد البحث عنه وأين؟ هل تحدثت معك في وقت ما، عن تلك الحقبة الزمنية؟».

«البحث عن والدك؟ لماذا؟ كيف أتتك هذه الفكرة؟

«اعتقدت أن هذا كان السبب وراء ذهابها إلى الولايات المتحدة. لم نتحدث عن ذلك بالتفصيل، أعتقد أنني أتذكر، أنها ذكرت ذات مرة شيئاً من هذا القبيل».

«ذكرت أنها أرادت أن تلحق بوالدك إلى هنا، وأعطت إدارة الهجرة اسماً ما وعنواناً في مانهاتن، كانت تريد أن ترحل من ألمانيا بأي وسيلة. أنا لم أفهم ذلك أبداً. هذا البلد الجميل! كانت تريد أن تصبح أمريكيةو وكانت تعرف، أن بإمكانها البقاء هنا كأم لأمريكي.» ابتسم بوب. «من يولد هنا، فهو أمريكي».

«تقصد، والدي..».

«... مارتين، لا أستطيع أن أقول لك شيئاً، فأنا لم أسألها عن ذلك أبداً، فليس من اللباقة، أن تُسأل المرأة عن ماضيها، فهذا لا يجلب سوى الإحراج، وهذا غير لائق، وهي لم تكن ترغب في الحديث عن ذلك، لذا لم أسألها.» كان بوب يمضغ الطعام، وهو في سعادة تامة. «موهبة الذكاء لم تمنح للجميع، كيف عليَّ أن أعبر، حالة سيئة- المعذرة، أنا لا

أقصدك شخصياً، فنحن نحبك كثيراً، لكن، أنت تفهم، امرأة حبلى تقف وحدها، تبحث عن فرصة للتغيير. وهذا بالضبط ما فعلته روزي، فهي لا تحب ألمانيا، لذا فقد هاجرت. إنها تشعر بالامتنان لأن أميركا احتضنتها، وهي استفادت من ذلك على أفضل وجه! أو أكثر من الأفضل، إذا سألتني».

لم يدر، كيف تمكنت من فعل ذلك، فالأدلة كانت واضحة: منزل في واحدة من أجمل مناطق نيويورك، حيث لا يستطيع المرء أن يرى ناطحات سحاب مانهاتن بهذه الصورة، كما يراها من هنا.. الناس الذين كان بوب يلتقي بهم عندما يذهب إلى البقال أو في المساء مرة أخرى في الصيف في مقهى ريفرسايد... بدون روزي لم يكن ذلك ممكناً بتاتاً، لقد كان فخوراً بها.

بعد الطعام مشيت عائداً مع هانك بين الثلوج. كنت أشعر بالدفء بفعل النبيذ. على الجسر، وأنا أرى ناطحات السحاب في الطرف الجنوبي أمامي، تذكرت أنني لم أكن في البرجين التوأمين سوى مرة واحدة. فبعد تخرجي من الكلية، دعاني بوب إلى مطعم *شبابيك على العالم*، أكلنا هناك وحدنا، فقط بوب وأنا، بعد ذلك انهمكت في العمل. كنت أعرف ما هي اهتماماتي، غير أنني لم أكن طموحاً على الإطلاق، لم أكن مثل روزي، لا شيء يحفزني. الفن يعني لي شيئاً كثيراً، وربما كل شيء. لكن وعلى خلاف الكثير من زملائي، لم أعر أهمية لمصطلح التطور الوظيفي، لم أتبع أي اتجاه، كنت بالدرجة الأولى سعيداً، لأنني لم أكن مضطراً للتمحور. لو لم ألمح لوحة كوربيت، ومهما كان السبب، معلقة على جدار شقة والدي دافيد، نعم، لو لم يكن هذا الترابط بين صورة البحر وبرلنسامت وبيني، ربما لم أكن متحمساً لمتابعة الأمر على

هذا الشكل. لقد كان ذلك المزيج الزئبقي الغامض هو الذي أوقفني على ساقي، وجعلني أتتبع الأثر، كان لا بد لي أن أبتسم، فمن الواضح أنني لم أرث إلا القليل من عزيمة روزي. لم أكن أعلم، ما أريد. فقط وفي بعض الأحيان، ولسبب غير مفهوم، وغير متوقع، مثل ما كان في جزيرة كوني بعد الامتحانات، أو أمام بوابة ذلك البيت في شارع فازانن شتراسه، أو كما في وقت مبكر من هذا المساء مع منظر مانهاتن، تتولد لدي الرغبة، لإيقاف الزمن. دائماً عندما تكون اللحظة صافية وغير مقصودة. مهزلة مطلقة، على الأقل فيما يتعلق بلقائي ببرلنسامت! لم أتمكن من قراءة أي إشارة. لم أكن أعرف منذ البداية، ما الذي يجعلني سعيداً، وما الذي يمكن أن يكون خطيراً بالنسبة لي. سقطت بكل بساطة في تلك الحالة، جيد، سيئ، سخن، بارد، وكأنه كان ينقصني لوضع الخطط المقدرة على الخيال. كنت أرغب أن أمشي حتى النهر، لكن هانك تعب، لذلك أخذنا سيارة أجرة إلى المدينة العليا، فالحيوانات ممنوعة من السفر في مترو الأنفاق. في السيارة أنكمش هانك على ساقي، فتركت له حرية فعل ذلك. لقد كنت مسروراً بطريقة غريبة، كما كنت مسروراً لوجودي في نيويورك. أدهشني ذلك، لربما جال بخاطري في هذا المساء وللمرة الأولى، كم أنا سعيد لكوني هنا! كم كان كل شيء مألوفاً لي! وعلى الرغم من أن كل ذلك مألوف بالنسبة لي، فلم يكن هناك ذلك الشعور بالضيق، الذي أحسست به جزئياً في أوروبا، ضيق النفس، الشعور بأنك مراقب ومُقدّرْ، الانطباع بأن المرء يتوقع تبريراً لكل إجراء، أو للإهمال. هذا لم يكن له أثرٌ هنا. طبقات كثيرة تراكمت فوق بعضها في مانهاتن هذه، مصالح كثيرة تبحث عن طريقها الخاص، عدد كبير جداً من الخطط الملحة والخطط الأقل إلحاحاً

فشلت، لدرجة أن المرء اعتنى بشخص ما أكثر من المشروع الخاص به. ليس قليلاً ما سمعته، أن الأوروبيين يفزعون من الليونة التي يتجاهل سكان نيويورك بعضهم البعض. إن العالم القديم يرفض، وهذا ما قيل لي في كثير من الأحيان، السطحية، اللطافة والمجاملة غير الملزمة. الإنسان في أوروبا لا يتفهم، أن الناس هنا بحاجة إلى البعد الغريب واللطافة السرية، لكي يشقوا طريقهم دونما إزعاج. هذا الجو هو السبب الذي يقف وراء عدم تضارب المصالح، ما لم يتعلق الأمر باستحمام شخص عار في إحدى بحيرات سنترال بارك، والذي قد يولد ردود فعل شبه كارثية. وباستثناء ذلك فبإمكان المرء أن يفعل ويكف عمّا يشاء، الروابط الوثيقة غير مرغوب بها، وعدم التدخل، فهذا سيكون بمثابة اعتداء. لا، لم أخلق لأقارب مني الاختياريين. أشعر بالراحة فقط عند الإهمال، الذي لا يربطني بشيء أو بأحد.

مع وصولي لمرتفع المدينة العليا، بدأت الثلوج تتساقط من جديد. هانك كان يحب الثلج، لذلك طلبت من سائق سيارة الأجرة، أن يُنْزِلنا في دوّار كولومبس. في أيام شبابي لم يكن أحد يجرؤ في المساء على المشي حتى على أطراف سنترال بارك، ناهيك عن المرور بها، لكن الآن يرى المرء الكثير من الذين يمارسون رياضة الجري وأناس يتمشون مع كلابهم. هانك كان يقفز على نُدَف الثلج بنشاط. أخيراً، وبعد أن وصلنا إلى البيت، كان منهكاً إلى حد أنه لم يكن قادراً على الأكل.

لم أكرر الزيارة لبوب، تكلمنا فقط عبر الهاتف مرة أو اثنتين، وبهذه الطريقة ودعته أيضاً، بعد أن عاد جبرائيل من رحلته بعد أسبوع. هكذا كنت مرة أخرى في بلدي، دون أن أرى روزي.

في منتصف كانون الثاني يناير كنت أجلس على مكتبي، وكانت

منى أيضاً قد رجعت من عطلة أعياد الميلاد، ولم تسأل لماذا لم أجُب على رسالتها في حفل استقبال أعياد الميلاد، وأنا لم أسألها لماذا ذهبت فجأة، وبين الحين والآخر كان يخطر ببالي ادعاء برلنسامت، بأن منى كانت حاملاً منه. تجاوزت الفكرة. لأنني ما زلت أفكر بالانتقال إلى مهنة جديدة. فقد رأيت في ذلك حلاً لمشكلتي.

في نهاية آذار مارس، كان علي السفر إلى لندن للمشاركة في لقاء لباحثي المنشأ، وبعد المساهمات التي ألقيت، ذهبت إلى حانة مجاورة في بيكاديللي، وهناك التقيت صدفة بفرانسوا بفايفر. كنت أعرفه معرفة سطحية، وقد مثَّل هناك دور محامي العاجزين. آخر ما التقطه، كانت لوحة بيرث موريسوت. فقد قام بمصادرة اللوحة، التي كانت قد اختفت لعقود من السنين، من المزاد، بعد ذلك أعيدت اللوحة إلى عائلة يهودية تعيش في لندن. بفايفر كان قد اشتهر من خلال مثل هذه الأعمال، كما لمع نجمه لفترة من الزمن في الصحافة على أنه مُتَعَقِبٌ ذو كفاءة عالية، للوحات الفنية. كان لديه نظرياته الخاصة، وكان يعتمد مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، الأمر الذي لم يحقق له شعبية واسعة. ليس هناك مجال للشك، فمن خلال أجور السمسرة، التي كان يحصل عليها من زبائنه، صار من الأغنياء. وقد أساء لهذه المهنة حتى صار بعض الناس يخلط بين دور المزاد العلني مع أمثاله، أما أنا فقد عددته قذراً.

قال لي: «مؤرخ الفن ذو الخبرة العالية في شركة المزاد العلني الألمانية، وبشكل خاص في هذا اليوم في غاية الأناقة. لم أرك منذ زمن طويل يا ساوندرز. حتماً، أنت لا تزال تعمل مع نوبل نيويورك في برلين، أليس كذلك؟».

«لا، أنا حالياً في لندن، في حانة».

طلبت بيرة، وضعت الفلوس المطلوبة على الطاولة، وبحثت عن مكان أجلس فيه. لم يكن لدي رغبة للحديث مع بفايفر، فغالباً ما كان يريد شيئاً. لحق بفايفر بي ضاحكاً بسخرية، شاربه الضعيف بدا وكأنه بُراز ذبابة. لقد انتشرت أسطورة، أن أحداً لا يستطيع أن يوجه إهانة له. على المرء أن يتصور في البدء، أن أجزاءه المقطعة ستنمو معاً من جديد على الفور.

«هل يعني لك اسم برلنسامت شيئاً؟ هل سمعت شيئاً عن هذا؟ قصة غريبة».

«ماذا تعني بذلك؟».

« أتعرف برلنسامت؟».

«من الصحافة. لقد سمعت بالقصة، أعتقد، مثلنا جميعاً».

«ألم تكن عنده؟ يقال إنه عرض عليك جزءاً من هذه الأشياء».

«تقول أشياء؟ لكن الجميع يعلم، أنها كانت مجموعة فنية استثنائية للغاية».

«استثنائية للغاية، نعم، هذا هو التعبير الصحيح. لقد رأيت القائمة في شبكة الإنترنت، كان فيها صورتان، وكنت قد توسطت قبل ثلاث سنوات، لإعادتهما لأصحابها الشرعيين».

أنا لم أصدق أي كلمة قالها، واعتقدت أن ثرثرته لم تكن سوى حيلة لجري للحديث، فشربت بيرتي وودعته.

الواحد والثلاثون

بعد عودتي إلى برلين، اتصلت بي روزي. كانت بعد وفاة جدي وجدتي قد ورثت البيت الصغير في لانجنفيلد، وأجَّرته، ولم يكن لديها رغبة في الحصول على أي شيء من محتوياته، كما أنها أبلغت المستأجرة، أن لها كامل الحرية في التصرف بكل ما كان في البيت. كان ذلك قبل بضع سنوات، والآن تريد السيدة الانتقال من البيت، فطلبت روزي مني الذهاب إلى لانجنفيلد واتخاذ القرار المناسب حول مصير البيت.

«الأمر عندي سيَّان. ليس لدي الوقت للحضور إلى ألمانيا. إذا أردت، تستطيع بيعه، والمال ملك لك».

لم تكن حالة الشارع والبيوت المجاورة في ذاكرتي سيئة إلى هذا الحد. لقد اهتزت في أعماقي انطباعات الطفولة، لتجعل من المكان بلدة مفعمة بالدراما. لانجنفيلد بدت وكأنها فارغة، مستقيمة، رمادية. إنها لا تولد حافزاً، ولا فرحاً أو حسداً. حتى شارع هومبولد في وليامزبورج ببروكلين، حيث قضيت فيه سني عمري الأولى، لم يكن رثاً وقليل الصخب، كما هو حال هذا الشارع هنا.

في حوالي الرابعة، كنت على موعد مع سيدة تدعى موتيس. تَرَدَّدْتُ عندما هَمَمتُ للنزول من سيارة الأجرة، وكأنني انتظرت أن أرى آثار الحادث قبل أربعين عاماً، بقع الدم على جانب الطريق، وجناح السيارة الملتوي، حذاء المرأة التي قُذِفَتْ في الهواء.

لكن لم يكن هناك حتى صليب أو حجر، يذكر بذلك الحادث المفجع. اتجهت نحو البيت ورأيت الواجهة المطلية بلون فاتح. هنا أيضاً كان للنوافذ شباك ضد الحشرات، كما هو الحال في شارع هومبولد.

لكن لا وجود لناموس ميت ملتصق عليه، وراء النوافذ اللامعة النظيفة عُلقت ستائر مُمَوَّجَة. رقم 29 نحاسي اللون علق بجوار مدخل البيت، وتحته صندوق عليه بوق البريد واسم موتيس. قرعت الجرس، ففتحت السيدة موتيس الباب على الفور، كانت ترتدي ملابس غير عصرية، لا بد أن تكون من عمر روزي، غير أنها تبدو بعمر والدة روزي. حدَّقتُ فيها كما لو أنني لم أرَ امرأة في مثل هذا العمر من قبل. بعد رد التحية، تفحصتني سراً من الرأس حتى أخمص القدمين، جاملتني على لغتي الألمانية، وذكرتني بأننا تعرفنا على بعضنا، عندما كنت مع روزي في لانجنفيلد. كنت طفلاً صغيراً مائلاً إلى الذهول والصمت، وكانت لي عينان واسعتان وأنني اختبأت خلف والدتي، ولم أتركها إطلاقاً. فقط مرة واحدة فتحت فمي للكلام. عندما سألني أحدهم، عن أكثر ما يعجبني هنا، فكان جوابي: لا شيء. بالطبع لم أستطع أن أتذكر شيئاً من ذلك.

بينما قامت السيدة موتيس بعرض البيت علي، وهي تقوم بواجبها على أفضل وجه، فكرت بأنني أتفهم نفور روزي في شبابها من ألمانيا. انبعثت رائحة عفن، وعلى الرغم من أنها كانت رائحة المقيمين الحاليين، إلا أنني شممت رائحة والدي روزي. سرنا في الغرف. وأخذت السيدة موتيس تعرفني على الأشياء التي ما تزال موجودة، والتي يعود أصلها إلى ممتلكات جدي وجدتي. لم أتعرف على شيء منها، ومع ذلك كان كل شيء يثير فيَّ الاشمئزاز.

قَرَّرَتْ، أن بإمكانها أن تحتفظ بما تشاء. أما الأشياء التي لا تريد أخذها، فسيتم التخلص منها. تَجَنبتُ كلمة نفايات، وسألتها عما إذا كانت تعرف أحداً، يرغب في شراء البيت. فقالت: «هذه ليست

مشكلة، المنطقة مرغوبة، فهي منطقة ريفية تتمتع بموقع مناسب بين دوسلدورف وكولونيا، عدا عن أن للبيت هذه الحديقة الجميلة وبستان لأشجار الفاكهة، وأحواض للخضار والزهور، ونوهت إلى أن الأمر يتوقف طبعاً على السعر». خرجنا من البيت. وتفحصت مرفقات البيت المعتنى بها عناية فائقة. فهو أنيق للغاية، ولم يكن هناك عشب، وأزهار السوسن الذابلة جدلت بأوراقها، والأزهار التي تفتحت من جديد أسندِتْ إلى عيدان من الخيزران العريض لكيلا تنحني. أما أغصان أشجار الأجاص والتفاح فقد وضعت عليها الأثقال. تعمقت في الحديقة باحثاً عن شيء أتذكره، صوت أو رائحة. بدا وكأنني لم أكن هنا من قبل مطلقاً. ذهبت إلى نهاية قطعة الأرض. في ذلك الوقت كان هناك ثغرة في السور تسللت منها إلى الشارع، قبيل وقوع الحادث بوقت قصير. لكن السور كان جديداً.

رأت السيدة موتيس، أنني وبالتأكيد أريد أن آخذ بعض الأشياء الشخصية. نظرت لي بعيون واسعة، فهل كانت تبحث عن أي انفعال في وجهي؟ هل كان من المفروض علي أن أتأثر بشكل أو بآخر؟ هل كان يتوجب عليّ أن أكون متأثراً بطريقة أو بأخرى؟ عاطفياً؟ شيء شخصي. لا وجود هنا لأشياء شخصية، لا لروزي، ولا لي، هذا إذا ما غضضت الطرف عن الذكرى المأساوية، كما أسميها شخصياً، ولا أقصد بذلك الحادث فقط، فالإقامة عموماً في هذا المنزل كانت بحد ذاتها كارثة. أحسست بعدم ارتياح روزي وبذعرها، وذلك كان كافياً، لأن أشعر أنا شخصياً بعدم الارتياح. فالحادث لم يكن سوى قمة الهاوية لوضع يسير ببطء نحو التأزم. هذا هو الشيء الشخصي، الذي يربطني بهذا المكان، شيء، لا انأ ولا روزي كنا نريد العودة إليه طواعية. كان

الوضع غير مريح بالنسبة لي، ويكاد يكون مزعجاً. ولكن كيف كان علي أن أفسر ذلك للسيدة الطيبة موتيس؟ لقد كانت تشعر بالراحة في هذه البيئة، ووصفته بأنه مريح.

أشار بوب مرة، إلى مدى خيبة أمل الجدين، وشعر بالأسف لذلك، وقبل أن تحتد الحساسية عند روزي، حاول أن يقنعها بزيارة ألمانيا مرة أخرى. وقد قاومت باستماتة. فقد كانت تتجنب أي اتصال آخر مع والديها. فقط نمط تفكيرهم، الخضوع للجميع ولأي كان، وخوفهم الدائم، مما يفكر به ما يسمون بالآخرين عنهم، الأقارب والمعارف والجيران، كان يثير فيها الرفض. وكان والداها قد فقسا بيضة كتكوت، مدعاة للحرج، إلى حد أنها لم تكن جيدة بما يكفي لابنتهما. وتقول إن ابنتهما ليست جيدة بما فيه الكفاية. نظرت إلى ما حولي، لا شيء جيد بما فيه الكفاية؟ يا لها من نهاية غريبة. ما يسمى الراحة، ومع أم عنيدة إلى حد ما، كادت أن تكلفني حياتي. روزي التي بقيت مصرة على موقفها، أن هذه الراحة لا تتناسب مع ذوقها، وكان ذلك اشبه باللحم مع نسبة عالية من الدهون، يقدم هنا على موائد الطعام. أما أنا فقد كنت شاكراً لها على ذلك.

السيدة موتيس لم تتساهل، بذلت جهوداً مخلصة، لإقامة اتصال بين المغتربين والبقية هنا، وأثناء استعراض الخزانات، عثرت في مستودع الأغذية على صندوق من الجلد. الطرد أرسل مرتين إلى أمريكا، وكان يعاد في كل مرة مع الإشارة، إلى أن روزي انتقلت إلى جهة مجهولة.

«ما هو مستودع الأغذية؟».

دلّتني على غرفة صغيرة وراء المطبخ، كانت بالكاد تتسع لشخص، وكانت في الغرفة رفوف خشبية مليئة بالمواد المخزنة، خبز، مرطبانات

مربى، معكرونة، وزجاجات خل وبيرة، وفي بعض الرفوف رتبت الفاكهة عليها بصفوف غاية في الدقة. في نيويورك لا يمكن تصور مثل هذا المستودع، فهو سيكون بمثابة جنة للصراصير والنمل.

أشارت السيدة موتيس إلى الرف الأسفل في الزاوية الخلفية، وقالت:

«هنا وجدت الصندوق أثناء حملة تنظيف واسعة، لكن في المرة الثانية. في المرة الأولى نظفت ابنتي، وقامت الطفلة بالتنظيف على طريقة أهل كولونيا، سطحياً. ليكن، لقد كانت في الثامنة عشرة في ذلك الوقت، وفي هذا العمر لا يهتم المرء كثيراً بمثل هذه الأمور. في العام التالي كان علي أن أقوم بحملة التنظيف في الربيع وحدي. وخلال ذلك وجدت الصندوق. إنه صندوق مجوهرات جدتك، يا حضرة الدكتور. النساء يضعن دائماً الأشياء المهمة لهن، في أماكن غريبة. أخرجتها ومسحتها ولمعتها بعض الشيء، ومن المؤكد أن جدتك كانت متعلقة جداً بها. لقد خبأت الصندوق بعد أن تمت إعادته أكثر من مرة في غرفة النوم في الطابق العلوي، وكنت اعتقد، أن السيدة أمك ستأتي يوماً ما، لترى كيف تسير الأمور».

عادت السيدة موتيس اللطيفة ومعها الصندوق.

«هذا هو، تفضل».

نظرت إلي بتمعن. انتظرت مرة أخرى ردة فعل مني، ربما شعور بالارتياح للعثور على شيء مفقود، ابتسامة، انفعال ما يشير إلى السعادة.

«إنه مغلق. لم أجد له مفتاحاً».

صندوق بحجم علبة للسيجار، وضعف ارتفاعها، مغلفة بجلد داكن أحمر اللون، الزوايا رثة. في المنتصف، قفل نحاسي صغير وبسيط.

بغض النظر عما كان به من مجوهرات: كنت أعرف، أن روزي لن تهتم بهذه الأشياء، وكانت تريد التخلص من كل شيء ما يزال موجوداً هنا. ماذا علي أن أفعل بهذا؟ وددت لو أهدي الصندوق بمحتوياته للسيدة موتيس. ولكن أن أكسر القفل في حضورها، بدا لي وقاحة، غطرسة إلى حد ما. السيدة موتيس عاملت هذا الصندوق الرث بعناية، حافظت عليه لروزي على خير وجه، إلى الحد الذي يفرض علي ألا أجرح مشاعرها، بأن أتصرف بازدراء أو عدم اهتمام. ترك الصندوق مغلقاً لها، وخلع القفل، لم يكن حلاً. أمر يثير الحنق، أن البريد، الذي يفقد الكثير في الطرقات، كان في حالة الصندوق موضع ثقة. وخلافاً لرغبتي أخذت الصندوق معي لكسره في برلين وتقطيعه إلى قطع، ومن ثم إرسال ما يحتويه كهدية إلى السيدة موتيس.

السيدة موتيس وعدت بأن تراقب، ما إذا كان هناك أحد يرغب بشراء البيت. أعطيتها بطاقتي وقلت لها، إن بإمكانها أن تتصل بي على مدار الساعة، ثم طلبت منها، أن تطلب لي سيارة أجرة.

ألقيت بعقب السيجارة في الموقد، ولم افتح الصندوق بتاتاً. لقد نسيته بكل بساطة، وعثرت عليه مجدداً بعد انتقالي في أحد الصناديق. الآن، الصندوق موضوع في خزانة الثياب، فوق. مدام أويجين وضعته إلى جانب القمصان التي طوتها بعناية.

بدا وكأن النهار سيكون جميلاً، فإن شجرة الأجاص في الحديقة حملت بالفاكهة، نبات الكوبية المتسلقة ازدهت بثوب من الزهور. حتى عند روزي تتسلق الكوبية سور الحديقة. لم أُبلغ روزي بعد، أنني قد انتقلت من برلين. كانت تُسمعُ أجراس كنيسة قريبة، هذه منطقة كاثوليكية. الساعة الآن هي الثامنة، مدام أويجين كانت منشغلة في

المطبخ بأواني الطعام، ربما كانت تحضر القهوة. شعرت فجأة بالإرهاق، وكأنني سقطت في الليلة الماضية على ظهري على أرض الغرفة. عظامي كانت ثقيلة، وكأنني حملت شخصاً آخر. مشيت عبر المطبخ عائداً إلى المنزل. نظرت لي المدام بدهشة. تَمْتَمْتُ شيئاً مضمونه أنني لم أتمكن من النوم وأن عليَّ أن أُحضر شخصاً من المطار بعد ساعتين.

«أرجو إيقاظي في العاشرة. إنه أمرٌ مهم».

الثاني والثلاثون

نمت وكأن أحداً أعطاني مورفين دون رغبتي، نمت نوماً عميقاً بلا أحلام. وعندما أيقظتني مدام أويجين، لم أعرف، أين أنا. في الخارج، يوم مشمس ساطع. ثم تذكرت، ليس في برلين، وإنما في بروكسل. ثم ذهبت إلى المطبخ، وشربت القهوة واقفاً.

«مونسنيور، الكرتونة فارغة؟! هل انتهيت، أم أنك تريد أن تحرق المزيد؟ لطفاً، أيمكنك أن تقطعها إلى أجزاء صغيرة؟ إن كومة الرماد كبيرة، لدرجة أنه يتساقط فعلاً على السجاد. هل يناسبك، طلب حطب جديد للموقد؟»

مدام أويجين تتحدث معي من جديد بلهجة، وكأنني مجنون. لم يَبْقَ فعلياً شيءٌ للحرق. كل الوثائق المتعلقة بتاريخ أسرة برلنسامت تم حرقها. هل ينبغي عليها أن تطلب حطباً جديداً للكمين، الأمر بالنسبة لي سيان، لا أحتاج لذلك قبل الخريف. صعدت إلى السيارة، فالمطار قريب، وحركة السير في هذا الاتجاه كانت خفيفة. لذا وصلت المطار قبل نصف ساعة من موعد الوصول.

والآن ستأتي منى. صحيح أنني فكرت بها عندما سرت عبر الغرف ورأيت عمال النقل وهم ينقلون الأثاث والمدام وهي تفتح الصناديق. لقد كانت لعبة. ولكن وفي نفس اللحظة وأنا أحاول أن أتخيل منى في هذا البيت وهي تجلس إلى المكتب، ربما في الطابق الثاني، شعرت وكأنني أصبت بالشلل. فلم أتصور أن يأتي دافيد إلى هنا على الإطلاق. لكنني افتقده أحياناً.

يلاحظ المرء في المطار، رجال أعمال دوليين، دبلوماسيين، يأتون

ويذهبون، السائحون قليلون. يُلاحظ ذلك من خلال الملابس الموحدة والرسمية التي لا تنم عن تناسق. كما يُرى ذلك أيضاً في النظرات والحركات، دائماً نحو الهدف، لا إهدار للطاقة. في الواقع فإن هذا مُناقض لأجواء المدينة. بروكسل لا تولد عندي الانطباع، أن النظام فيها له قواعد جمالية صارمة. تبدو لي وكأنها لغز، ليست واقعية تماماً، وهذا ما كنت أشعر به في أحيان كثيرة أثناء تجوالي في المدينة، وكأن أحداً ما يعيد ببساطة كتابة المدينة من جديد أمام ناظري. ليس فقط مسار الشوارع ومواقع الساحات، وإنما كثافة الغلاف الجوي وتركيز السكان أيضاً؛ حيث إن المرء يفقد أيضاً القدرة على تحديد الاتجاهات.

منى لم تقل، كم ستبقى هنا. شخص ما سألني إذا كنت أيضاً في انتظار الطائرة الآتية من برلين، وأشار إلى لوحة مواعيد الهبوط، الرحلة ستتأخر عشر دقائق. هل كان علي أن أحضر وروداً معي؟ لم أفكر حتى فيما يمكن أن أريه لها. ربما سنذهب في أول الأمر إلى المدينة، إلى ساحة جراند سابلون. سيكون الوقت المناسب، لتناول وجبة غداء صغيرة هناك.

أخيراً، ظهر على الشاشة أن الطائرة قد هبطت. كان من المفترض علي أن أحضر لها زهوراً، سيكون الاستقبال بالتالي رسمياً. كان من الممكن أن تضعها في غرفتها، في الطابق الثاني، حيث توضب السيدة أويجين السرير للتو. أمرٌ عمليّ، أن يتألف المنزل من عدة طوابق، حيث يتحاشى المرء لقاء الآخرين، وأيضاً وجود حمام في طابق الضيوف. لقد وصل أول المسافرين. كانوا رجالاً ما بين منتصف الثلاثين ومنتصف الخمسين من العمر. يبدون كما لو أن وزارات لفظتهم، الدفاع والمواصلات، ووزارة الخارجية. نادراً ما كان بينهم امرأة، وإذا كان

الأمر كذلك، فهي لا تبدو وكأنها امرأة، بل ببزة رسمية عديمة الجنس، كما هو متعارف عليه عند الشرطيات. ثم جاءت واحدة، في عمري، أنيقة جداً، ربما تسكن هنا وليس في برلين. استقبلها شخص نحيف وطويل، أنيق المظهر، بدا وكأنه ذو مكانة ما. وبعد أن تعانقا أخذ حقيبتها، ثم جاء اثنان أو ثلاثة من حاملي حقائب الملفات، وبعدهم وصل شابان يبدوان وكأنهما يعملان في سلك الصحافة السياسية، قميص مفتوح، سترة جلد، هاتف جوال مع سماعة في الأذن. هذا كل شيء. انتظرت عشر دقائق أخرى، فوصل طاقم الطائرة أيضاً. ومن أجل التأكد، استفسرت من امرأة، كانت حسب بزتها الرسمية والشرائط، لا بد أن تكون مهندسة الطائرة، أو ربما قائدة الطائرة؟ سيان. فقالت: لا، الطائرة فارغة. إذاً منى لم تأتِ بها.

مدام أويجين غادرت البيت، لكنها جهزت كل شيء في الطابق الخاص بالضيوف لزوجتي. لم تتعب من ترداد هذه الكلمة. الحمام مجهز بالمناشف الجديدة، السرير مرتب، على المكتب زهور وضعت في زهرية، وطبقٌ مليءٌ بالفواكه. كما وضعت المدام كرسياً وطاولة صغيرة على الشرفة. من هنا يلقي المرء نظرة جميلة إلى قمم الأشجار. ثم نزلت إلى طابقي. على سريري كانت محفظة ملفات برلنسامت الفارغة، شيء جميل من شركة جلود فرنسية عريقة، فاخرة جداً، لم أكن قد لاحظت ذلك من قبل. ربما ينبغي علي أن أعتاد على استخدامها شخصياً. أخرجت صندوق جدتي من الخزانة. إنه لأمر مثير للسخرية، إذ أنني اضطررت لأخذ هذه العلبة معي إلى برلين ولم أتخلص منها إلى الآن. تخيلت نفسي مرة أخرى في تلك الحجرة الصغيرة في البيت الصغير بلانجنفيلد، محرجاً من التظاهر أمام السيدة موتيس بأن ما تحويه العلبة

هام لروزي، رغم علمي أن هذه الأشياء التي بداخلها لا تهمها، وأنها لا تهتم بأي شيء تركته وراءها في لانجنفيلد. يا له من حظ، إنها ليست سوى علبة صغيرة، وليست حقيبة كبيرة بحجم خزانة. في تلك الأثناء، تذكرت بأن علي أن أعتني بأمر بيع البيت.

النشاط الذي تتسم به السيدة أويجين عند استعمالها للمكنسة الكهربائية في الطابق العلوي، يسلب مني قدرة الخيال الجنونية. خلعت العلبة بمبرد الأظافر. العلبة مبطنة من الداخل بقماش وردي اللون. الطبقة العليا التي يمكن تحريكها، وبها مكان لوضع الخواتم كانت فارغة، في الطبقة السفلى كان هناك ثلاثة أوسمة، ورزمة من الأوراق مربوطة ببعضها بخيط، في أعلى الرزمة جواز سفر، وعلى الغلاف شعار النسر مع أوراق الشجر تكلل الصليب المعقوف، وتحته كتب الإمبراطورية الألمانية، ثم الرقم 05265 هـ/40. إنه جواز سفر روزي ماري ليزيلوتي شميدت، صادر بتاريخ 29 آذار/مارس 1944 في دُسلدورف، ملغى منذ آذار/مارس 1949. ولدت بتاريخ 11 تشرين ثاني/نوفمبر 1931. المهنة: تلميذة. الصورة الشمسية تُظهر فتاة مبتسمة بخدود حمراء، وشعر مجعد غامق مردود إلى الجنب. لم أرث تجعيد شعرها، ولا حتى اللون. كانت ترتدي جرزاً تبرز من تحته ياقة بيضاء مستديرة، الصفحات التالية كانت فارغة. سحبت صورة بحجم طابع بريدي تقريباً من بين رزمة الأوراق الرقيقة، رجلٌ يرتدي زياً عسكرياً لجيش الإمبراطورية، في الثلاثين من العمر تقريباً، شعره كان قصيراً جداً فاتح اللون، مكشوف الرأس، علامات مميزة، وسام معلق على صدره، خلف الصورة كان ختم أستوديو التصوير في أنتفيربن، شارع باجيجن رقم 76. كتب أسفله بخط اليد: لروزي من *هانس*. بطاقة بريدية غير ملونة عليها برج

إيفل. كتب خلفها من زيارة خاطفة لباريس، أهديك تحياتي. المشتاق هانس. إنه لشيء رائع هنا من على برج ايفل، هنا تناولت العشاء. عندما تكبرين، سنفعل ذلك معاً. رسالة كتبت على ورق رقيق أزرق، مؤرخة في 43/8/6. عزيزتي الصغيرة! ككل شيء انتهت العطلة... سافرت حتى باريس بالدرجة الثانية، ودائماً وفقاً للمعايير! بقينا هناك يوماً كاملاً. هنا عشنا وكأننا فرنسيون حقيقيون، بدأنا بشرب البيرة، 0،30 سنتيم سعر الواحدة، ثم الفطر والنبيذ. للأسف، كان علينا أن نقول وداعاً لهذه المدينة الرائعة في وقت مبكر جداً... أطيب التحيات من هانس. 43/10/6 صغيرتي العزيزة روزي! عدت للتو من طلعة جوية ليلية، تمنيت لو تجربين ذلك في إحدى المرات! في الواقع، إن الطيران هو كل شيء بالنسبة لي. نعم، كان لدي فكرة مختلفة عن فرنسا. لا أدري حتى الآن، إن كنت قد أصبت بالخيبة، أم أنني اكتسبت خبرةً جديدة... نحن لا نختلط إلا نادراً مع المواطنين... أرجو أن تكتبي لي قريباً، مع أطيب التحيات القلبية من هانس. 43/11/8 عزيزتي الصغيرة! اليوم عدت من رحلة جوية خارجية دامت أربعة أيام... كانت رائعة. أنا في انتظار رسائل من صغيرتي روزي وسماع بضعة أخبار عن أعياد الميلاد، على أمل أن تظل طفلتي على مر العهود كما هي... يمكنك أن تفرحي من الآن... مع أطيب التحيات، وأيضاً لوالديك من هانس. 44/10/4 حبيبتي الصغيرة روزي! لك ألف شكر لهذه الرسالة الرائعة. بودرة؟ هل أصبحت طفلتي كبيرة، حتى تطلب البودرة؟ سأرى ما يمكن فعله. ربما قماش أيضاً؟ أحتاج لمقاس جواربك. جوارب القدم بالطبع!... 45/1/30 روزي، يا قلبي، ربما ستكون هذه رسالتي الأخيرة لمدة قد تطول...

الرسالة التالية كانت مؤرخة أيضاً في 12 كانون الثاني يناير 1954. *عشيقتي روزي! لقد آلمني أنك لا تريدين رؤيتي، لا في عيد الميلاد، ولا في يوم رأس السنة. في رسالتك الأخيرة، قلت إنك تريدين أن تفكري في الأمر. لم يكن من السهل العثور على عمل، هنا في أوسنابروك. سررت لأنني نجحت في ذلك. بعد لقائنا الأخير، قبل أربعة أسابيع، تمنيت لو تلحقين بي إلى الأبد. في الصباح، وبعد تلك الليلة الرائعة، وددت لو أذهب فوراً إلى والدك لأطلب يدك منه، انتظرت فقط إشارة منك. والآن تكتبين، أنك تريدين إعادة التفكير بكل شيء... دعيني أعرف ذلك في وقت قريب. الانتظار، كل هذه السنوات في روسيا كان طويلاً جداً وقاسياً، وكأنني الآن أملك الكثير من الصبر. ولكن لطفلتي الحبيبة، أفعل كل ما تبقى من طاقتي بكل سرور. المشتاق هانس.*

وختاماً، الرسالة الأخيرة بتاريخ 3 شباط /فبراير 1954. عزيزتي روزي! كتبت لي أمك أنك كنت في حالة سيئة. قالت إنك كنت معكرة المزاج وعصبية، اقترحت علي، أن أخطفك إلى رحلة قصيرة. لا أظن، أن هذا ما تريدينه. بما أنك قطعت الاتصال بي، أعتقد، أنك تريدين الذهاب، ربما كان هذا هو الحل الأفضل. أرجوك بحرارة، أن تدفني الأوسمة التي أرسلتها لك سابقاً في الحديقة. إنها أشياء، لا يجوز أن تقع اليوم في يد أحد، حتى لو لم يعرف أحد ما الذي كانت تعنيه لي. أقفل عليك في قلبي. المشتاق هانس.

في مطلع نيسان/إبريل ذهبت روزي بحراً إلى نيويورك.

أخذتُ محفظة النقود، والهاتف الجوّال، ومفتاح البيت وخرجت من المنزل. بالقرب من الحديقة، قلت لنفسي، ربما أجد روابط للأشياء، على الرغم من عدم وجودها. أثناء السير استمعت للرسائل الصوتية

على هاتفي الجوّال، ثلاث منها كانت قد وصلت قبل أكثر من أسبوعين. استفسار، إن كنت سأحضر حفل استقبال في شارع سوق الأخشاب. من الواضح بأنه ليس معلوماً للجميع، أنني لم أعد موجوداً في برلين، منى تقول إنها أعطت دافيد رقم هاتفي، روزي تسأل، أين أنا الآن، خط الهاتف في برلين مقطوع، نسيت عيد ميلاد بوب، دافيد، لماذا اختفيت دون غناء وأنغام، ما الذي فعله لي؟ إنه يفتقدني، قبل ثلاثة أيام. هل ترك الرسالة الصوتية على جهاز تلقي الرسائل الهاتفية من برلين أو من بروكسل؟ وأخيراً، د. د.، رئيسي السابق من نيويورك. *أيها الأحمق! هل فقدت عقلك تماماً؟ أنا أرفض طلب استقالتك، لا تظن، أنه ليس باستطاعتي أن أجدك في مخبئك، أريد أن تبدأ عملك من جديد، هل فهمت؟* الرسالة القاسية واستني. د. د. ميلز هو بالضبط مثال للرجل الذي يتمناه المرء كرئيس، هذا ما أعتقده. نسيت، كم أنا مدين له. وعندما وصلت إلى ساحة جراند سابلون، لاحظت أنني، لا إرادياً، أسير باتجاه المعرض الذي اختفى فيه دافيد قبل بضعة أيام. الغرف مضاءة على الرغم من الصيف وأشعة الشمس. الآن فقط رأيت الصور، والأشياء الأخرى، من خلال الواجهة الزجاجية. إنها قليلة، لكنه مزيج اختير بعناية. في الداخل، في العمق، جلست تلك السيدة التي دعت دافيد للدخول، إلى المكتب المواجه للنافذة. قرعت الجرس، وَقَفت ومشت ببطء وبدون رغبة نحو الباب على عكس ما فعلت مع دافيد.

«أرغب في رؤية المعرض، هل تسمحين لي بذلك؟» تفحصتني بدقة وحنت رأسها. كان المعرض وبعد رؤيته عن قرب لافتاً للنظر.. ولكن ما الذي كان يريده دافيد في معرض للفن المعاصر ببروكسل؟ فُتح أحد الأبواب. رجل في منتصف أو نهاية الستين من عمره دخل برفقة

شخص أصغر منه سناً. الرجل المُسنُّ يرتدي طقماً رسمياً مع ربطة عنق، بدا وكأنه صاحب المعرض. أما الشاب فيبدو فخوراً بنفسه، متكبراً إلى حدّ ما، معتداً بنفسه لدرجة لا تبعث على الارتياح بسبب عمره، هذا ما أعتقده. شعره أسود ويشبه دافيد إلى حد ما، ملابسه بسيطة ويرتدي فقط قميصاً أبيض وبنطال جينز، أعتقد أنني قد رأيته من قبل. صاحب المعرض رافقه إلى الباب الذي أعيد إغلاقه بعد خروج الشاب. تابعت النظر إليه، حركاته مرنة، بنيته الجسدية تدل على أنه رياضي، عضلاته وشرايينه بارزة. في هذه اللحظة تذكرت أين رأيت هذا الشاب: في برلين، تاجر الفنون في ساحة ليبزغ، لوحة البحر لـ كوربيت. إنه المساعد الشخصي للسيد آرنولد، الذي اختفى دونما أثر. ودعتهما بدون عجلة بطريقة لا تثير لدى صاحب المعرض ومساعدته الانطباع، بأنني ألاحق هذا الشخص. على الشارع رأيته يسير في اتجاه ساحة سابلون. نظرت من حولي، لا أحد يراقبني من المعرض. هبط الشاب إلى أسفل التل بحركة سريعة نحو المدينة التحتية، كان منهمكاً في الحديث بالهاتف، وكأنه يريد إنجاز صفقة ما، مشيت خلفه.

قبل محطة القطارات بقليل، تمكنت من الاقتراب منه لبضعة أمتار. السرعة التي كان يسير بها والرشاقة كانت مثيرة للإعجاب. ثم دخل إلى المعرض الفني سانت هوبرت. في هذا السوق المسقوف يتزاحم السياح. الآن فقط انتبهت إلى أن الوقت هو نهاية الأسبوع. نظر الرجل إلى المعروضات في واجهة إحدى المكتبات. راقبته في الوقت نفسه الذي كانت فيه رؤوسنا تنعكس في زجاج الواجهة ما بين أعداد هائلة من الرؤوس الغريبة إلى جانبنا، في الصورة المتموجة رأيت دافيد الصغير. نظر إلى الساعة، تردد، فكّر، صدم بكتفي زوجين في الزحام، سائحان

يحملان حقائب ظهر، بقي واقفاً في مكانه دون أن يتأثر بذلك.. ثم دخل بحماس مفاجئ إلى أحد المقاهي. اختفى عن أنظاري، الحشد البشري يزداد كثافة. وخلال وقت قصير حجبت الحشود البشرية الجمال البسيط للسوق. المعروضات في واجهات المعارض اختفت وراء مجموعات بشرية ترتدي ملابس غير لائقة وفاقعة الألوان. تعرضت للدفع، الجو حار وخانق، رائحة الناس زنخة، وكأنهم غير مغتسلين وتفوح منهم رائحة العرق، استدرت حول نفسي باحثاً عن مخرج، باحثاً مرة أخرى داخل المقهى، رأيته ينزل الدرج باتزان، لم يكن وحيداً. ثم شققت طريقي لبضع خطوات بين الناس وانتظرت في كوّة. خرج ومعه دافيد. سارا بتصميم باتجاه الساحة الكبيرة. أين هذا والفن، لدافيد صديق في بروكسل.

«بروكسل؟ لماذا بروكسل تحديداً؟ هل تبحث في بروكسل عن وظيفة جديدة؟».

مني لم تفهم شيئاً، كان من الممكن أن تكون أي مدينة أخرى، المهم أن أكون مجهولاً. أشهر كثيرة قضيتها في برلين، وأنا لا أفكر إلاّ بالقيام بعملي حسب التعليمات، وفي الليل لا أفكر بأي شيء آخر سوى بدافيد– وعن طريقة أتمكن من خلالها التخلص من هذه العلاقة الغريبة. لفترة من الوقت كان كل شيء هادئاً، لم يتصل بي ولا أنا اتصلت به. ثم فجأة لم أعد قادراً على تحمل هذا الوضع. فقط وفي هذه اللحظة، وعندما رفعت سماعة الهاتف للاتفاق على موعد للالتقاء به، على غرار تلك الحالة التي يتناول فيها مدمن على الكحول زجاجة الخمر من جديد بعد أشهر من الجفاف، سنحت لي الفرصة للذهاب إلى بروكسل، كانت المنقذ لي. لم أكن أربط بروكسل سوى بالبرلمان

الأوروبي وشوكولاتة ماركوليني. كنت أريد أن أختفي، فالمنزل الذي تمكنت من الحصول عليه في هذا المكان الغريب كان كافياً. لم ألاحظ أنني كنت أتتبع الاثنين، إلا بعد أن بدأت أركض بخطىً ملهوجة، لقد اختفيا عن أنظاري، وكأنها إرادة الشيطان، رن هاتفي الجوّال.

«أين أنت؟».

«د.د.؟»

«أين أنت يا ساوندرز؟».

«في بروكسل. وأريد البقاء هنا، لقد فسخت عقد العمل».

«كتاب استقالتك في سلة المهملات، بإمكانك أن تأخذ إجازة سنوية، نحن الآن في فصل الصيف، سأنتظرك في نيويورك في أيلول/ سبتمبر. لقد بقيت في برلين لمدة كافية، أنا بحاجة لك هنا، هنا حصلت بعض المستجدات».

«أنا أسكن الآن في بروكسل».

«أرجو أن تمر على معارض الفنون. أريد أن أعرف ما هو معروض فيها، سمعت أن هناك لوحة لماتيس كانت موجودة في الأصل في لوزان، وقيل إنها قد نقلت لمكان آخر. ربما تكون معروضة في بروكسل. الصورة مزيفة، لكني اعتقد بأن إشاعة أنها مزورة، هي نفسها تزوير..».

«د. د.، أنا لم أعد في الشركة».

«هذه ستكون المرة الأولى التي يضحك فيها يهودي على نكتة من غير يهودي».

قبل أن أتمكن من التفكير في الإجابة المناسبة، كان الخط قد انقطع. رأيتُ الاثنين وهما يقطعان ساحة البلدية، وعندما أردت اللحاق بهما، سد كائن ضخمٌ طريقي. يا لها من حرارة مرتفعة! ويا له من

ازدحام! المخلوقات الغريبة في تزايد مستمر. عمالقة، أغرقت بأعدادها الهائلة الساحة، التي يمكن أن تكون كساحة السوق في سينا[1] أو نسخة مكبرة عشرة أضعاف لساحة البندقية في صحراء فيجاس. من يستطيع أن يقرر ما هو الأصلي وما هو المزيف؟ أليست الأولى هي حالة أخرى للثانية فقط؟ بالقدر ذاته يمكن أن يصير المزيف أصلياً: بما أن هناك نسخة متداولة، فإنها تزييف للمزيف. من يدري، ما إذا كان ما نسميه أصلياً مزيفاً منذ أمد بعيد؟ أحاول السير متعرجاً وسط غابة من السيقان الاصطناعية. آثار حيوانات منفوخة تغلق طريقي. نجوت بصعوبة من فيل كاد أن يدوسني بخفه، ومن حذاء البطة ديزي، ومخالب نعل ديناصور، وعندما هددت مخالب نمر بأن تقضي علي، انفتح أمامي بلعوم سكيلا[2]. خارِبدس[3] يريد أن يقبض عليّ. في السماء، التي كانت غير مأهولة حتى الآن، ظهرت كائنات طائرة غريبة، نصف إنسان، نصف حيوان، تنينات بحرية لا أستطيع تصنيف أجسامها. الشيطان يعرف ما حشوتها، كرتون، مياه أو لحوم عضلية. الضجيج يحط على طبلة أذني مثل وجبة بطاطس مهروسة مليئة بالزيت، ومن تحتها بدأت تطرق بعنف، لا أعرف ما إذا كان هذا الحشد من حولي يهتف محتفلاً، أم يصرخ، أو أنه ينادي للحرب، ومواجهة غزو هذه الكائنات المنفوخة الحمقاء. ارتفعت سخونة الجو، صار خانقاً، تعالت الأصوات، بدا وكأن الأكسجين صار شحيحاً في الطبقة الجوية، وكأن أحداً غطى

---

(1) مدينة في إقليم توسكانا بإيطاليا.

(2) سكيلا: وحش بحري من الميثولوجيا الإغريقية نصف جسده العلوي يشبه جسد امرأة بينما يتكون نصفه الأسفل من ستة كلاب.

(3) خاربدس: وحش بحري من الميثولوجيا الإغريقية بدون شكل واضح وكان يعيش مع سكيلا في مضيق مسينا.

الكرة الأرضية بمنشفة مبللة، الأرض تهتز، أرض مدينة الملاهي انشقت وانقسمت لقطعتين. أشاهد الآن كيف انزلق جزء من إنسان، مخلوق مشوه نصف حيوان، في الشق، في بلعوم شره نتن، وكأن العمق الهائل ليس سوى معدة ضخمة خاوية محمضة. من بعيد أسمع أصوات منفردة، ليِّنَة وهادئة تتسرب من خلال الضجيج الأبيض، أشعر كما لو كنت أنا الأرض، وأن ما في أعماق أعماقي يكنس نفسه إلى الخارج.

«إنه يصحو. يبدو وكأنه مجبر فوراً على التقيؤ».

الثالث والثلاثون

وَقَفَتْ عند أسفل الدرج، وكأنها تنتظر من يلتقط لها صورة كبيرة.

«من أين أتيت؟ تبدو في حالة تبعث على الخوف، خادمة منزلك قالت، إنك كنت تريد أن تحضرني من المطار، بعد ذلك لم يَرَكَ أحد».

ابتسمت منى وكأن الأمر كذلك على الدوام. الطائرات التي يلحق بها المرء تؤخر الوصول إلى منزل غريب. الحرارة الحارقة في أول المساء، خادمة منزل تكاد تطير من الفرح، مُضيف نسي نفسه من شدة الاضطراب، إنه أمر محرج بالنسبة لي، أن تراني على هذه الشاكلة. أسبح في عرقي، وسخ، لزج.

صعدت الدرج راكضاً، دون أن أرحب بها، نزعت ملابسي عن جسدي، واستحممت تحت المياه الساخنة شعرت أخيراً بالارتياح. الرائحة النتنة التي أتت مع انهياري، العصر المكفهر، الأشكال الشاذة التي لم أجد لها أي تفسير إلى هذا الحين، كل هذا يسري مع المياه القذرة إلى البالوعة. عندما نزلت كانت منى تجلس على الشرفة، ومعها كوب من الشراب، ومن خلال باب المطبخ المفتوح كنت أرى المدام، وهي ترقص وتغرد من شدة الفرح في المطبخ.

«أنت محظوظ بخادمة المنزل هذه. لقد استقبلتني كما لو أنني أعيش هنا، رتبت غرفتي بشكل خلاب، قدمت لي الزهور وقالت، إن بإمكاني أن أناديها في أي وقت. ثم سألت، إذا كان للمدام أمنية خاصة لوجبة طعام معينة في المساء، كانت تقصدني، إنها سعيدة، أين كنت؟».

«اسمعيني»، قلت، لكن، وفي تلك اللحظة أتت مدام أويجين من المطبخ. بلَّغت وكان وجهها يشع من شدة الحماس والسعادة، عن وصول

حطب الموقد، وقالت إنها أوعزت لعمال النقل أن يقوموا بتكديسه في القبو. الآن يمكن أن أواصل إشعال النار في الكمين. نظرت منى بحيرة، فهي ليست على علم بما يجري من حولها.

«أحب النار المشتعلة، منذ أن كنت طفلاً».

«يبدو أنه مولع بإشعال النيران، يا سيدتي». المدام لا تستطيع الكف عن النظر إلى منى وإلي. «تبدو شاحب الوجه يا سيدي». كانت ما تزال تقف في باب المطبخ. «لدي سؤال آخر يتعلق بالطعام. لطفاً، هل بإمكانك أن تأتي لثوانٍ قصيرة إلى المطبخ؟» بدا صوتها وكأن الأمر في غاية الأهمية، لذا لحقت بها إلى المطبخ.

«بالطبع، ليس للأمر علاقة بالطعام، فهذه ليست مشكلة، فبإمكاني أن أحصل على كل شيء ترغب به زوجتك. كل ما أردت أن أقوله لك وباختصار، هو أن زوجتك ظريفة جداً،لا يمكنك أن تتركها لهذا الخنزير، يجب عليك أن تفعل كل ما في وسعك، لكي تستردها، وأنا سأساعدك بكل سرور على ذلك، يبدو أن زوجتك مرهقة جداً، يجب عليها أن تأخذ قسطاً من الراحة، إنها مخلوقة رقيقة، لا بُدّ أنها خُدعت قليلاً، لا ينبغي لك أن تتركها وحيدة، ولا حتى هنا في بروكسل، فربما يكون هذا الخنزير موجود هنا لكي يخطفها».

هززت رأسي علامة الاهتمام، وجعلتها ترافقني صامتاً عائداً إلى الحديقة. يا لها من فكرة حمقاء، أنني قصصت عليها قصة الزواج، لكن من الذي كان يعتقد أن منى ستأتي إلى هنا؟

«سيدي، أنت وكما العادة تبادر دوماً للمساعدة».

«منذ متى يمكنك الطهي؟».

«الطبخ؟ كيف؟».

لفترة من الزمن نظرنا لبعضنا مندهشين إلى حد ما، أبحث عن كلمات. لا، ليس عن كلمات، أنا أبحث عن مخرج للتخلص من منى بأسرع وقت ممكن.

«أين كنت؟».

«لا أعلم شيئاً. وسط المدينة فقدت الوعي في حشود هستيرية. دافيد، دعينا نأتي للب الموضوع، ما الذي كنت تريدين أن تقوليه لي عن دافيد وعن المجموعة الفنية؟ لهذا السبب أتيت إلى هنا، أليس كذلك؟».

مرة أخرى قطعت المدام أطراف الحديث، ورأيت في فم منى بسمة ساخرة، بدت وكأنها تستمتع بالوضع.

«لقد حصلتَ صدفة على نبتة مايبوم. هذا يحدث سنوياً في شهر آب/أغسطس يا سيدي، لقد وضعت فرخ دجاج مع الخضار في الفرن، وقبل ذلك سلطة هِندب مع الجمبري، تليها كريما بالكراميل. آمل ألا تكون قد ملأت معدتك في المدينة عند مطاعم الأكل السريع».

«شكراً يا مدام، هذا شيء رائع، هل بالإمكان تركنا وحدنا الآن؟ لدينا بعض الحديث».

المدام اختفت أخيراً في المطبخ.

«د.د. يريد مني أن أعود للعمل».

«ليس هو فقط».

لا أجرؤ على النظر إليها. ماذا يعني هذا، *ليس هو فقط*؟ لا بد لي أن أوضح لها، أنه ليس بإمكانها أن تبني لها عشاً هنا.

«أنت رأيتَ برلنسامت؟».

«في المرة الأخيرة نعته بـ «هذا الشخص»».

صرت عدائياً، وكأنني أردت، بطريقة سخيفة، حماية دافيد من

مني. الآن. لكن، ألم نفترق، دافيد وأنا، لأنني أردت أن أحميها منه؟ ألم يدفعني لغطه عنها إلى الاشمئزاز؟ ولماذا الآن أصبح العكس؟ وكأنه ينبغي دائماً حماية الطرف الغائب، وكأن غياب الشخص الآخر هي فرصتي الوحيدة.

«يا مارتيني، لديك ضيف! مرحباً، ماذا جرى لك؟ تبدو وكأنك غائب تماماً».

أود لو تغادر من جديد، الآن، على الفور، وقفت مني وذهبت إلى عمق الحديقة، بدأت أحس بالغضب في داخلي.

« اللعنة، لماذا كنت في السرير معه؟».

التفتُّ إلى الوراء، أنا لم أعد عاقلاً، أصير أحمق هنا، ماذا جرى لي، كي أمثِّل أمامها مشهداً مسرحياً؟ منى قفزت على العشب، وانفجرت بضحكة صاخبة، أمسكت ببطنها، اغرورقت عيناها بالدموع. وملست شعرها، ثم خرجت المدام مع ملعقة إلى الشرفة. شعرت وكأنها انتُزِعَتْ من حبها الروحي، ولم تعد قادرة على فهم أي شيء، هزت برأسها، ثم عادت إلى المطبخ. مرت بضع دقائق قبل أن تعاود منى السيطرة على نفسها. فطلبت مني منديلاً ونشفت وجنتيها.

«تمنيت لو تتمكن من رؤية نفسك يا مارتن ساوندرز، العذراء من شارع كورنيش برايتون!».

«شارع هومبولد»، قلت بصوت منخفض، لاحظت من خلاله، أنني عدت إلى هدوئي.

«أنا في الفراش مع برلنسامت، أنت رائع؟ أنا مع هذا اللوطي؟ أنا لستُ شاذة جنسياً».

ثم عادت إلى الجدية.

«حاولت طيلة الوقت، أن أحدثك عن شكوكي، لكنك رفضت أن تسمعني، لم يكن لدي أي فرصة، لم أرَ إطلاقاً شخصاً منغلقاً على نفسه مثلك».

«أين تريد أن تأكل يا سيدي، هل من المناسب أن أفرش المائدة في غرفة الطعام؟».

طلبت منى منها، أن تفرش المائدة في منتصف العشب تحت الأشجار، وعلى قماش أبيض مع الكثير من الشموع البيضاء. المدام، التي كانت مولعة حتى الجنون بمنى، وجدت أن الفكرة ممتازة.

«جئت إلى بروكسل، حتى أتحدث معك بكل هدوء حول ما اكتشفته، فهل تسمع لي ولو لمرة واحدة يا مارتن ساوندرز؟».

«هل قمت بعملية إجهاض؟».

«في أي وقت مضى في حياتي، أم بالأمس؟ ولو كان الأمر كذلك، فما شأنك بهذا الموضوع؟ هل أنت من الإنجيليين الأمريكيين؟».

«يقول دافيد، إنكِ كنتِ حاملاً منه».

تنشقت الهواء بصوت مسموع. المدام أتت من المطبخ تحمل صينية عليها كأسا نبيذ. منى أخذت كأساً، تنفست عميقاً مرة أخرى، وأومأت برأسها، بما معناه *تعالَ أخيراً*. عندما تحدثت، كان صوتها أكثر ضعفاً من ذي قبل.

«ما الذي جرى لك؟ هل أنت غيور؟ لا أعتقد ذلك! الغيرة تنهشك!».

نعم، أنا غيور. لكنها على خطأ. فهي تقصد نفسها. وهي تظن أنني حسدت دافيد على علاقته بها. غير أنها لا تفكر، بأن الأمر على عكس ذلك. تمنيت لو تبدو لي هذه القصة اللعينة غريبة كما تبدو لها.

«لقد جَرَرت هذا الشخص مع مجموعته الفنية، وخلطت الأمور ببعضها. لم أفهم أبداً، ما الذي يُقلِكُكَ في قصة القتل هذه، وفي دافيد، وهذه العائلة الشنيعة..».

لقد كان سبباً لسعادتي. كيف لك أن تفهمي ذلك. أيتها الغبية... «الآن وفوق كل ذلك تلفق لي علاقة حب معه، إنها قذارة. اسمعني أخيراً! لقد حاولت أن أبين شبهة، وعندما أحدثك بكل شيء، يمكنك أن تقرر ما إذا كنت ستصدقني أم لا».

لا أريد الإصغاء إليها، أريد أن أرتب حقيبة سفري، أن أسافر، أن أترك هذه القصة ورائي وإلى الأبد. لكن منى لا ترحم، جلست على مقعد من القش كانت المدام قد أتت به، وبدأت بالحديث. منى كانت قد رأت برلنسامت بين الفينة والأخرى قبل وفاة أمه، وكانت تعرفه معرفه سطحية من خلال حفلات فنانين أو عند افتتاح معارض فنية، فهما لم يتعارفا أبداً، لم تكن تعرف لا اسمه ولا خلفيته التاريخية، وكانت تعدد شخصاً غريب الأطوار وتجاهلته بشكل أو بآخر. وكان يأتي أيضاً لحضور معارض أعياد الميلاد، ويقدم نفسه في كل مكان، وكأنه يريد أن يكون دائم الحضور. كما كان متحدثاً بليغاً، ولكن بدا وكأنه لا يعرف أحداً. كان يبدو دائماً وكأنه دؤوب بطريقة غريبة، ويقدم النصائح للنساء، ومتى يجب عليهن المشاركة في المناقصة، كما أنه لم يتردد في تقديم المشورة للخبراء، وعرض خبراته في مختلف المجالات. إنه يفهم فعلاً بالماس الحقيقي، بالأعمال الفنية الزيتية القديمة وزخارف المينا. وقبل كل شيء، فإنه يفهم شيئاً حول رسوم القرن 19 وبالفن الكلاسيكي المعاصر.

منى كانت تراقب دائماً نفس اللعبة. برلنسامت ينشئ اتصالاً،

يقدم المشورة، الشخص الذي كان يتحدث إليه بدا معجباً، ثم فجأة بدا الشخص المقابل له منزعجاً، وحاول التخلص منه، تؤلمني كل كلمة تنطق بها، لا أريد أن أعرف السبب. لوهلة فكرت أنه كان خطأً، أنني رضخت لطلب منى في المجيء إلى هنا، ثم أسقطت هذه الفكرة. سأرتب حقيبة سفري من جديد، سأختفي، منى واصلت حديثها، دون أن تعي ما يشغل فكري. وفجأة كان دافيد قد اختفى، كان ذلك قبل وقت قصير من وفاة أمه. ولم يفتقده أحد، ومنى أقل من غيرها، فهي ليست مولعة إطلاقاً بغريبي الأطوار. وعندما أحضرته معي مجدداً لأمر يتعلق بلوحة كوربيت، لم تكن في البدء مرتاحة، ولكنها لم تكن منزعجة أيضاً، فقد حافظت على هدوئها. خشيت أن تبدو وكأنها منحازة لأنها لا تُكن المودة لدافيد. وختاماً فقد غضبت بسبب تحمسي لدافيد، لأفكاره، لحيويته، ولروح المبادرة التي يتمتع بها. تصرفت وكأنه لم يكن لي صديقٌ طوال حياتي، وأنني وجدت ذلك أخيراً في شخص برلنسامت. أما منى فقد رأت في برلنسامت فكرتي الوهمية، الجنون الذي اختفيت معه، تماماً كما اختفيت في السابق مع قصة عائلة كموندو. الطريقة التي تعاملنا بها أنا ودافيد فيما بيننا، يومياً كخلّين غير قابلين للانفصال كانت تدعو المرء لأن يظن، أننا عاشقان، كانت تعرف، أنني لست لوطياً. لكنها كانت تفتقد لِسِعَة الخيال لكي تجد تفسيراً آخر.

«لكنك قلتِ لدافيد، بأنني لوطي».

اِبْتَسَمْت، أشعر بالارتياح لقول ذلك، شعرت كيف بدأت بتحقيق التقدم على الأرض.

«هذا محض هراء. من ادعى هذا، كائناً من كان فهو كاذب».

اهتمام منى انصبّ حصراً على موضوع كوربيت،فحفلة برلنسامت جاءت في الوقت المناسب، ولكن: جدران عارية، ماذا يعني هذا؟ دائماً كان لديها انطباع، بأن برلنسامت له دورٌ في اللعبة، ولكنها لم تكن تعرف طبيعة هذا الدور والغرض منه، وعندما انهار برلنسامت في أعقاب انتحار والده، وجدت منى في ذلك فرصة إضافية للتأكد من شكوكها المتزايدة. ثم اكتشفت في شارع فازانن شتراسه لوحة جو دي باوم[1]- كما أنها فحصت بالطبع ظهور اللوحات، وبحثت عن قائمة دون أن تتمكن من العثور على أي شيء، فلا وجود لوثائق خطية. لقد كانت في البدء على قناعة مثلي، بأن هذه المجموعة الفنية هي من المسروقات. لكن عندما اعترف دافيد لها، بأنه حفيد آبتس، افترضت فجأة أن هناك خلفية أخرى.

«لماذا؟».

«الحدس؟ لقد كان لدي دائما انطباع بأن دافيد يريد لفت الانتباه له. لكن الأمر استغرق بعض الوقت لكي أجد رابطاً ما بين حاجته للشهرة وهذه اللوحات، وهذا لم يكن بالأمر السهل. يعتقد المرء أن البعض يحاول أن يصير نجم ألمانيا الجديد».

ابتسمت، فلم أعد قادراً على فهم أي شيء. في إحدى الليالي وبينما كان دافيد نائماً، فتشت منى المستودع مجدداً، واكتشفت في إحدى الزوايا لوحة لم ترها في السابق. لوحة من عصر الرسامين القدامى، من القرن 16، المدرسة الفلامية زهور في زهرية، حجمها 25 × 30 سنتيمتر تقريباً في إطار أسود، لم يكن الرسام من بين الرسامين المشهورين، لكن منى كانت على معرفة باللوحة، فقد عُرضت مرة قبل سنوات في شركة

(1) لوحة فنية للعبة فرنسية تعد المهد للعبة التنس.

نوبل للمزاد، وكان أن بيعت في مزاد بباريس. حملتها بين يديها وهي مندهشة، فاللوحة التي كانت تعرفها، كانت مرسومة على الخشب، أما هذه التي بين يديها فمرسومة على قماش. أخذتها معها وعرضتها على صديقتها كاتيا، مؤرخة الفنون التي تعمل في جزيرة المتاحف[1] ومتخصصة هذا المجال.

«إذاً كانت تلك هي اللوحة التي عنتها السيدة آرنو».

«السيدة آرنو؟».

«قالت إنكِ أخذتِ صورة معك. لم يكن لديها الانطباع، أن برلنسامت قد سمح لك بأخذها طواعية».

«جاسوسة، لم تكن قادرة على أن تتحملني.» مني ابتسمت ابتهاجاً بالنصر. «وأنا أيضاً لم أتحملها».

كاتيا كانت محتارة، فاللوحة رسمت بشكل جيد للغاية، والقماش الذي رسمت عليه كان قديماً لدرجة أن المرء وللوهلة الأولى يحسب أنها لوحة قديمة. لا بد أن الذي رسمها كان قديراً، لكن عمر الألوان لم يكن يتجاوز بضع سنوات. الصورة كانت مزيفة. تمنت منى أن تأتي فوراً مع اكتشافها هذا راكضة إلي، لكنها لم تكن تدرك، كيف عليها أن تُقيِّم علاقتي بـ دافيد. مرة معه، ومرة أخرى ضده، لقد كان الأمر بالنسبة لها محيّراً كم هي على حق!. في اليوم التالي ذهبَتْ من جديد لبرلنسامت، اشترت له متطلباته الحياتية، طهت وتناولت الطعام معه، وقبل أن تذهب، وضعت في جيبها رسماً تخطيطياً من خزانة الخرائط، وأحضرته إلى كاتيا، والنتيجة كانت نفسها.

«هل تعتقد أن كل ذلك مزيف؟»

(1) عبارة عن مجمع للمتاحف في برلين.

«في النهاية لم أكن قادرة على حمل كل تلك اللوحات إلى كاتيا، ولم تكن واحدة من اللوحات المعلمة من الخلف صغيرة، إلى الحد الذي كان يمكن لي أن أضعها في حقيبتي».

بعد بضعة أيام فاتحها برلنسامت، بأنه ينوي الإفصاح عن هذه المجموعة الفنية في وسائل الإعلام. لكن لم يكن ذلك كما خمنت منى. فبرلنسامت لم يخطط لإعلانٍ بسيطٍ للوحات، لكي يتمكن أصحابها الذين صودرت منهم من الإعلان عن أحقيتهم فيها، بل كان ينبغي على منى أن تقنع د.د. ميلز، بعرض اللوحات في المزاد.

«لقد فقد كل صلة بالواقع، بكل بساطة صار مجنوناً».

فجأة تولد عند منى الانطباع، أنها عملت أكثر من طاقتها، ورأت عواقب لا يمكن تخمينها، عواقب قد لا تجر الضرر عليها فقط، بل إنها قد تضر بسمعة الشركة أيضاً. وعندما شاهدت مثلي تماماً بعد بضعة أيام دافيد على شاشة التلفزيون، شعرت وكأنها أصيبت بالشلل. كانت على تلك الحالة التي وجدتها بها، هززتها بشدة، لكي تقف مجدداً على قدميها. لكن فجأة، وفي اللحظة التي ظننت فيها، أن بإمكانها أن تتحدث معي إلى ما لا نهاية، تسللت مبتعداً. ومرة أخرى لم تسنح لها الفرصة لأن تخبرني بما تعرفه. وأخيراً، وبعد أن تعافت من كابوسها الشخصي، رآها برلنسامت مع ماكس فون هايسلر.

«ماكس فون هايسلر؟»

«ماكس فون هايسلر!»

«من هو هذا؟».

لم أسمع عنه من قبل.

«بالكاد يتجاوز عمره منتصف العشرينات، أسود الشعر، طويل

القامة، جذاب إلى حد ما، لمن يحب مثل هذا النوع من المخنثين. ملابسه جيدة لافتة للانتباه، يتحرك كراقص. للوهلة الأولى فإن مشيته هي أكثر ما يلفت الانتباه. فأنا لم أر أبداً شخصاً يُحَلِقُ في الهواء بتلك العنجهية، وكأنه المسيح يمشي فوق الماء».

توقعت منى أنه من البلطيق، لكن من الممكن أن يكون الاسم مبتدعاً. يقال إنه رجل أعمال جيد، على الرغم من أن أحداً لا يرغب في عقد صفقات تجارية معه، ربما باستثناء الروس. فهو شخص مثير للريبة، يتاجر بالأعمال الفنية، فضلاً عن أن بإمكانه أن يؤمن كل شيء آخر: الماس، وبيع تذاكر الحفلات الموسيقية التي نفقت والكافيار.

«كيف حصلت على البيت؟ انه مُضحك مع الدرج الطويل، والعديد من الغرف الضيقة».

لقد رأيت ديفيد مع ماكس، وانتابني شعور لا يمكنني وصفه، ولا أريد تسميته.

«مارتيني، هل جرى لك شيء؟».

«ماذا؟ آه، هل تذكرين كاسبار دي لاك؟ تلك الدعوة في الشتاء، حيث تم الشواء في الخارج؟ زميل له كان يعيش هنا من قبل، وكان عليه العودة إلى برلين. هذا أعطاني فكرة بروكسل، إنه محض صدفة».

«ككل الأشياء، أليس كذلك؟ وأيضاً مثل لقائك مع برلنسامت. أنت لم تفكر مطلقاً، أنه سيكون بحاجة ماسة لك؟».

في ذلك الوقت الذي كانت منى تعتني به، ذكر دافيد عرضاً، اسم بلدة ريفية، بيت يقع في دير سابق في مدينة هالبر شتادت[1].

«يبدو وكأنه يتصرف مع دافيد وأفعاله، كما الماس الشهير المعلق في

(1) مدينة ألمانية.

الثريا. الحل موجود أمام أعيننا، ولهذا السبب بالذات لا نراه. ماذا لو أنه لم يكن يريد أن يخفي شيئاً، بل على العكس من ذلك، كان يريد أن يكشف عنه؟».

«أنت على حق، كان يرغب في أن أرافقه إلى الريف».

منى تجاهلت رغبته، وفضلت أن تقوم بذلك بنفسها، لم ترد أن تلعب اللعبة التي خطط هو لها. في الإنترنت لم تجد سوى ديرين بالقرب من هالبر شتادت، أحدهما مأهول، أمّا الآخر فكان خراباً. منى بدأت بالثاني، العزبة الريفية كانت تابعة لدير بندك رئيسي، وباستثناء ما يسمى قصراً رخيصاً من القرن التاسع عشر، ومبنى يبدو أنه كان يستخدم كمستودع، كان المكان خراباً. منى أوقفت سيارتها أمام المبنى القديم. كان الضوء مشعلاً في الطابق الأرضي، غير أن الشِباك الحديدية للنوافذ كانت مرتفعة للغاية، حتى لا يتمكن المرء من النظر إلى الداخل، وأمام البيت مساحة مهملة، أعشاب ضارة، حاويات القمامة، ولا وجود لحديقة. الباب الكبير المصنوع من خشب البلوط، انفتح عندما أرادت منى أن تقرع الجرس الضخم، ثم وقفت في بيت الدرج، حيث قابلتها امرأة شابة ترتدي أفرهولاً أزرق. منى قدمت نفسها وقالت، إنها تريد رؤية دافيد برلنسامت، فاصطحبتها المرأة الشابة إلى غرفة كبيرة تشبه ورشة عمل للرسامين من القرن الماضي. كانت بعض الرسومات لرسامين من الواقعية الفرنسية، الانطباعية: وأيضاً كانت هناك لوحة لبراكو *Braque* واثنتان أخريان ولدراين *Derain*، كانتا مثبتتين على الجدران التي كانت دون مِلاط.

المكان كان مليئاً بالبراويز وبالأقمشة التي تستخدم للرسم بأحجام مختلفة، وعلى حامل للرسم كانت هناك لوحة البحر لكوربيت.

مساعدة دافيد اللطيفة كانت تدعى ليزلوته فالك، وهي طالبة في أكاديمية برلين، كانت مهمتها تحضير اللوحات للرسم: نصب اللوحات وطلاءها باللون التأسيسي، إلخ.

«هناك كنا إذاً: دافيد اخترع تقنية جديدة غير عادية، وقد اهتم لفترة طويلة، بكيفية المزج والتحضير كي تبدو النسخ وكأنها حقيقية. أما مساعدته فقد كانت مولعة به. إنه لرسام فذ، وقد تعلمت *الكثير* على يديه، قد ورث مجموعة فنية عن جده، وهي التي جعلته يفكر بالاستنساخ».

ليزلوته فالك تحدثت إذن عن نُسخ، وليس عن لوحات مزيفة. اعتقدت بأن ما تفعله شيء قانوني بحت. لم يخطر ببالها البتة، أن موضوع المجموعة الفنية الموروثة لم يكن إلا محض كذبة.

«ومتى بدأوا بذلك؟».

«قالت إن ذلك تم بعد فترة قصيرة من التغيير[1]. لوحة البحر لـ كوربيت كانت البداية».

«لن يتخلى أبداً عن ذلك، أليس كذلك؟ ما تنشره الصحف حوله سيّان بالنسبة له. المهم أن يبرز في وسائل الإعلام».

أشعر بالبؤس، فالتفكير بأنني لن أرى دافيد مرة أخرى يؤرقني. عندما كنا نطق الأكواب، كنت أعلم، بأنني سأوافق على الاقتراح الذي عرضه د. د. علي بالعودة إلى نيويورك، وسأدع الناس تحركني من جديد.

«مارتين، أنت شارد الذهن من جديد».

أنظر إليها، أحاول أن أبتسم وألاحظ كيف تشنج فكي.

(1) مرحلة التغيير التي أدت إلى إعادة توحيد ألمانيا في عام 1990.

«هل ستعود إلى برلين كما اقترح د. د.؟».

«لم يقترح برلين. قال إلى نيويورك».

صمتت لوهلة من الزمن وكأنها خرساء.

«آه، هكذا» بدا صوتها غير مسموع، وبعد بضعة ثوان تمالكت نفسها. «متى؟».

«قريباً جداً».

«أليس من المدهش، أن يعمل المرء في هذا المجال دون أن يكون قَطْ في نيويورك؟ في هونغ كونغ، لوس انجليس، في دبي، في كل المدن الأوروبية الكبرى، ولكن ليس في نيويورك؟ أريد رؤية المركز الرئيسي، والتعرف على المدينة لبضعة أيام، في الصيف الهندي».

لم أعلق على ذلك، فقد جاءت المدام مع المقبلات من المطبخ، وبدت في غاية السعادة، لالتئام شمل الزوجين.

الرابع والثلاثون

بعد ثلاثة أسابيع جلسنا معا في طائرة إلى نِوارك *Newark*. أصرت مني أن تحجز في نفس الطائرة التي سأسافر على متنها. لم يكن بالإمكان، إجبارها على التخلي عن فكرة زيارة نيويورك في الصيف الهندي. ولا حتى من خلال معلومة أن الصيف الهندي يبدأ في تشرين الأول أكتوبر. كانت رائقة المزاج عندما انفصلنا أمام شبابيك إدارة الهجرة. اصطفت في صف المسافرين الأوروبيين، وأنا في صف المواطنين. كان الطقس في الخارج مشرقاً، وما يزال في الهواء دفء الصيف. إنني أشعر بعدم الارتياح، ربما بسبب الأيْض الملعون الذي سيزول بعد بضعة أيام. ظِلٌّ عابر، إعادة بطيئة لصورة تمر في ذهني، وأتساءل مرة أخرى، في أي نقطة تسببت خطأً في التحويلة، لكنني لا أرى، كيف يمكنني أن أؤثر على لحظة في العام المنصرم، لكي... عندما وقف بوب أمامي دون توقع في قاعة القادمين، لم أذكر له أنني أخطط فعلاً للإقامة عند جبرائيل في الجهة الغربية العليا. رحب بمنى ترحيباً حاراً، بينما كانت هي في غاية السعادة للفرصة التي سنحت لها بالتعرف على أحد أفراد عائلتي، وغير مصدقة.

«صديقتك ستسكن عندنا بالطبع، فالمكان واسع بما فيه الكفاية».

«ولكن الفندق؟».

«سوف نلغي الحجز فوراً. ما هو رقم الهاتف؟» بوب الطيب كان قد وضع هاتفه الجوّال على أذنه.

منى مفتونة بمرتفعات بروكلين. لم تكن قادرة على أن تصدق ما تراه، عندما نظرت لأول مرة إلى ناطحات السحاب في مانهاتن من

شرفة روزي الشمالية.

«وكأنني في فيلم».

روزي لا ترى ذلك كفيلم. نظرت إلى منى، ثم إلي، لكنها لم تقل شيئاً. وبعد أن أخذنا أمتعتنا إلى الغرف المخصصة لنا، قدم لنا بوب القهوة في الحديقة، ووضعت العلبة الجلدية دون أن أنبس ببنت شفة على الطاولة. حدقت روزي في العلبة كما لو أنني قدمت لها أمعاءها على طبق من فضة. أمر لا يمكن تصوره أن لهذه المرأة التي تجلس أمامي الآن أي صلة بتلك الفتاة المائلة إلى السمنة التي وُجِهت لها هذه الرسائل التي في داخل العلبة، مع تلك المرأة التي أتت إلى سريري في تلك الليلة في لانجنفيلد... بشرة روزي ناعمة، قامتها لا غبار عليها، شعرها أبيض بلون الحليب كما لم أره عليها من قبل. لا أستطيع أن أتذكر شيئاً. يبدو وكأن روزي بلا عُمر. بعد نصف ساعة من المجاملات، تحدثت فيها غالباً مع منى، أعلنت أنها ستنسحب لفترة قصيرة لتبديل ملابسها، وقالت إنها حجزت لنا طاولة في مطعم *السيرك* مساءً، وستأتي السيارة بعد قليل لتأخذنا. إنها فكرة جميلة حقاً، أن نتجول بالسيارة في أنحاء المدينة، لكي تتعرف منى عليها، ثم وبعد طعام العشاء نشرب الشمبانيا بمناسبة عيد ميلادي في بار بانينسولا.

استحممت، وبدلت ثيابي وعدت إلى الحديقة. العلبة الجلدية لم تكن في مكانها. ولإضاعة وقت الانتظار، بينما يجهز الآخرون أنفسهم، مشيت فوق العشب وألقيت نظرة على مزروعات بوب الجديدة. عندما التفتُّ خلفي إذا بروزي واقفة على درج الحديقة. إنها كلماتها هي، وببرودة تنم عن قناعة تامة، جعلتني أكتشف فجأة، من الذي أطلق الرصاص على أم دافيد.

«ما الذي كان علي أن أفعله برأيك، يا سيادة القاضي؟ أن أطلق النار أولاً على والدي، ثم على نفسي، لأنني ولدت في بلد يختنق بالأوساخ؟ أنت أمريكي. لم يكن بإمكاني أن أفعل لك أكثر من ذلك».

أدارت نفسها ونادت على بوب، *أن أطلق النار أولاً على والدي، ثم على نفسي*... دافيد هو الذي أطلق النار على ميريام برلنسامت وليس والده. كان يريد إعدام والديه. وهذا بالضبط ما نعتته إدفيجه بليس فاجعة. وقفت منى في باب الحديقة.

«ماذا بك، هل ستأتي؟ والداك بانتظارنا. ماذا بك، يا مارتيني؟».

«دافيد... لقد اتضح لي الأمر الآن..».

«هيا بنا. حان الوقت لكي تنساه. إنه شخص مختل عقلياً. أنا سعيدة لقضاء المساء في المدينة».

سارت السيارة ببطء، بسبب ازدحام حركة السير، في عصر اليوم بنيويورك، من جسر بروكلين مروراً ببارك روي وحتى أسفل شارع برودواي، وول ستريت، ستي هال، كنيسة الثالوث. بينما كانت روزي تشرح لمنى عن هذا الحي، عقدت جفنيّ في محاولة أن أرى كل ذلك بعيون غريبة. روزي عددت الأسماء والتواريخ والأرقام مثل دليل سياحي في جولة في المدينة، ردت على كل سؤال، وكانت تفعل ذلك بالألمانية. منذ عقود لم أسمع روزي تتكلم الألمانية، يبدو أنها غير متمكنة من اللغة، وهي لطيفة مع منى، تلبي لها كل شيء، ولكنها معي ليست كذلك.

«عندي عيادتي منذ سنين في المرتفع الشرقي، بيوت الحي هناك بيضاء وأنيقة. لكن لهذه المنطقة طابعها الخاص حقاً، على الرغم من أنها تغيرت بفعل براغي السماء أو ناطحات السحاب التي يزداد ارتفاعها

بشكل مضطرد، إلا أنها بقيت النواة كما كانت على الدوام. إنها القلب النابض لمدينة جوثام».

«مدينة جوثام؟».

«مانهاتن. لا شيء يقوى على تغييرها».

منى نظرت إلي، ربما أنها تستغرب نبرة روزي، التي يسمع فيها نوع من التحدي.

«لا يمكن لشيء على الإطلاق، أن يأخذ من هذه المدينة».

هل أتخيل، أن صوتها يتذبذب؟

روزي قالت للسائق أن يسير في طريق آخر. غادرنا الشوارع الضيقة بمنازلها الهولندية الصغيرة وسرنا باتجاه النهر.

«إن أوائل المهاجرين بدأوا في هذه المنطقة، بالتجارة بكل شيء، إنه الأساس، وهو حي رجال الأعمال، وقد نمت هنا مجموعة جديدة من الزبائن، أنا أيضاً بدأت هنا. إنني أفكر منذ وقت طويل، أنه إذا ما كان ينبغي علي العودة إلى هنا، يجب علي البحث قريباً عن مكان مناسب، والأفضل أن أبدأ من الغد».

لم تعد تتحدث إلى منى، إنها تكلم نفسها، كما لو أنها وحدها في هذا العالم.

«إذا قرر المرء شيئاً، فعليه أن يتجنب التأجيل. من الضروري أن يحدد المرء هدفاً واضحاً، وإلا فلن يحقق أي شيء».

«من هم زبائنك؟

«عندما بدأت، كان زبائني من الناس العاديين. أما اليوم فهم في المقام الأول من رجال الأعمال، وبتزايد مستمر رجال ونساء من السلك السياسي».

«أأنت طبيبة؟».

منى، لو كنت تعلمين! إنني أنتظر بفارغ الصبر إجابة روزي. لم يحدث هذا من قبل، ولم أسمعها أبداً وهي تتحدث عن عملها.

«أنا مدربة. إنه أسلوب حديث للاستشارة في شؤون الحياة الخاصة والعملية، أتفهمين؟ أقوم أولاً بتشخيص الحالة، ثم أضع خطة العلاج المناسبة. ببساطة: أشرح للناس ما بداخلهم من طاقات وكيف يمكن استغلال ذلك على أفضل وجه، في الوقت المناسب، وباستخدام معقول للطاقة. إنها عملية حسابية بسيطة».

منى أشرقت فرحاً. «إذاً فلقد درست الاقتصاد. أناس سياسيون؟ أمرٌ مثيرٌ للاهتمام. بالطبع ليس من المسموح لك، أن تذكري أسماء».

«بالطبع لا».

منى أخرجت رقبتها من السيارة، وبعد أن أدخلت رأسها من جديد، بدا واضحاً مدى التأثر عليها.

«أتصور، أنني رأيت كل هذا من قبل، على الرغم من أنني لم أكن هنا إطلاقاً».

«ربما تعرفت على ذلك من خلال الأفلام، ففي ألمانيا يعرف الناس نيويورك من الأفلام».

أمر مدهش. من أين عرفت ذلك الآن؟ إذا لم أكن مخطئاً، فإن إقامتها الأخيرة في ألمانيا ترجع إلى ما قبل أكثر من أربعين عاماً.

«أمر ساحر، هذا النشاط، الشوارع الضيقة المكتظة، في المقابل فإن برلين ليست سوى عش نائم».

«بقي نصف ساعة على إغلاق البورصة. خلال النهار يسود هنا هدوء شامل، لدرجة أن المرء يسمع الإبرة إذا سقطت».

«من المؤكد أن افتتاح عيادة جديدة هنا، سيكون قراراً جيداً، يا سيدة ساوندرز. لن يحتاج زبائنك في المستقبل، إلا عبور الشارع لأخذ مشورتك».

ليس لدى منى أي فكرة، حول ما تقصده روزي، ولا تعرف مدى الجدية في كلام أمي. عندما نظرت إلى روزي، ارتسمت على وجهها ابتسامة واسعة، لينة للغاية مقارنة بأفكارها.

«في المستقبل... نعم، نعم المستقبل. فكرة جيدة؟ هذا مكتوب في النجوم».

أرى أمامي منى، ناطحات سحاب مانهاتن في الواجهة. لقد رتبت صينية الإفطار لأحملها إلى الأعلى، بحثت في خزانة المطبخ عن أطباق وفوجئت ببوب، يدفعني جانباً ويعرض علي بفخر «ما اشتراه حديثاً». لم أصدق عيني: فناجين بحجم أواني الزهور.

«إنها إصدار فني اسمها «الموجة» لرسام فرنسي، وهناك ستة إصدارات منها. كل شهر ستصدر واحدة منها. لقد أصبحت ثلاثة منها بحوزتي».

بأقدام عارية تتكئ على الدربزين، وبمعطف حمام ضيق ملفوف على الجسد، جلست منى في واحد من كراسي الخيزران على الشرفة. لا يزال الوقت مبكراً وبارداً بعض الشيء. وضعت الصينية مع القهوة والكراسون بجانبها.

«يا له من يوم رائع! هذه المناظر! والداك ظريفان، أتعلم كنت أود حقا أن..».

لم أسمع البقية، فجواب روزي على علبة الجلد ما يزال يحيرني. أرى نفسي وأنا أبحث في أغراضها، أرى نفسي وأنا أتسلل عبر مانهاتن مُتَقفياً أثرها... أراها أمامي في تلك الليلة في سريري وهي تقول: هل أنت مستيقظ، يا تيني؟ هيا، اصح، لقد حان الوقت الآن لنختفي... هل تعمد دافيد أن يلتقي بي؟ لم تكن صدفة أن ينزل إلى البوابة في الوقت الذي كنت أقف فيه هناك؟ أنا أحلم، وما زلت حالماً، أحلم به، عندما أطلقت منى صرخة اختنقت في نفس اللحظة. فمها كان مفتوحاً، لفترة طويلة. هذا على أية حال ما أتخيله، عندما أراقب عينيها المذهولتين،

أقف هنا بلا حراك وأحدق في سحابة سوداء. فأنا لم أشاهد أبداً سحابة بمثل تلك الضخامة فوق مانهاتن. في يوم صاف مشمس.

شكر

شكري الجزيل للنصائح، وللجهود، وللإلهام والحماس الذي لقيته من انيت سي. أنطون، وشكراً جزيلا: بونجارتس، مكسميليان أي.ر. فاكلام، هانك، مريم جاكوبس، كلاوس يوكيتش أرشيف صحيفة راينيشه بوست، مانويلا لانج الأرشيف الاتحادي كوبلنز ، جو. فان نوردن، باسكال ريختر، سيجن روسباخ، أنيا شوتسباخ، باربرا ستانج، ماجدة سترويلي- يوسف، شارل سويسمان، ستيفاني تاش، يورجن تريمبورن، مارين فايندل، راينر فايس، ومن العاملين في مكتبة وزارة الخارجية في برلين.

برلنسامت

مارتين ساوندرز مؤرخ للفن. يتعرف صدفة في برلين على دافيد برلنسامت. وهو شخصية غريبة الأطوار. ولكن ذات طبيعة جذابة وفريدة. بعد أيام قليلة من تعارفهما تحدث جريمة قتل في شقة برلنسامت. تحمل صدفاً وأحداثاً غريبة أثرت على مسار الرواية بشكل واضح.. كما جاء في طي الأحداث أيضاً لوحة لكوربيت. التي كانت معروضة في فرع شركة نوبل للمزاد في برلين. كان قد رآها سابقاً ساوندرز في شقة برلنسامت.. ترى ما الحكاية؟

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ

كلمة KALIMA

9 789948 017677